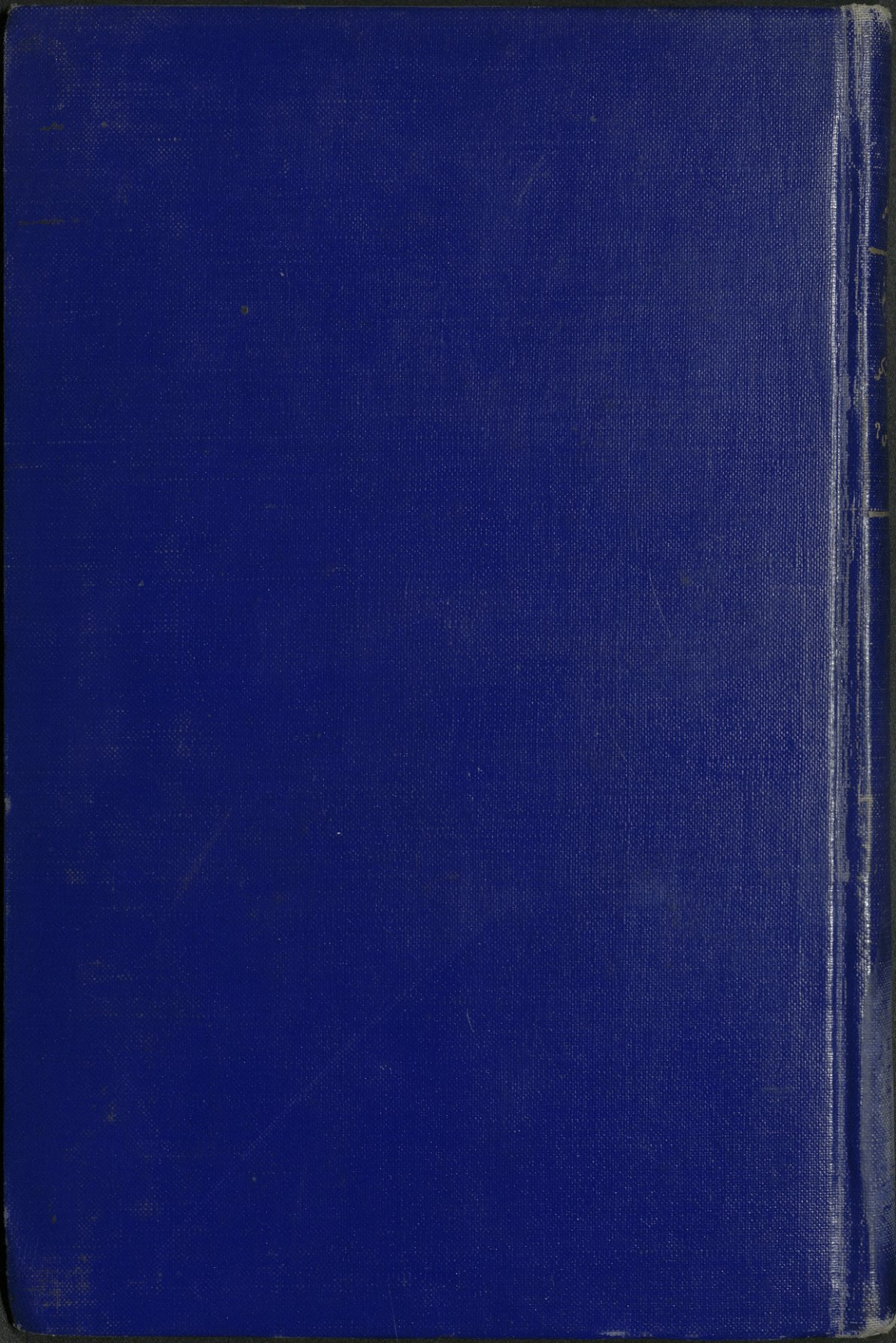
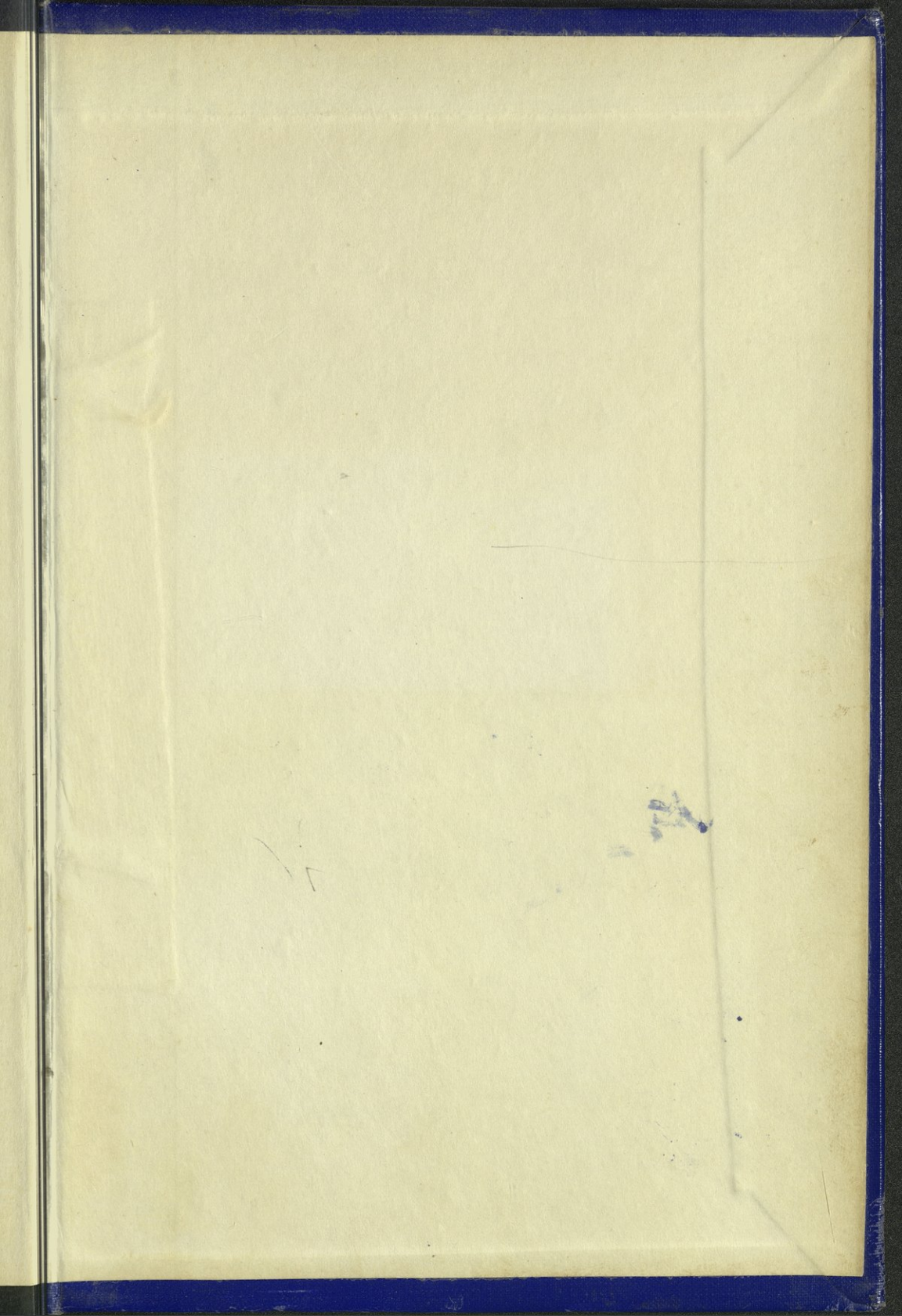






331:Sa15mA

صقر - الياس يوسف

ميشكو الناس؟

FEB 2

A1471

A2320

331

Sa15mA

RE 17 3

SE 7 52

007 34

NO 10 54

NO 24 54

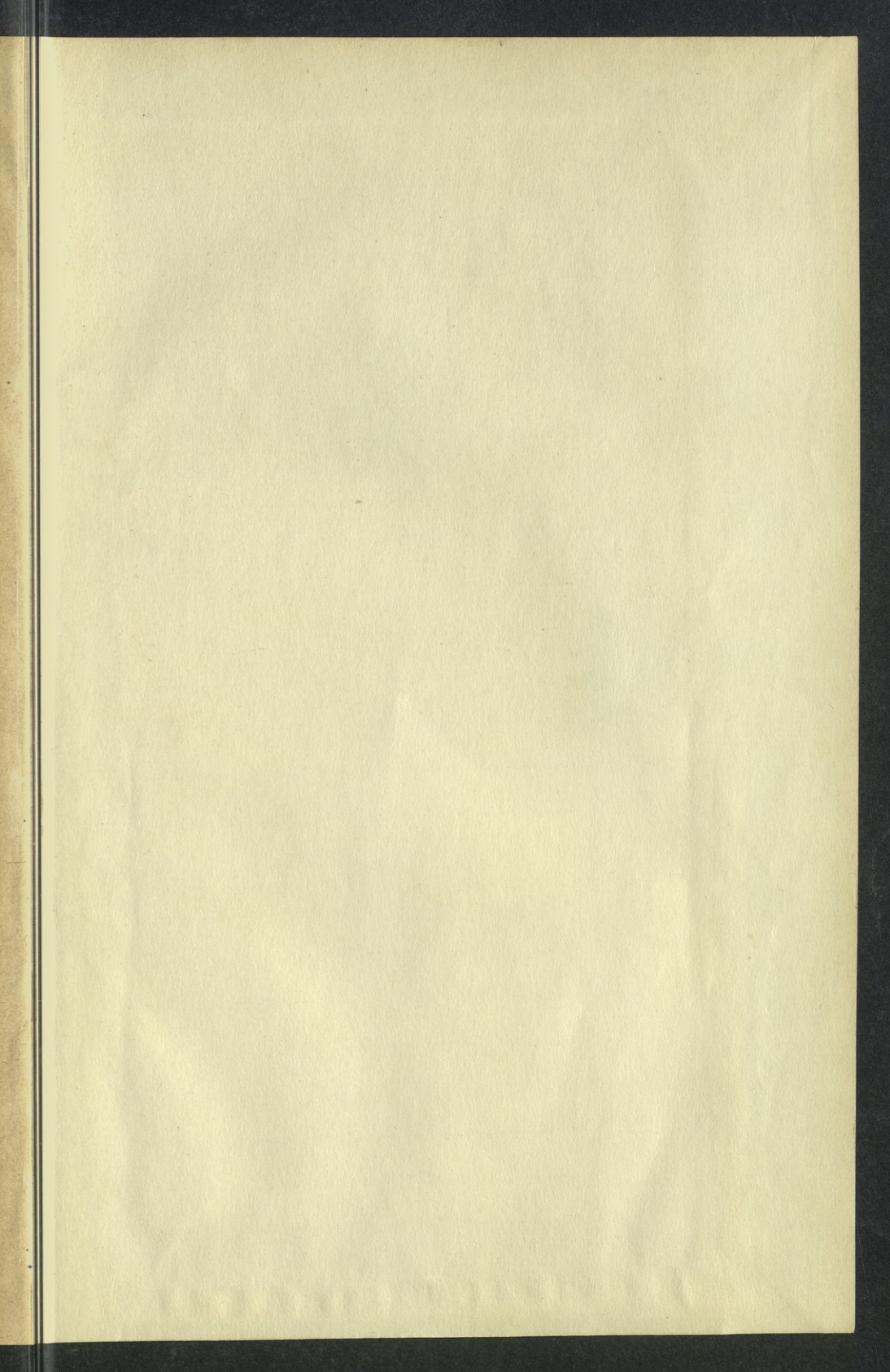
DE 8 54

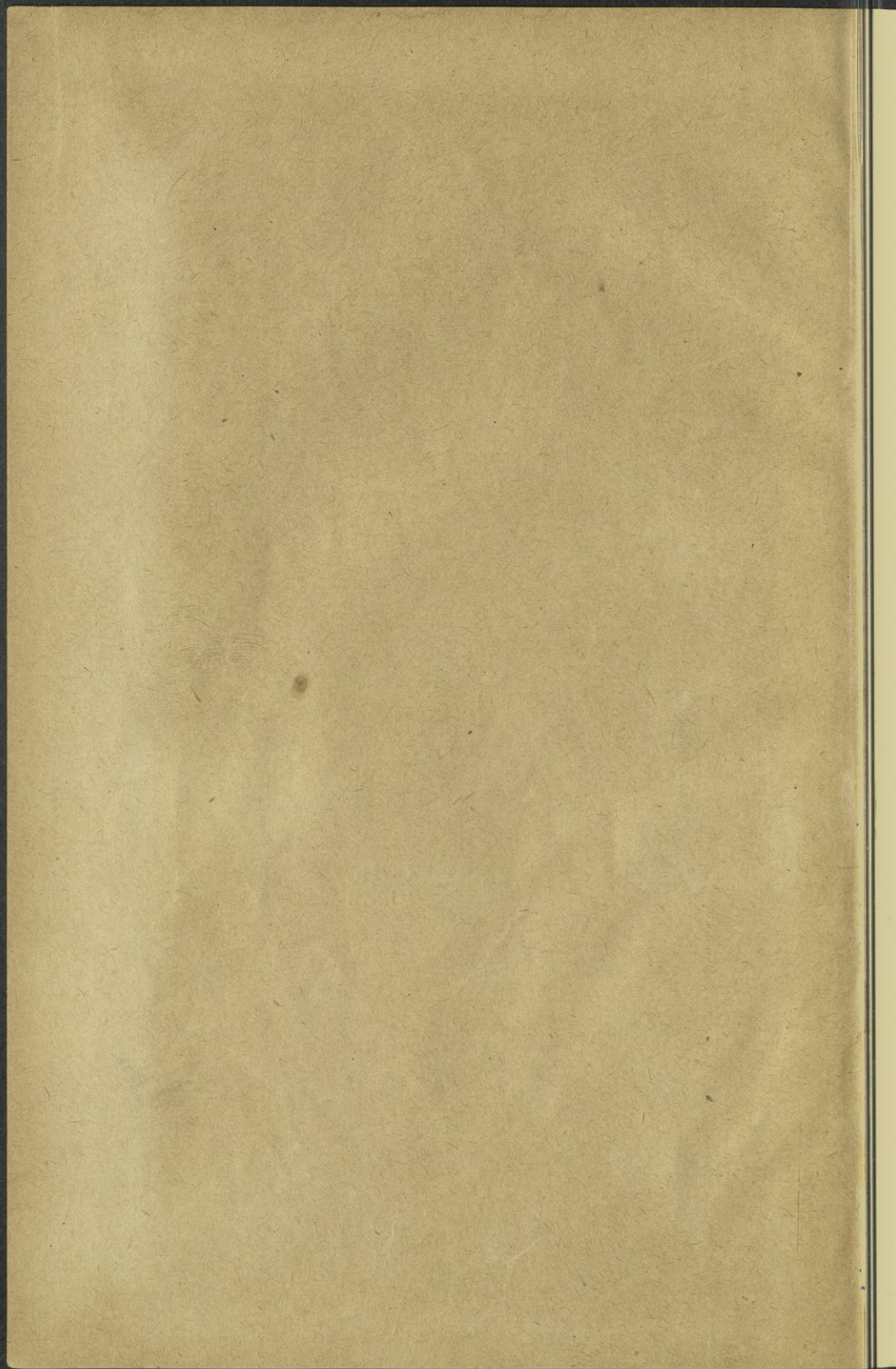
MR 9

TA 4

22 '56

11/1/57





1000000000

331
Sa15m A
C.1

إلياس يوسف صقر



مِمَّ يَشْكُو النَّاسُ؟

مَصِيرُ الْعَالَمِ رَهْنُ مَصِيرِ الْعَامِلِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

cat. 28 Dec. 53



توطئة

لا تطور العالم ولا تقدمه الفني ينبغي لهما ان يفضيا بالمرء الى تناسي معنى مصيره ، فعلى الانسان ان يلج قوارنه والا عمي عن ذاته وعن النظر الى عمق مستقره وسعة فكره الذي يسيطر على المادة ويسيرها وان كانت بمقدورها ان تسحقه سحقاً على حد قول باسكال .

ومن الواجب ان يؤدي تطور العالم الى تحرير الانسان - لا من اخيه الانسان طبعاً لان صلات البشر وتعلق بعضهم ببعض آخذان دائماً بالازدياد - بل من المادة .

وانه لمن العبث التفكير بقيام مجتمع من دون طبقات كما انه من الوهم الاعتقاد ان نمة مجتمعاً قد خلا من العصص والآلام لان كليهما النسيج الذي حيكت من خيوطه حريتنا التي ترومها راسخة عظيمة .

اجل ينبغي لتطور العالم ان يحمل الى الانسان تحرره من المادة التي اذا ما اصطفتها يده كادت تسيطر على نفسه لتشدّه الى ارض وان كانت ظئره فانها لا تعدو عن ان تظل ارضاً وتراباً .

بله ان المرء لتواق بجميع جوارحه ، بروحه وارادته وكل كيانه الفكري والادبي الى ايجاد وحدته التي لا تتم بالمادة .

وفي عالم تفوقت فيه بخاصة الكمية قد ارجع التقدم الاقتصادي والانتاج الانسان الى نكرة نكراء بدلا من ان يجعله شاعراً بالقيم الفكرية .

والظاهر ان التطور العالمي قد حمل الدولة على ان تمسك بنظام جميع الشؤون وتخضع كل امر لتقدم الانتاج من دون ان تفكر بأن لها مهمة

اخرى مقدسة ألا وهي تثقيف الشخص الانساني لتعمل كل ما يسعها ان تعمله لتسهل عليه توثيق اركانه ليكون شخصاً أيداً .

ايه لم يأت التقدم في جميع أشكاله بالعلاج لغص الانسان . فالنظرية التفاضلية : نشب جماعة « الانسيكلوبيديّة » التي عززتها آراء القائلين : « دع الامور تجري في اعتها فليس بالامكان ابدع مما كان » وتعاليم ذوي المذهب الاقتصادي الحر تحمل على الاعتقاد « ان التقدم محتوم » هذا التقدم الذي اسفر في النتيجة عن تلك الاطمار البالية التي وصفها اناس على شاكلة بوره « Buret » وفيارمه « Villermé » وفيلنوف دبارجون-Ville neuve de Bargemont في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اجل انها تلك الاوضاع الباعثة على الاسى التي ارغمت الصغار على البقاء من ١٢ الى ١٤ ساعة في جحيم ليحملوا منها بضع درهمات لذويهم . . . ليحملوا منهم ما استطاعوا ان يجعلوا : مدمني خمره واباحيين واوهمين جنة المملقين .

والى جانب ذلك كانت الثروة المتضخمة وعلى طرفي تقيض منها اسمال البائسين فنشأت من جراء هذا التناقض الماركسية وحل الكادحون محل اقنان العهود البائدة .

اجل لقد تبدلت الاوضاع التبديل كله وتحسنت شروط العمل تحسناً لا بأس به . اما العامل فما يضرع الى السماء طالباً الانصاف والعدل قبل ان يطوقه ارباب الاعمال باحساناتهم .

ولقد كانت البراءات الجبرية لمثل هذه المناسبة تحمل النور الضروري وعناصر التفكير الكافية الى ذوي الارادة الحسنة الذين لا يرغبون في

ان يفقد عالمنا صورته الانسانية وتعرضها على نياتهم الحسنة وافقدهم .
نعم ليس من الطبيعي ان يفقد الانسان الحر العاقل افضل ما لديه في
الآلة لان التقدم المستحب عليه ان يحوله الانصراف الى اعمال اشد مماشاة
لطبيعته .

وثمة ذلة ما برحت مكتومة الا وهي ان يجهل الانسان الغاية من
عمله وان يظل في جملة من لا يُعتد بهم .

يجل انها البراءات الخبوية التي توضح صراحة الانسجام الاساسي بين
مقتضيات الانتاج الاقتصادي بأدلة العقل الطبيعية وبحسب آراء الكنيسة .
اما البخل واما الصلف واما الجشع فقد كانت دائماً الحوائل دون تنفيذ هذه
المبادئ .

هذا ما اوضحه مؤلف الاستاذ الياس يوسف حقر الذي اطلعت بعناية
عليه فقد وضع نصب اعيننا المأساة الاليمة مأساة المادة والفكر والصراع
الذي لا ينتهي بين رأس المال واليد العاملة ،

ولم يشاء المؤلف في كتابه التاريخي ان يلفظ حكمه ليدع القول
الفصل للبراءات الخبوية التي انارت الشبهة وقالت بم عزل عن تضارب الافكار
واختلاف المناهج والمتناقضات كلمتها الواحدة معلنة الحقيقة لانها انعكاس
الحقيقة المتجسدة .

واننا لمفتقرون في لبنان والبلدان العربية الى مؤلف يسد الثمة وها
هوذا كتاب الاستاذ صقر يرّم هذا الحال .

ومن المفيد الى جانب التطور في جميع البلدان العربية ان يكون تحت
نظر المسؤولين المستندات التي تهديهم في مقرراتهم وتوضح الاخطاء والمشاريع
العملية النافعة التي ملأت تاريخ المعضلة الاجتماعية .

ولئن تمينا امراً فاننا نتمنى رواجاً واسعاً لهذا الكتاب وان يقتنيه
طلاب مدارسنا واساتذتها وجميع الذين يعنون بالمصلحة العامة أي كل من
يشعر بمسؤولياته .

الاب اغناطيوس عبدو خليفة اليسوعي
مدير مجلة المشرق

١٨ ايار سنة ١٩٥٣



ملحوظات لا بد منها

ليس بين افراد البشر فرد واحد لا يشعر بما تقيمه المسألة الاجتماعية في وجهه من عراقيل .

وينبغي للانسان ان يكون اصم اعمى لكي لا يرى ويطرق مسامعه اننى توجه وكيفما سار الضجة التي تثيرها العقود بين اصحاب الاعمال والعمال سواء أكانت عقوداً فردية ام جماعية .

ولا شك في ان الذي يتعامى عما يثار من اضطرابات وينشب من منازعات بين ذوي الاعمال والمعاهد والملتزمين وبين اصحاب رؤوس الاموال هو عائش في برج عاجي او في احد قصور الجان الشعرية ...

والا كيف يستطيع ان يغمض العين عن الحكم والقوانين التي كانت في سبيل وضع حد فاصل في هذه الامور ليرد الحق الى نصابه والعدل الى مستواه النسبي ... فما هي اذن هذه الحوادث ؟ وما سببها ؟ وماذا ينبغي الناس من وراءها ؟

أو لا نرى هذه المنظمات العمالية العديدة والجمعيات الشنتية التي يزعم رجالها ان رائدكم تبني مبادئ العدل والانصاف وانهم من انصار العامل والمزارع والصانع والمعلم لانهم مظلومون قد حل الحيف بساحتهم ويعمل كل منها مستقلاً كل الاستقلال عن غيرها وقد اتفقت جميعها في الظاهر على التضامن مع العامل لتشد ازره ! فما هي هذه الفئات ؟ وما هو شعارها الحقيقي ؟ وما الراية التي تسير تحتها ؟

ان جميع هذه المنظمات لتدعونا الى اعتناق المبادئ التي تقول بها
وتغرينا بصحة مثلها العليا وتحاول ان تجعلنا على الائتلاف معها من اشدها
تمسكاً باللون الوطني الى ابعدها عن الاخذ بالمبادئ القومية .

ولا تتهاون اية جماعة منها فيما تتهاون في ان تعرض عليك وعلى مبادئها
بشكل مغرٍ جذاب يخيل اليك والى في آن واحد ان مبادئها هي المبادئ
المثلى التي لا يعترها الباطل !

فالى اية ناحية يجدر بنا ان ننحاز وبأي مبدأ يصح لنا ان ندين ؟
وما اكثر النظريات التي تعترضنا وبعضها ينقض بعضاً . من مذهب
اقتصادي حر الى اشتراكي وما يتفرع عنه كشيوعي وتعاوني . . . الخ
فما هي الناحية التي نرغب في الانضمام اليها ؟ وما هو المبدأ الذي يروق لنا
ن نعتمقه ؟

ولقد درج الناس عادة في كل مكان على ان يأخذوا بالرأي الذي تدعو
اليه جريدتهم او مجلتهم او النشرة التي اعتادوا قراءتها غالباً ! او على ان
يأخذوا بالرأي الذي يماشي مصالحهم او مصلحة طبقتهم وعلى ان يدينوا
بالمذهب الذي يتفق وميولهم وتدفعهم الى الاخذ به تأثيراتهم الآنيّة
الموقته ! فهل هم مصيبون ام مخطئون في عملهم ؟ ليست المذاهب والنظريات
والاراء على تعددها وتباينها الا من بنات الاهواء والدعوات السياسية التي
تتوخى توجيه اعظم عدد من البشر وتستهويهم اليها ولو مهما بدت لي ولك انها
هي الحقيقة بعينها اما اذا ما محصت على ضوء المنطق الصحيح فتبتد الشوايب
التي تطوي عليها ومدى انحرافها عن الغاية المثلى المنشودة .

فحيال تضارب هذه الاراء والاساليب والمناهج التي تدعي جميعها انها
قد اوجدت العلاج الناجع للقضية الاجتماعية وانها الطريق السوي الوحيدة
لتأمين حياة العامل والصانع والزارع وصاحب الحرفة تأميناً قوامه حقهم

الطبيعي فيها لا نرى لنا مندوحة عن عرض أهم هذه المذاهب وبيان ما فيها من انحراف عن جادة العدل والانصاف .

* * *

وبعد الاماع الى هذه الوقائع الماعا مقتضياً كل الاقتضاب واستشعار الحالة الراهنة استشعاراً بعيداً عن الهوس والهوى قد اتخذنا على عاتقنا تمحيص جملة هذه التعاليم التي تدعونا الى اعتناقها عسانا ان نوفق الى بيان وجه الصواب في كل منها ومبلغ ما فيها من سداد بالنسبة الى ما هو قائم وإلى ما يلاقيه البشر في اعمالهم اليومية من تجاوز على حقوقهم الطبيعية التي كانت منذ ما كانوا ولم يحرمهم التمتع بها الا جبروت القوي وغطرسة الجائر والقوانين المنبثقة من مشيئة الطبقة المسيطرة التي استخدمتهم بما سئته لهم من انظمة في سبيل تأمين مصالحها وتحقيق رفايتها على انتقاض بأساً المجموع .

١ - ماهي القضية الاجتماعية

١ - فكرتها العامة وتعريفها تعريفاً جلياً واضحاً .

ب - شدة وطأة المصاعب الاجتماعية .

٢ - الحلول المختلفة التي يؤمم كل مذهب انها منطبقة على العدل والحقوق الطبيعية

أ - انحراف المذهب الاقتصادي الحر عن جادة الحق وما فيه من اخطاء .

ب - الاشتراكية وما يتفرع عنها ومواعيدها الخلب .

ج - القضية الاجتماعية في الميزان الاخلاقي الادبي .

الفكرة التي نأثم بها في بحثنا

لقد عاهدنا النفس على ان نبين بالادلة والبراهين الواقعية ما يقوم بين

المذهبيين الاقتصادي الحر « مذهب المحافظين » والاشتراكي الشيوعي « مذهب اليساريين » من هوة عميقة تفصل بينهما وتمنعها الاجتماع على صعيد واحد وان تشير الى ان ثمة طريقاً فسيحة آمنة تبلغ البشر غايتهم المنشودة لانها مجردة عن الاهواء والميول وبعيدة عن الاثرة « الانانية » والمصالح الشخصية .

« وبما لا ريب فيه ان المذهبيين الاقتصادي الحر والاشتراكي الشيوعي يصدران عن بعض النقاط المشتركة لان كليهما يستند الى الفلسفة المادية . فمن المستحيل علينا ان نصرف النظر عن مفهوميهما اللذين تبتتهما كتلتان متنازعتان لان طائفة المحافظين اولي المذهب الحر ولان اصحاب المذهب الشيوعي الاشتراكي او طائفة المنتقذين لا يقيمان وزناً للانسان ولا يأبهان لكرامته بصفة كونه انساناً فكلاهما يصدر من الناحية التاريخية عن مفهوم خاطيء » .
ان المذهب الاول او مذهب القرن التاسع عشر لم يكن سوى ردة فعل على مذهب الحماية الاقتصادية اما الثاني فكان ردة فعل ايضاً على الاول ولجورد قولنا ردة فعل نعترف اعترافاً ضمنيّاً بان حافزهما قد كان العنف .

ولئن شاء احدهما الخروج من المأزق الذي كان فيه فقد قفز واثباً من جانب الهوة التي كانت تفصل بينه وبين الجادة فاذا به يتخطى الطريق الى جانبيهما الاخر اما المذهب الشيوعي فيقوم خطاه على كونه يفضي مباشرة الى تناحر الطبقات اي الى الثورة الاهلية .

ولا مفر لنا في الساعة القائمة عن ان نرانا امام هذين المذهبيين : الاقتصادي الحر والشيوعي الداعي الى تناحر الطبقات وكلاهما يتجاوز على كرامة الفرد بوصفه انساناً فلذلك لا نملك النفس عن محاولة تبني نظام التجرد عن الاثرة « الانانية » الجامحة وسن القوانين وايقافها على خدمة الانسان في سبيل المصلحة العامة من دون ان يستند في جوهره الى فكرة النزاع

الطبيقي ليتوخى العدل ضمن نطاق الحرية الصحيحة وسيادة التحارب بين الناس عن طريق اصلاح الاخلاق والعادات واقناع الانسان اقناعاً داخلياً بصحة تعاليمه .

ولئن انتبذنا تعاليم المذهب الاقتصادي الحر فاننا لنتبذ في الوقت نفسه انجيل المركسية لناخذ بالتعاليم الصحيحة التي تؤدي بالمجتمع الى الطمأنينة والاستقرار .

فاليكم يا بنى امي الحريصين على مستقبل اولادكم وحفدتكم وبيهمكم ان تؤمنوا لهم حياة ينعمون فيها بمزايا التأخي الصحيح ويتذوقون قيمة الحرية الحقيقية ليقتربوا من المثل الاسمى المنشود ما استطاعوا سبيلا الى ذلك قد حاولت على قدر الامكان ان اضع بين ايديكم هذا الكتيب عساه ان يمهّد امامنا سبيل تحقيق الكثير من المآتي الاجتماعية فنلبي بهذا العمل داعي الوجدان وواجباته « وفي سبيل تحقيق المآتي الاجتماعية وتعميم فكرتها لا مندوحة لنا عن ان نلقي في الازهان عن طريق الدراسة الصحيحة ماهية المعضلات الاجتماعية على ضوء المبادئ القويمة ووضح التعاليم البريئة من شوايب النزعات والهوس اما اذا كان بعض الناس قد بهرتهم في هذا الباب زخرفة القول وخدعهم تسيق الكلام واغرتهم الوعود البراقة فلا يقع الذنب في ذلك على عواتقهم ولكنهم معذورون بسبب جهلهم قيمة هذه التعاليم في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي .

وتجاه هذه الامور الواقعية من الواجب تعميم التعاليم الاجتماعية في كل طبقات الامة وتثقيفها تثقيفاً يحوّلها تمييز الغث من السمين في هذا الباب وذلك بالنسبة الى مستوى كل طبقة منها ولاسيما طائفة العمال التي يهملها الامر اكثر من غيرها والتي ربما كانت اوضاعها من الحواقر التي تحملها على اعتناق المبداء الذي يجبهها للوهلة الاولى .

ولقد عاهدنا النفس على ان نزيل كل غموض يساور العقول في هذا

الشأن وتنويرها تنويراً بعيداً عن الاهواء المنحرفة لتنجز وجانبها الحيوية وتجذب الطريق السوي كما يستدعي الوجدان فتحارب الشذوذ الطامي سبله في مضامير العمل والصناعة والمهنة والحرفة والتجارة والاستخدام ليقنع العامل عن الغش والصانع عن التزيف وذوي المهن والحرف عن الخداع فلا يبيع الصيدلي الكلس بدلاً من الكينا والحلاب الماء بدلاً من الحليب... متقدين بوزائع العدل ونواميس التأخي الانساني » .

ماهية المعضلة الاجتماعية

- ١ -

الفكرة العامة - تعريف المصلحة الاجتماعية تعريفاً جلياً

١ - المعضلة الاجتماعية هي مجموعة المشاكل القائمة في علاقات البشر بعضهم ببعض بصفة كونهم يعيشون كآمة : فهي تتناول جميع الصعوبات التي تصادفها العيلة وتتصدم بها الحرفة والمهنة والدولة والامة والانسانية كلها جمعاء .

يرى الانسان النور في احضان العيلة « معضلة العيلة » . ويؤمن من حياته عادة بواسطة الحرفة او المهنة « معضلة المهنة او الحرفة » . وينتمي الى امة او دولة « المعضلة السياسية » . وهو احد اعضاء الانسانية « المعضلة الانسانية » .

نعم لم يخلق الانسان ليعيش لوحده ولذلك لا يستطيع الادعاء انه لا يفتقر الى احد ولو اعتصم في قلال الجبال او نحر اليم منفرداً في زورق بقلب المياه... .

وبما لا سبيل للريبة فيه هو اننا قد نتجاوز احياناً على حقوق غيرنا فنضرب به وربما اتفق لنا ان عانينا نتائج بعض الاعمال الاجتماعية وتحملنا ما فيها من جور وسيئات واجحاف كارتفاع الاسعار الناجمة مثلاً عن مضاربات التجار او احدى نتائج الاضرابات التي تشل الحياة العامة بما تحدثه من فوضى فيها... الخ .

فماذا نستطيع ان نستنبط من مثل هذه الاعمال ؟ اننا نستنتج انه لا نستطيع ان نحيا في سبيل مصلحتنا فقط واشباع اثرتنا وجشعنا وحدهما ! بل من واجب كل منا الا يتجاوز على حقوق غيره ليضر به ولذلك لا بد للمرء من ان يجعل رائده العدل وهدفه الاخاء في علاقاته بغيره .

وفي مثل هذا المقام تتجلى لنا القضية الاجتماعية برمتها : اي درس الحقوق والواجبات التي تنجم عن حياتنا في المجتمع .

٢ - في سبيل الاستزادة من الايضاح لا بد لنا من القول ان عبارة « القضية الاجتماعية » (لقد اتخذت في الوقت الحاضر معنى ضيقاً لتدل على مجموعة المشاكل المتعلقة بالعمل الانساني والى طبيعته وما يترتب له من حقوق وما عليه من واجبات ولا سيما قضية العامل المأجور وصاحب العمل او رب المصنع بعد ان اتسع نطاق الآليات وتعاظم الفيضان في الانتاج - اما مشاكل العيلة والمهنة والسياسة والانسانية فلن نضرب عنها صفحاً لنهمل ولو الاشارة اليها .

والقضية الاجتماعية التي ننظر فيها من هذه الناحية ليست الا دراسة العلاقات القائمة بين اصحاب الاعمال ومأجورهم في سبيل تنظيم حياة ذوي الاعمال المهنية ومستخدميهم سعيّاً وراء ايجاد معالم ثابتة تتفادى بواسطتها عن الاضرار برأس المال والعمل .

ولئن ادركنا القضية الاجتماعية على هذه الصورة فاننا لنذكرها قبل كل امر اخر انها ليست قضية اقتصادية او سياسية وانما هي قضية اخلاقية في الدرجة الاولى .

وبما قاله البابا لاوون الثالث عشر في رسالته الرعائية (Graves de Communi) في هذا الصدد « يعتقد بعضهم ويذهب اعتقادهم منتشرّاً بين الناس ان

القضية الاجتماعية ليست الا معضلة اقتصادية اما الواقع فعلى العكس بما يزعمون فهي قبل كل امر اخر قضية اخلاقية دينية ولهذا السبب ينبغي لها ان تحلّ خاصة وفق قواعد الاخلاق والدين »

وبالحقيقة ليست القضية الاجتماعية مسألة النقود الموضوعة في متناول رجال الاعمال فقط ولكنها امر انساني فنحن لا نشتغل لانتاج الثروات المادية وتكديس الارباح فحسب وانما لتأمين وسائل العيش : ان المنازعات التي تنشأ بين اصحاب الاعمال ومأجوريهم لا تتوقف على امر العقد بينهم ولا على قضية التشريع بل هي حالة من حالات الوجدان التي قد تثير احياناً اموراً دقيقة لا بد من دراستها دراسة عميقة لايجاد حل لها ضمن نطاق العدل والمحبة. وذلك ما حمل البابا بيوس العاشر على القول في رسالته « Singulaci quadam » « ان القضية الاجتماعية وما اثير من مجادلات حول طبيعة العمل ومدته وحول تحديد الاجرة ليست من الامور الاقتصادية المحض ولا يمكن ان نجد حلاً لها خارجاً عن سلطان الكنيسة » .

وبما قاله القديس توما في هذا الباب « من الواجب ان ينظم علاقات البشر بعضهم ببعض في آن واحد العدل والناموس الطبيعي والمحبة والفضيلة الفائقة الطبيعة اما العدل فتنجم عنه موجبات حقوقية تفرض السلطة العامة تنفيذها اما المحبة فينجم عنها واجب ادبي لا يمكن ملاحقته امام محاكم البشر وانما سنقدم حساباً عنه امام محكمة الديان . Le rôle de l'Eglise » p. 225 « Chenou » وما لا ريب فيه ان المذاهب الاقتصادية برمتها ترتكب خطأ فاحشاً باعتبارها القضية الاجتماعية كمعضلة اقتصادية محض او كنضال طبقي فقط لانه من المستحيل بالاستناد الى هذه المفاهيم تجنيب البشر مساوي ويلات هذه المذاهب فكل بناء اجتماعي لا تستند مبادئه الى العدل والمحبة والاهتمام بالمصلحة العامة مقضي عليه بالاخفاق .

وصفة القول ان العدل وحده لا يكفي لحفظ الوئام والسلام بين البشر ان لم يسد بينهم التآخي بالمحبة .

ب - خطورة تأزم الاوضاع الاجتماعية .

ليست المنازعات الآخذ بعضها برقاب بعض مند سنة ١٩٣٦ حتى الان الا دليلاً صريحاً على خطورة الاوضاع الاجتماعية او بالاحرى قل هي الضائقة الاقتصادية التي طما سيلها - طبعاً هنالك بعض المحظوظين - في جميع ارجاء المعمورة وبخاصة في الشرقين الاوسط والادنى حيث باتت الحكومات اشبه بشركات تجارية مغفلة .

اجل انها لأزمة خطيرة قد تأصلت جذورها وكادت تتناول العالم بأسره لتزعزع اركانه الاقتصادية وهي اشد خطورة مما يتوهم بعضهم وهم الذين يعتقدون ان الشعب اذا ما اعوزه الجبز استغنى عنه « بالسكوت »

واذا كان الاقتصاديون يتوقعون نشوب ازمت دورية في الماضي ويتخذون الحيلة سلفاً لتلافئها فقد عمدت النازية والفاشستية قبل الحرب الاخيرة الى تجنيد بلديهما البطالة بان اوجدت فيها الصناعات الحربية والان لا نرى البشر يسرون على غير اثرهما لاستغراق اليد العاملة في جميع البلدان على رغم تدخل الحكومات في توجيه الاقتصاديات ووضع برامج تنسيق منتجات كل امة من الامم التي انشطرت الى معسكرين تنسيقاً رائده الرئيسى تعزيز اكتفاء كل بلاد اكتفاء اقتصادياً .

فما هي اذن الاسباب الرئيسة للضائقة الاقتصادية ؟ وما هي ميزاتها الخاصة ؟

١ - لا يعود تاريخ المصاعب والآلام التي ينوء تحتها المجتمع الاقتصادي

اليوم ولا سيما عالم العمل « المتاعب التي يفصح عنها التناقض الآخذ بالازدياد يوماً فيوماً بين رأس المال والعمل وبين ارباب المصانع والعمال وبين الملاكين وطائفة الشغيلة » الى ساعتنا الحاضرة .

والذي لا شك فيه ان القضية الاجتماعية لم تبدأ فجأة في القرن العشرين وانما قد كانت على ممر العصور وفي كل مكان « فهي قضية الاغنياء والفقراء الدائمة » ولكنها اخذت تتأزم منذ نهاية القرن التاسع عشر لاسباب عدة .

١ - الاسباب الاخلاقية الناجمة عن تراخي القواعد الادبية .

٢ - الاسباب السياسية وليدة المساواة المدنية التي افضت الى ايقاظ الرغبة في المساواة الاقتصادية .

٣ - الاسباب الاقتصادية وهي التي سنعيدها اهتمامنا في هذه الدراسة اكثر من سواها .

وبما لا يختلف فيه اثنان هو اننا نعيش اليوم في فترة انتقال من طور الى طور . وقد اصبح البشر يتحدثون عن احتضار العهد القديم الآخذ بالانهيار وعن انبثاق فجر نظام جديد آخذ بالتكوين ، حتى اصبح لازماً على البشر بذل مجهودات جبارة شاقة لتطبيق حياتهم عليه . فلو كان ابناء يومنا من الذين شهدوا دور الانتقال في القرن الثالث عشر بعد ان حل نظام الجمعيات التعاونية محل النظام الاقطاعي او في القرن السابع عشر لما كانوا عرضة لمكابدة مثل مصاعبهم الان ولا الى مصادفة كل ما يصادفونه اليوم من عقبات لتأمين مستلزمات معيشتهم .

واننا لنجهل فيما اذا كان من حسن حظنا او من نكده ان نمر بعهد تقوم فيه مثل هذه المصائب ! واننا لا نعلم اذا كان من واجبنا ان نبتهج

له ام ان نرتدي لباس الحزن عليها ، وعلى كل لا مندوحة لنا عن ان نكون واقعيين لنمهد الطريق امام ذرياتنا المقبلة !

الاكتشافات والاختراعات

X لقد اعتوى العالم الاقتصادي منذ قرن ونيف تبديلاً غريباً في بابه واستحدث فيه من المستحدثات في غضون مئة عام وبعض الاعوام اكثر مما تطور في اثناء الوف السنين . اجل لقد ظلت المنتجات تتبع طريق التدرج الطبيعي حتى القرن الماضي وحسبنا الاعتبار بالمنسوجات الفينيقية التي اكتشفها التنقيب لئراها انها قلما تختلف عنها في نهاية القرن الثامن عشر اي الى العهد الذي ظهرت فيه اداة الخياطة الميكانيكية لتبدل فوراً جميع اساليب النسيج القديمة وتقلبها بطناً لظهر .

وفي سنة ١٨٨٠ كان يفتقر المسافر من بيروت الى دمشق الى ان تستغرق رحلته ثلاثة ايام بعربة « الديليجانس » اما اليوم فانتقل من نيويورك الى طوكيو بالطائرة فلا يقتضي له مثل هذا الوقت .

اجل انها الاكتشافات والاختراعات التي بدلت فجأة اوضاع الحياة الحديثة لتجعلنا في منعطف كبير من المنعطفات التاريخية !

لقد اوجد البخار المصنع الكبير الذي قضى على ذلك المعمل العيلى الصغير فكان لوجوده ردة فعل كبرى من الناحيتين الاخلاقية والاجتماعية لانه قطع ما كان يقوم بين صاحبه وبين العامل من علائق الالة الاهلية . فحل محله المصنع الهائل فاصبح لا سبيل للعامل فيه لكي يتعرف برب العمل الا بواسطة التقيد بانظمة جافة جامدة تستوجب اتيان عدة مراسيم تبدأ من الموظف الصغير لتمر بعدد عديد من ذوي المراتب الذين يتلو بعضهم بعضاً بالتدرج .

٢ - الكهرباء - وضعت الكهرباء مع الفحم الابيض قوات احتياطية لا ينضب لها معين في متناول الصناعة واستطاع البشر ان يتصل بعضهم ببعض بواسطة الهاتف واللاسلكي باقل من لمسح البصر ولو كانوا في انأى الاقطار العالمية فعدت الصفقة المالية المعقودة في نيويورك تحدث ردات افعالها في اسواق لندن وباريس وبيروت ودمشق وطوكيو بعد بضع دقائق فقط من عقدها حتى باتت الحياة في كرتنا الارضية اشبه بالخيال منها بالحقيقة .

٣ - وسائل النقل - لقد قضي على المواصلات القديمة بواسطة القطر الحديدية والسيارة والطائرة فزال الترخوم الوطنية وحلت محلها الحياة الاقتصادية الدولية وذلك قبل ان يتمكن الناس من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتفادي ردات افعال هذا الانتقال المفاجيء .

وقبل هذا التطور الذي سار ويسير بخطى الجبابة كانت المنافسة التجارية تقوم بين البلدان المجاورة اما الآن فعدا البرتقال الذي تنتجه طرابلس وصيدا وانطلياس يتناوله الاوربي والاميريكي على مائدتها بعد بضع ساعات من قطافه وباتت المنتجات التي تخرجها المصانع الانكليزية والاميركية يرتدبها السوري والهندي والصيني واغنياء افريقية فوراً بعد خروجها من معاملها .

وقديماً كان صانع الاحذية يجهز جزءاً من حبه او يجهز قريته الصغيرة برمتها اما اليوم فاصبحت مصانع باث وحدها تقوى على تجهيز العالم كله باحذيتهم .

فعند اي حد سيقف هذا التقدم العالمي ؟ واذا كان يخيل لبعضهم ان هذا التقدم قد كان آفة على البشر ففي الواقع ان هذه الاشواط التي قطعها الناس في مضامير التقدم والارتقاء ليست ضرراً بمجد ذاتها . اما من لا يرى في نزول الاليات الى ميادين الصناعة واسواق العمل عوامل جديدة تقضي الى استعباد الانسان من جديد فانه يتعامى عن الحقيقة لكي لا يأخذ

الاحتياطات الكافية للمحافظة على الحرية الفردية !

ومن المؤكد ان تجهيز الصناعات بالآليات قد ادى الى هذا التنافس
الجهنمي تنافساً كان وقعه اشد فتكاً من قنابل المدافع .
ولئن شئنا في مثل هذا المقام عدم شجب الآلة فلا نستطيع في الوقت
نفسه ان ننظر الى الامر الواقع الا بعين الجزع لنهتّم له ولا سيما بعد ان
ادى إتقان الآليات الى اثاره معضلات جديدة . كتندي قيمة مقدرة الانسان
والاغراق في الانتاج وافلاس قواعد الاقتصاد السابقة فيما يتعلق بناموس
العرض والطلب واشتداد الازمة التجارية والزراعية وتضييق الخناق على
العمال بسبب تفشي البطالة والاستغناء عن ايديهم وتنظيم اوقات فراغهم
وراحتهم .

ويتجسم ضرر الآليات تجسماً جلياً في الاستغراق باستخدامها لاستغلال
انتاجها الى ابعد حد ممكن في سبيل المصلحة الفردية وبإليتها كانت موقوفة
على خدمة التآخي الانساني وذريعة من ذرائع تشديد اواصر المحبة بين
البشر لكي لا نأخذ عليها المآخذ ولا نوغم على شجبها « فهي بحمد ذاتها
أبتداع الله بواسطة الادمغة الانسانية لمصلحة البشر فلا اخشى شرها » « Kagawa »

ب - الاسباب الاخرى

ويقوم الى جانب هذه التطورات الفجائية التي دخلت الميدان الاقتصادي
عن طريق الاكتشافات والاختراعات الحديثة اسباب اقتصادية اخرى هي
من عوامل الازمة القائمة ولست اغني بها الا انتشار - القروض - الدين
بالرباء والاتجار بالسندات المالية والشركات المغفلة .

ولا يخولنا المقام التوسع في بحث ردأت افعالها الاقتصادية ولا الدخول
في تفاصيلها لان ذلك يستوجب ابجائاً فنية دقيقة تستلزم مؤلفاً ضخماً كاملاً

وانما سنكتفي بالاشارة الى ما لها من فوائد واضرار فقط .

اجل ان الحرب الكونية الاولى افضت الى ايجاد الخلل في النظام الاقتصادي السابق خللاً كان بعيد الاثر جد البعد اذ بينما كان ٤٧ مليوناً من البشر منهمكين في ساحات القتال كان يقوم وراءهم احتياطي يؤمن لهم ما يفتقرون اليه من مواد تقتضيها الحرب ومن محصولات غذائية لا بد منها لسد حاجات الاهلين ولذلك دعت الضرورة حتماً الى توسيع نطاق الآليات توسيعاً عظيماً .

وعقب تسريح تلك الجيوش وعودتها الى العمل كان في متناولها اليات مستحدثة متقنة مكنها اصلاح ما تهدم في فرصة وجيزة حتى كان الفيضان في الانتاج .

وما ان وضعت الحرب الثانية اوزارها بعد ان جهد البشر جهودهم في اثنائها لاكتشاف آليات جديدة وابتداع ادوات مبتكرة في التسابق والاسراع لاجاد الاسلحة الفتاكة وتجهيز المقاتلة بعتاد حديث فني حتى ازداد اتقان الآليات لدى الكتلتين المتنافستين الغربية والشرقية ونزعت كل منهما الى حشد الانصار حولها وتزويدهم باثقل ما ابتكره العقل البشري تعمل جميعها على انتاج الاسلحة الفتاكة الجديدة في الدرجة الاولى .

ولم يقف الامر بين الكتلتين المتطاحنتين عند حد صنع الذخائر والاسلحة الحربية فقط بل شرعت كل واحدة منها تحض انصارها الذين حشدتهم في صفها على اتباع منهج اقتصادي يهدف قبل كل امر الى ان تكفي كل امة نفسها بنفسها مؤونة تجهيزها بالمعدات والادوات التي تفتقر اليها في شتى المضامير حتى اذا ما اندلعت - لا سمح الله نيران حرب جديدة - لم تبقى كتلاً على عاتقها مما حمل كل دولة على انتهاج طريقة اقتصادية قلما تختلف عن المناهج التي اتبعوها في اثناء حالة الحرب فكان هذا لانكماش في انتاج الكماليات - وانما هذه الاساليب الجديدة قيد اشتدت

ردات افعالها اشتداداً. زاد في تضيق الخناق على بقية الفروع الاقتصادية بعد ان عمدت كل دولة الى تنظيم مراقبتها على اساس التسابق في ميدان التسليح واوجدت لها نظاماً اقتصادياً لا يابه لغير هذه النتائج .

ولئن زعم كل من المعسكرين المتطاحنين انه اوجد الاعمال في بلاده لاستغراق اليد العاملة فيها فانها لم يتبعا في هذا الباب الا المنهج الاقتصادي نفسه الذي انتهجته من قبل النازية والفاشية لايجاد الاعمال الموقوتة لصناع بلادها ولم تكن نتيجة الا تلك المجزرة الضروس والحالة المضطربة التي ما برح البشر يكابدون نتائجها المريرة الاليمة .

واذا تسنى لكل فريق من هذين الجانبين ان يحشد مرافق بلاده وينظمها على قاعدة توحيد معسكره توحيداً حريباً فانه يعجز عن تنسيق جميع مناحي الحياة الاقتصادية في كل المضامير تنسيقاً يفضي الى ايجاد الانسجام الطبيعي بين المنتج والمستهلك وبين اصحاب رؤوس الاموال والعمال انسجاماً قواه العدل ورائده الانصاف الاجتماعيين .

وبما هو ملحوظ ان الكثير من الدول تحاول في الدرجة الاولى تأمين التوازن بين صادراتها ووارداتها ولو خالفت في ذلك رغبة الكتلة المنتمية اليها ليستند التنافس الاقتصادي بين اعضاء الجماعة الواحدة وتتأرم المزاخمة الاقتصادية كما كانت في السابق مما افضى الى التشویش الاقتصادي في داخل البلاد نفسها وخارجها : هذا في بلاد الناس اما في الشرق الادنى فلا محل لامر يقال له العدل الاجتماعي فهنا الجشع الفردي الذي لا يكبح جماحه كايح وهنا التهاك على الاثراء على نفقة الجمهور لتتكس الثروات بين ايدي رهط - قيل فيهم انهم المحظوظون - بدون وازع او زقيب غير وازع الاثرة الفردية - فقد سخرت جميع المصالح لخدمتهم وسنت القوانين لتسهل عليهم اقتناص فريستهم فانقضوا عليها من شاهق وافترسوها - حتى باتت الامة طبقتين لا

ثالثهما : الاولى طبقة هؤلاء الشواهي وهم الاقلية القليلة والثانية طائفة المحرومين ويكادون يكونون الامة بكاملها - طبعاً خلا نفر القليل -

اجل ان جشع رأس المال لا يعرف حداً ولا يعدم وسيلة تبلغه سؤله والا فما هو هذا القطع النادر او الذريعة المبتدعة في إيد الشركات المغفلة اسواء اكانت تحت ستار وطني ام اجنبي - وما هي النتائج التي افضى اليها؟ اهي شيء اخر غير تزييد شقة التفاوت الطبقي بين ابناء الامة؟ وما هي مظاهر هذه الفخفخة التي اصبحت وقفاً على نفر قليل الى جانب بؤس الاكثرية الساحقة التي اوشكت ان تعجز عن تأمين مقتضياتها الحيوية؟ ومهما قيل لنا ومهما سعى الساعون لتبرير اثرائهم فانهم لم يبنوا هذه القصور الشاهقة ولا امتطوا هذه السيارات الانيقة ولا حققوا هذه الرفاهية الناعمة الا على نفقة بؤس البائسين واملاق المدقعين ! اهذه هي الوسائل العدل التي يقوى البشر بواسطتها على تلافي مغبة مفاجآت الغد ! . . . ان النظرة الواحدة في قوانين العمال والمأجورين كافية لتعطينا فكرة عن مدى احقاق لانصاف الاجتماعي في هذه الرقعة من الارض التي ما برحت تطبق منها في القرن العشرين انظمة القرون الوسطى وقوانينها .

ب - ميزات الضائقة الاقتصادية

البطالة والبؤس هما اخص ميزاتها الواقعية !

هي الفوضى الضاربة اطنابها في النظام الاقتصادي لتجعل الانسان عبداً للآليات تتحكم بمصيره وتقتضي عليه بالحرمان والتمتع بما خلقه الله لاجله واوقفه على خدمته وذلك الى جانب الاغراق في الانتاج حتى بات بالنسبة الى ما تنتجه يداً - كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول - او كما قال عمرو بن العاص كلكم البقرة بقرنيها ليستدرها غيرنا . حتى صحت بهذا

الباب كلمه الكاردينال فرديه ١٩٣٢ « هو البؤس في وسط الثروة » . ولئن استحسنت الازمة الاقتصادية كل هذا الاستحكام فلان ثمة ازمة اخلاقية قد نشبت اظافرها في الحياة الفردية .

وخاصة الازمة الثانية تقوم على كونها عالمية لان الراسالية في تطورها قد تهاكت على استخدام الآليات ونظمت قضية انتاج الجماهير من دون ان تأبه لتنظيم استهلاكه فاختفت في عملها الجديد لان استهلاك الجماهير لم يكن موضوع اهتمامها ولان تكاليفها على المغام والمكاسب قد اعماها عن ان ترى ان المنتجات قد خلقت للانسان ولم يخلق الانسان لها وفي الوقت نفسه قد فاتها انه لن تقدر الحياة لمنهج اقتصادي اذ لم تكن له فائدة اجتماعية اسمى من مغام المنتج الفردي او المرابي .

واخطر مظهر لهذه الازمة الاقتصادية هو البطالة التي ولدها التسابق على التسليح بطالة تستشعر شدة وطأتها جميع الشعوب لشغل صناعاتها ومتاجرها وتزرع البؤس والشقاء في ارجاء العالم قاطبة ، اذ ان ثمة ملايين البطالين الذين ينتظرون عملا وهم عاجزون عن تأمين خبز زوجاتهم واولادهم اليومي حتى عم الاملاق وساد القلق وخيبة الامل وبات الجمع عاجزين عن توقع نهاية هذه الضائقة .

ومما لا يتروك سبيلا للشك فيه هو ان هذه الفوضى العالمية التي يكابد البشر نتائجها مردها الى التطرف في امور كثيرة فهل باستطاعتنا الاشارة الى اهمها ؟

وحسبنا ان نشير في هذا الباب الى سجب البابا تسابق الامم على التسليح ! « الا نستطيع القول ان النشاط الانساني قد تحول يرمته الى اتخاذ مظهر النهالك على التسليح ؟ اجل انه التطاحن في التسابق على انتاج الاسلحة الفتاكة بواسطة استخدام الآليات الحديثة للنفوق على الخصم ! انه التسابق على تكديس الثروات الضخمة التي تأتي عملها بصورة عمياء سواء أكان

ذلك عن طريقة التلاعب بالاسعار ام عن طريقة المضاربات المالية لتجعل مستحيلة تلك القروض القديمة التي كانوا يسمونها قروض ذوي العيال وكانت في متناولها والسبب في ذلك هو كونها غير منتجة .

« وفلا عن هذا التطاحن فقد اخذت الارياض تقفر من سكانها الذين شرعوا يؤمنون المدينة فخلقوا بين عشية وضحاها معضلة من ادق المعضلات لتنظيم سلامة حياة هذه الجماهير مادياً ومعنوياً » « نجبل الينا ان هذه الجمي الصاعدة حمى اشباع الرغائب الجالحة التي لا حدود لها قد اجتاحت كل الشعوب فبدلت قاعدة الاثراء والعادات العميلة والحياة برمتها » « لقد خرج النشاط الانساني بسيره الحالي من الحكمة عن الطريق التي اختطها الله والطبيعة له على حين ان من الامثال التي كان يتناقلها جدودنا امثالا عديدة محمودة كامتداحهم مثلاً التروي والفطنة والثبات وانسجام صلة الحاضر بالمستقبل :

ولقد كانت فلسفتنا ترغب في ترديد العبارة التالية : ان الطبيعة لا تعرف الثوب وهي لا تحب التحول العنيف فالحوادث تقول لنا بكل صراحة : اننا لا نخالف نواميس الطبيعة واتجاهاتها من دون ان تقتص منا » « من اقوال البابا »

هذه هي الصورة التي تمثل وضعنا الاجتماعي الذي لا نستطيع ان ننسي النفس بقولنا فيه : لا بد من ان تنتهي الازمة ! ولقد شهدنا كثيراً من مثيلاتها فلم تدم !

ولا مندوحة للبشر حيال هذه المصاعب الاجتماعية التي اشربنا باقتضاب الى خطوطها الرئيسية من الامعان في التروي الدقيق !

أو ليس من الواجب ايجاد حل لها ؟ اجل ! ولكن امامنا حلان لا ثالث لهما الا الذي يتطلبه العدل واعني به الحل المجرد عن الميول والنزعات والشهوات الذي يستطيع ايجاد الاستقرار في آن واحد في النظام الاقتصادي والاجتماعي .

مأول القضية الاجتماعية الحديثة

لقد عرضنا بإيجاز تعريف القضية الاجتماعية وأوضحنا باقتضاب ميزاتها العالمية الباعثة على أسف تنقض منه الجوانح وتوجد له المرائر ولاسيما في مثل هذه الظروف العاشية التي شدت الخناق على البشر لتجعلهم في قلق مقيم وتنقض مضاجعهم بعد أن ضيقت عليهم سبل المعاش وارهقتهم بضروب الاجحاف لتتنكر لحقوق الفرد بصفة كونه انساناً!

فما هي الحلول التي ارتأها البشر لنقض هذه العضلات الاجتماعية الخطيرة الشديدة التعقيد؟

إن ثمة مذهبين رسميين يقوم أحدهما على طرفي نقيض من الآخر أما الثالث فهو الحل المستند إلى القواعد الاخلاقية وإلى مستلزمات العدل والانصاف الاجتماعية وإلى ما شرعه الخالق من حقوق للانسان ولكن من سوء الحظ لم تدعمه غير القوة الادبية التي قلما يأبه لها من لا يهمه إلا التفوق المادي والسيطرة القائمة على وفرة الثروة.

أ - المذهب الاقتصادي الحر

ب - المذهب الاشتراكي الشيوعي

ج - المذهب الادبي المستند إلى الحقوق الطبيعية العدل

أما هذا الأخير فلا تقع عليه تبعة الاوضاع القائمة لان المجتمعات

الانسانية اوشكت ان تغض العين عن اخذه بعين الاعتبار في تنظيم شؤونها واوضاعها الاقتصادية على حين ان المذهب الاشتراكي الشيوعي لم يتبلور قواعده وترسخ انظمته الا بعد زوال الفاشستية والنازية اما المذهب الاقتصادي الحر فقد ترسخت اسسه منذ اكثر من مئة وعشرين سنة واستحكمت استحكاماً غير حياة البشر الاقتصادية الحديثة وسيطر عليها واستخدم الاختراعات والاكتشافات العلمية الكبرى لخدمة الصناعات الثقيلة وقد قال الاسقف جرمان « Germain » في هذا الشأن « في الوقت الذي وصلت فيه الصناعة الى حد الاتقان وبات يقتضى لها تعليم وطيد الاركان يكون حرزها الحريز لم يضع في متناولها النظام الاقتصادي الحر الا قانون العرض والطلب القانون الوثني الذي يسلم الضعيف غنيمة باردة الى يد القوة » .

وسنعرض بايجاز لمحة تاريخية لهذين المذهبين ولتعليمها الرئيسي فبين ما فيها من محاسن ومساوي من دون ان نتعدى الى درس التفاصيل درساً علمياً مستوفياً لاننا عاهدنا النفس على تقريب هذه الشؤون الخطيرة من من افهام الجمهور اما من شاء ان يكون رائده العدل الاجتماعي فهو مقتدر الى ان يلم بكيفية نشأة هذين التيارين ليستشعر في حياته العملية حيال هذين المذهبين ما يوحي به الوجدان الصحيح العدل والناموس الالهي القائم على حقوق الانسان الطبيعية .

الفصل الاول

خطل النظام الاقتصادي الحر

من اسباب الازمة العالمية الآخذة بتلايب البشر خطل المنهج الاقتصادي الحر الذي ما برح يسير شؤوننا الاقتصادية ، ونظام حياتنا في علاقاتنا بغيرنا ويقرر اساليب عقودنا واعمالنا الاجتماعية حتى بات الكثيرون عاجزين عن الافلاع عن فطرتهم الملتوية الموروثة .

وشرعوا يأتون اعمالهم اتياناً لاشعورياً على قاعدة هذا النظام بالرغم من التنبيهات التي يوجهها اليهم ذوو الوجدان الحي الذين يصرون عن قلب سليم وعقائد راسخة اقتنعوا بصوابها فاصم ما في النظام الاقتصادي الحر من اثره الاذان عن سماع اقوالهم لتقيم بمساوئها العمال على ارباب العمل وتقسم البشر الى طائفتين متساحرتين لارت هذا النظام لم يكن في البدء الا ردة فعل النضال الطبقي الثوري .

١ - كيف نشا النظام الاقتصادي الحر

لقد اتخذ هذا النظام وهو شعار الرأسمالية المالية «البورجوازية» طبقة الاغنياء العقلية منشأه من فلسفة القرن الثامن عشر الاحادية ومن الثورة الفرنسية التي حطمت معالم المنهج التعاوني ليتحكم بالتنظيم الاقتصادي الحديث ولم تكن نظريات اقتصادي القرن الثامن عشر الا ردة فعل على النظام التعاوني الذي كان يلقي مهام الامور على الدولة لتسير الشؤون الاقتصادية

وتنظم الصناعة على قاعدة تصنيفها تحت حمايتها بحيث كانت المعامل الملكية تتمتع بكثير من الامتيازات « واشهر اولئك الاقتصاديين كانوا في انكلترا ادم سميث « Adam Smith » وريكاردو « Ricardo » وستوارت مل « Stuart Mill » الذين اوجدوا رابطة « منشستر » واطلقوا عليها اسم المذهب الاقتصادي التبادلي . وفي فرنسا كسناي « Quesnay » وهوسس مذهب الفيزوقراطيين وساي « Say » وباستيا « Bastia » .

لقد كان منهج الجمعيات التعاونية الاقتصادي في القرون الوسطى يقوم على تنظيم الحرف وللمن تنظيماً مستنداً الى دراستها دراسة مستوفية ولم يكن التفاوت الا قليلاً جداً بين اولي المصانع والعمال وكان الفارق بينهما غالباً فارقاً موقوتاً من حيث المساواة سواء أكان من حيث مركزهما ام من حيث ثروتهما اذ كان في مقدور العامل ان ينتقل بسهولة الى عداد اصحاب العمل اذا ما جمع رأس مال صغير يخوله ان ينشئ لحسابه عملاً مستقلاً خاصاً به وكانت للعامل مكانته في حرفته فيساهم في اصطفاء مدرائه ويلاقي في رفاهه عوناً معنوياً ومادياً له وكانت الحرفة التي ينتمي اليها تؤمن له كما تؤمن لصاحبها التدريب المهني الكافي سواء اطالت مدته فيها ام قصرت فكان ذلك خير ضمان لرواج منتجاته في نظر زبائنه

ومن زكد لدهر لم تخضع تلك المؤسسات العمالية لسنة تطور الانظمة الاقتصادية فكان بسبب النظريات الحقوقية المستحدثة من جراء التطور الاقتصادي وتحت تأثير الاراء القائلة باستيلاء الدولة على جميع المهام وبداعي الاكتشافات المستجدة وانتقال النظام الاقتصادي الى منهج « شركات المناجم الكبرى » بدء انهيار تلك الجمعيات وتضعفها لانها وقفت جامدة في مكانها ولم تعر سنة النشوء اهتمامها وتخلت عن الروح التي كانت تنفخ فيها نسمة الحياة الا وهي روح الاخاء الانساني القائمة على العدل فانهارت من تلقاء ذاتها .

واول من انزل الضربة القاصمة بتلك الجمعيات كان تيرغو « TURCOT »
« سنة ١٧٢٧ - ١٧٨١ » فوضع مؤلفه الشهير « نظرات في تكوين الثروات
وتوزيعها » وادام سميث « Adam Smith » عقب وضع كتابه « ثروات الامم »
سنة ١٧٦٦ الذي بشر فيه باطلاق حرية العمل فالغت سلطة ارباب الاعمال
مبدأ التنظيم التعاوني الاساسي .

ولما نشبت ثورة ١٧٨٩ كانت شوايب ذلك المنهج بلغت حداً من الخلل
كان لا يدر معه من اللجوء الى ادخال اصلاحات جوهرية عليه لانه لم يبق في
مقدور التعاونيات بمباشرة المجهود الصناعي مع اكتشافات القرن التاسع عشر .

وقال احد مؤرخي الانقلابات الصناعية في هذا الشأن ما مآله : « لقد
جهلت الجمعيات التعاونية توسيع دستورها ولم تهضم تطور التقدم ولم تعرف
ان توضح معالم الطريق امامها لتأمين سيرها نحو افاق جديدة... فبدلاً من
ان تطبق انظمتها على ما استجد من نظريات وتدخل فيها مرونة كافية
فتفتح في وجه المخترع الابواب على مصاريعها وتعمد الى منحه المكافأة فقد
اقتصرت على جمودها لتطالب بالغاء الامتيازات التي اقرها القانون للذين
يدخلون الصناعات الاجنبية الى البلاد اي انها عمدت الى خنق التقدم في مهده »
« L'histoire de Corporations Martin Saint - Leon »

ان الجمعيات التعاونية التي اوصدت ابوابها في وجه التطور لم تشأ ان
تماشي سنة التقدم وتجاري سير الصناعة الجديد قد قضت بنفسها على نفسها
قضاء افضى الى زوالها .

* * *

لم يطلع القرن الثامن عشر حتى حمل معه مفهومه الجديد وهو المفهوم
القائم على اساس الفردية :

وجاء في القانون الصادر في ١٤ و ١٧ حزيران سنة ١٧٩١ المادة الاولى « بناء على انه من احدى قواعد الدستور الفرنسي الجديد الاساسية الغاء كل انواع الجمعيات التعاونية التي انشأها مواطنون ينتمون الى حرفة واحدة انه مخطور اعادة انشاؤها باية ذريعة كانت وتحت اي شكل آخر كان » .

وحاء في بيان المقرر لاسابليه « LECHAPELIER » « لا يجوز للمواطنين من اية حرفة كانت الزعم انهم يجتمعون باسم مصالحهم المشتركة . ففي الدولة لم يبق مكان قط لجمعيات تعاونية بل للمصلحة الفردية والمصلحة العامة ولا يسمح لاحد بان يوعز للمواطنين بتعاطي مهنة اخرى »

وهذا المفهوم القانوني الجديد قد اشتمل على افدح ضروب الاخطار بعموضه والتباسه لانه لم يدع بين الدولة والفرد سوى صورة الانسان فقط ليقع تحت سيطرة ديكتاتورية النقود فلم يكن النظام الاقتصادي الحر الا ردة فعل على العراقيل التي كان يقيمها منهج الجمعيات التعاونية التي لم تماشي التطور الفكري الجديد فانقل بالشر بقفزة واحدة من جانب المماوية الى الجانب الثاني منها . فما لبثت معاهد الحقوق ان بشرت بالتعليم الجديد وجعلته من موادها الاساسية الاقتصادية السياسية فوجهت على غير علم منها كما يغلب على الظن سير جماعات ارباب الاعمال وجرائد المحافظين وذرائع طبقة اولياء الشأن وذلك بالنسبة الى الامور الاجتماعية فكان هناك انصار هذا التعليم والمدافعون عنه في الندوة النيابية واحزاب المحافظين وسار عليه العالم التجاري الصناعي منذ اكثر من قرن وربع القرن .

٢ - مبادئ المنهج الاقتصادي الحر الرئيسية

من مبادئ هذا المنهج الرئيسية انه يجب ان ندع باب الحرية مفتوحاً على مصراعيه في وجه الاعمال التجارية والصناعية فاتخذ اسمه بالنسبة الى مبدئه

هذا « على ان هذه الثقة العمياء بالحرية تفرض الايمان بجودة الطبيعة الانسانية « روسو » وصرف النظر عن كل اكراه خارجي .

ويعلم المذهب الاقتصادي الحر ان القضايا الاجتماعية هي التي تجد الحلول لنفسها بسبب الحرية الكاملة التي تترك لكل فرد حق التمتع بها ضمن نطاق التملك والقروض والعمل فقانون العرض والطلب وناموس المزاحمة الحرة كفيلان بتسيير الامور من يوم الى آخر فعلى الدولة الا تتدخل في الشؤون الاقتصادية . وقد تبنى شعار كورناي « Cournay » القائل : « دع الامور تجري في اعتها » .

ويرى انصار المذهب الحر الاقتصادي في هذا الشعار النظام الطبيعي لتسيير كل الامور ، ومن اقوال « ارتور دجاروان » Arture DES- « JARDIN ان اسهل القواعد واخمنها هي ان ندع الحرية تصلح شوايب الحرية »

وجاء في الجزء الثاني الصفحة ٢٢٦ من كتاب (ووركس) « Works » المطبوع سنة ١٧٧١ : ما من تخيل بائد وهما من ان تتصور انه بالامكان تنظيم الشؤون التجارية بواسطة القواعد فمن الواجب ان ندعها تتبع مجراها الطبيعي « وقال جوزف كارنيه « Joseph CARNIER » في اقتصاده : « العدل في الشؤون الاقتصادية مرده قانون العرض والطلب » وقال بول لروا بوليو « Paul. LEROY - BEALIEU » : « ترجع المزاحمة الشاملة بدون قيد ولا شرط كل انسان الى خير مقام يستحقه وتوصله الى اجرة عمله العادلة فلتمتنع الدولة عن اقل تدخل في قضية مصالحة الناس ولتدع الحرية الكاملة للملكية ورأس المال والعمل والمبادلات... فيبلغ انتاج الثروة اوجه وذلك ما يحقق اعظم قسط من الرفاهية .

ب - ان عدم تدخل الدولة هو المبدأ الثاني في هذا المنهج الاقتصادي :
لنقصر الدولة دورها على دور الحاكم او الدركي فلا تتدخل من تلقائها في
الامور المهنية فلا حق ولا صلاحية لها بذلك مما يفيضي اذن الى اطلاق .

١ - حرية المبادلة « من صادرات وواردات » بدون معارضة ومن دون
رسوم جمركية

٢ - حرية العمل اي ان يشتغل الرجال والنساء والاولاد كما يعن لهم
وفي اي مكان يريدون وبالشروط التي يشاؤون عندما يجدون
عملاً يشغلهم .

٣ - حرية التعاقد - اي ان العمل الذي يجب انجازها والاجرة التي
يجب ان تدفع ينبغي ان يثبت فيها بين صاحب العمل والعامل
وحدهما .

٤ - حرية التزاحم والمنافسة : اي ان كمية الانتاج واسعار البيع لا
تحددهما الا المصلحة الخاصة .

٥ - حرية التمتع اي انه يجب ان لا يؤخذ بعين الاعتبار حاجات
غيرنا الا متى نصت عليها مواد قانونية رسمية .

ج - يعتبر قانون العرض والطلب نقطة الدائرة في المنهج الاقتصادي
الحر اي انه اذا كنت صاحب عمل وكان علي ان اكثري مئة عامل فتقدم
الي خمسة منهم فقط فان الطلب يفوق العرض بما يتوجب رفع الاجور
لان الطالب قد رأى نفسه مرغماً على تزييد ما يعرض عليه من اجرة .

اما اذا كان صاحب العمل يفتقر الى خمسين عاملاً فتقدم له مئة عامل
فالعرض يفوق الطلب بما يستدعي تخفيض الاجرة ويرى الطالب نفسه مرغماً

على ان يرضى باجر زهيد .

ولو كنت مثلاً بائع طيب وكانت (القنية) منه غالية الثمن فيتضاءل عدد الشارين مني ولو كان الامر على العكس فتلاقي طنبوي رواجاً كافياً يخولني رفع سعرها .

هذا هو قانون العرض والطلب الذي يزعم انصار المذهب الاقتصادي انه سيفضي بواسطة الموازنة بين سقيته الى اقرار العدل على قدر ما يستطيع ان يكون ثمت عدل في الارض لانهم مؤمنون بتوازن القوى الاقتصادية اما قضية تحديد الاجرة المشروعة بنفسها مع صرف النظر عن المنافسة وبلاستناد الى مستازمات العامل الحيوية فذلك في زعمهم ارهاق من القواعد الاخلاقية التي اصبحت كلاً على عوائقهم فلا شأن لها في ميدان العمل وسوقه لانها من الامور العاطفية فقط ولا محل للعاطفة في الشؤون التجارية .

وبلاستناد الى ذرائعهم الجوفاء هذه جعلوا من قاعدة العرض والطلب البربرية المنافية للقواعد الادبية الاساس الذي لا يسمو عليه اساس لانهم يزعمون انه القاضي بتوازن القوى في سوق العمل لكي لا يصلح غيره ان يكون قاعدة التعاقد بين المستهلك والمنتج ورب المصنع والعامل : اذ ينبغي المحافظة على الحرية التامة لكي ندع المنافسة تأتي اعمالها من دون مانع او حاحز » دع الامور تجري في اعتيها .

ويرى اصحاب المذهب الاقتصادي الحرّ في هذا القانون كانه مكتوب بايدي الاله لذلك اكد عدد كبير من علماء الاقتصاد الحر ومن جملتهم باستيا Bastia » انه من الخطأ عدم التقيد بقانون العرض والطلب .

والذين يرون فيه انه ضرورة لا محيد عنها وكان يد العناية قد خطته والذين يغيرونه كانه من مآتي القدر المحتومة مع ما فيه من بواعث على الاسف والحسرة يجمع كلاهما على الاعتقاد ان قانون العرض والطلب هو

مشروع صحيح .

ويلحق انصار المذهب الاقتصادي الحر امالهم في اقامة التوازن في الانتاج على قانون العرض والطلب الطبيعي فهو ايضاً يضع حداً للالزامات التي ضاعفت الحكومات خطورتها في تدخلها وبسط حمايتها على الشؤون الاقتصادية.

ومما جاء في كتاب « القضية الاجتماعية والواجب الاجتماعي الصفحة ٣٥ المطبوع سنة ١٩٠٣ » مؤلفه جورج بنوديل « Georges BHONDEL » الذي ينطبق على طائفة العمال في فرنسا ينطبق الانطباق كله على جميع البشر ولا سيما في بلادنا . ومما قاله في هذا الشأن : ان طبقة المتمولين الفرنسيين لم تبهرن على زكاتها في الشؤون الاجتماعية اكثر مما اقامت الدليل عليها في القضايا الاجتماعية فقد خدعتها عبارة باستيا « BASTIA » التي كانت شعار المدرسة الاقتصادية الحرة بما فيها من تفاؤل وراحت خيرها ببعض اعمال الاحسان على زعم منها انه اذا شكوا العمال الفقراء فالذنب في ذلك ذنبهم ولا صحة لكل الذرائع التي يحتجون بها على المجتمع واعلنت بكل صراحة ان غاية الصناعة تقوم على تحقيق الثروات لانه على قدر ازديادها تزداد رفاهية الانسانية .

فيا لها من اقوال ومزاعم تبعث على الاسى لانها لا ترغم فقط ان التنافس لا يفضي الى تحقيق التقدم المادي بل الى تحقيق التقدم الادبي ايضا .

د - الاعمال الصناعية والتجارية ومناقضتها للمبادئ الادبية

من خير ما يمثل روح الاقتصاد الحر في اول نشأته ما كتبه برنارد ديمانفيل BERNARD DEMANVILLE سنة « ١٦٧٠ - ١٧٣٣ » وهو احد الرجال الذين ساروا في طبعة ذلك النظام الانكليزي الحر لانه بين بصراحة تفكير ابناء امته فيما يتعلق بالاقتصاد الحر فقد قال : من اعمال المحافظة على ازدياد

عدد الامة وازدهارها . وابقائها راتعة في رخائها اذا ابعدنا عنها ما نسميه
البؤس سواء اكان ذلك من الناحية المادية او المعنوية ... اجل تستطيع
الفضائل ان تجعل الامة الصغيرة صالحة ولكنها لن تجعلها ابداً عظيمة
(الصفحة ٣٢٦) .

« اذ شئتم ان تجعلوا الامة كبيرة قوية دبوا التنافس بين اعضائها
وقسموا الاراضي ولو مهما كانت مجزأة . فتملكهم العقارات الضئيلة
يشحد عزائمهم ويوقد نار الحمية في افئدتهم ...

X دربوم في التجارة والصنائع وبثوا في انفسهم . عقارب التحاسد والغيرة
وحبة التراحم في ان واحد (الصفحة ٦٤٠) ... ان ما في المرء من
شغف بحب الزهو والظهور بمظاهر الابهة يملك على الوف الفقراء اوقاتهم
ويشتتهم عن الشغل ... ان ميل البشر الجنوبي الى التهام المأكّل الشهية
والتفاخر بتأثيث منازلهم هو خير باعث لاعدادهم وتلقيتهم خير اساليب
الكلام المغربي في السوق التجارية (صفحة ٦٤١) . « ما من وسيلة تدفع
العمال وتشحد عزائمهم ليستغلوا لغيرهم بافضل من احتياجاتهم الشخصية ، اجل
انه من الحكمة التنفيس عنهم ولكنه من الحق شقاؤهم ، فاذا رغبنا في ان
نراهم من رجال النشاط والجد فلا تجعلوا في متناولهم نقودا وافرة ، ولئن
كان القليل من النقد يبعث اليأس في افئدة بعضهم فان الاجور المرتفعة
تحمل العامل على التهاون والكسل (الصفحة ٦٤٣) .

« من الواضح ان الامم التي الغت الرق ولم تعد تسمح به في بلادها
لم يبق لديها ضمان لثروتها خير من وجود جهرة من الفقراء المجتهدين فهذه
الجاهل هي مغرسة خصبة لتستمد منها رجال البحرية والجنود اذ بدونهم
تزول كل بهجة ولا تظل قيمة لثروات العالم . فلا بد في سبيل توفير
سعادة الامة والشعب من ان يظل عدد عديد من البشر مهما كانت

الظروف . في حالة من الجهل والفقر لان رغائب البشر ومتمنياتهم تتعاضد وتنسكب بقدر تعاضد معرفتهم واتساعها فعلى قدر ما تكون رغبات المرء قليلة استطاع بسهولة تأمين ضرورياته فلذلك تتطلب مصلحة كل دولة او مملكة حصر علوم عمالها الفقراء ضمن نطاق اشغالهم كي لا تتعدى الامور التي تقع تحت انظارهم فيما هم مدعوون لعمله . فالراعي والفلاح والعامل كلما اتسعت علومهم وعرفوا اموراً خارجة عن دائرة اعمالهم كلما ابت عليهم النفس قبول متاعب اعمالهم ومشقاتها (الصفحة ٦٤٣) .

ولئن جرى بالكاتب قلمه ليقول ما قاله بكل جرأة فلانه كان مقتنعاً كل الاقتناع بصحة ما اعرب عنه فكان مسوقاً اليه سوقاً بمنطقه الباطني كلؤمن الذي يصدر عن نفس مشبعة بعقيدتها الايمانية .

وهذه الاقوال التي المعنى اليها ويندي لها اليوم جبين الراسمالية الحرة خجلاً ولا يستصوبها حتى انصار المذهب الاقتصادي الحر انفسهم ويعترفون بضروية الحد من قانون العرض والطلب ويدعون لتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية ولا يستطيعون الا ان يشجبوا (مساوي تشغيل النساء والاحداث) ما برحت قيد العمل بموجبها في رقعتنا الشرقية ، على ما فيها من اجحاف بحق الفرد والمجموع .

ولقد اتصل بنا من اوثق المصادر ان بعض المتزعمين يأبون نشر التعليم في المناطق التي يتزعمونها وان جمهرة كبار الملاكين سواء اكانوا اشخاصاً طبيعيين ام اشخاصاً معنويين يحرسون كل الحرص على ان يظل (مرابعوهم) في حالة فقرية وان لا ينتشر العلم بينهم حتى درج عامة هؤلاء الناس على القول (حسب ابنا من العلم ما يكفيه قضاء حاجاته) .

ولئن ادركت الراسمالية ضرورة تخفيف وطأتها وهي في ابان تطورها فلا يسعنا الا ان نلفت النظر الى هؤلاء المتطرفين في المطالبة باطلاق حرية

رأس المال تحت ستار نظام الحرية الاقتصادي المعدل وذلك لكي يتسنى لهذه الحرية بلوغ خير النتائج التي يهدف اليها المنهج الحر لان اذعانهم لتدخل الدولة لا يقول باطلاق يدها كل الاطلاق وانما يبيح لها التدخل في شؤون طفيفة لكي لا يتناول مفهومها الاقتصادي المنافي للقواعد الادبية ولا حرصها على مضاعفة الاهتمام بتنظيم المؤسسات الصناعية تنظيماً لتزويد الانتاج ولتطبيق استخدام الاليات ولا حلال المزاخمة والتنافس واسعار البيع في المحل الاول فلا يتناول المسؤولية التي تقع على عاتق ارباب الاعمال فيما يتعلق بحياة العمال الاخلاقية الذين انتزعوهم من محيطهم الطبيعي وحشودهم في مباءة المصنع وفي وسط اعماله الاجتماعية الفاسدة اما اذا ارتأوا اتيان بعض اعمال الاحسان فلن يمتثلوا لها ارباب الاعمال وحدهم حتى تكون مآتيهم معارضة منظمة بعض التنظيم الحرية العمال النقابية ولكل شكل من اشكال التعاون الشخصي في ادارة المصنع .

٣ - المساوي التي افضى اليها المذهب الاقتصادي الحر

كانت نتائج سيطرة المنهج الاقتصادي الحر « البؤس الذي لا تستحقه » طائفة العمال « لاون الثالث عشر » « Brum novarum » .

ولقد اخذنا على النفس عهداً ان لا ننداري احداً وان لا نصدر عن باطن نغل في بيان مساوي الرأسمالية التي تستطيع لها اصد القلوب وتستشعر خشيتها المريرة !

الاجرة - قلما يتقاضى العامل اجرة تحوله ان يدخر منها بعض الوفر وذلك اذا لم تقل انها لا تكفيه لسد حاجاته الضرورية فان معدل الاجرة للعامل اليدوي لا يزيد على اربع ليرات في المدينة وثلاث ليرات في الارياض فاذا اخذنا بعين الاعتبار اسعار المواد الغذائية فقط كالخبز واللحم

لا غيرهما فان ما يتناوله يومياً يكاد لا يكفي لتأمين اكله وشربه وحده
اما اذا كان صاحب اسرة ما برح اعضاؤها قاصرين فهناك الطامة الكبرى .
ولقد نظرنا الى اشد ضروراته الحيوية من دون ان نشير الى اجرة
منزله وما يفتقر اليه هو وذووه من ملبوس واعتبرنا انه بآمن مع ابنائه
وزوجته من غائلة الامراض ومن البطالة .

ولئن قلت العامل فاننا اعني به ايضاً معلم المدرسة والشرطي والجندي
وجميع اصحاب الحرف المعاشية فهؤلاء جميعهم لا يتقاضون مرتبات في معظمهم
تزيد عن اجرة العامل اليدوي اليومية . وحاجاتهم الضرورية هي الحاجات
نفسها . فان مرتبات المعلمين الرسمية ورجال الشرطة والجنود لا تخولهم مطلقاً
ان يكونوا في مأمن من حرمان انفسهم اشد مستازماتهم الحيوية .
وليست اجور موظفي عمال التجارة والفنادق والخدمة عامة تفوق اجرة
مرتبات هؤلاء الموظفين .

اوضاع العمل وشروطه

حسبنا ان ننظر الى هؤلاء العمال في ذهابهم يومياً الى مقر اشغالهم
صباحاً يتأبطون تحت ثيابهم البالية التي اكل عليها الدهر وشرب طعام
الظهر وهو كناية عن بعض خبزات من النوع المنحط مع القليل مما يؤتدم
به ليعملوا طوال ثمان ساعات كما ينص على ذلك قانون العمل . اما المعاملة
التي يعاملون بها فلا حاجة الى التذكير بها ولا الى الزرائع التي يلجأ اليها
ارباب المعاهد والمعامل واصحاب الاعمال للتهرب من دفع اجورهم وما قرره
القانون لهم من نفقات عيلية وتعويضات فهي بغنى عن التعريف بها .
وليست اوضاع عمال الزراعة ولا سيما « المرابعون » بافضل من اوضاع
هؤلاء : عمال الصناعات والمستخدمين ، فاولياء الاراضي الكبيرة واصحاب

العقارات الواسعة قلما تختلف معاملاتهم لمزارعيهم عن معاملات اصحاب
المصانع لعمالهم

وهذه الاقوال التي المعنا اليها ويندى لها جبين الرأسمالية الحرة خجلاً
اليوم ولا يستصوبها حتى انصار المذهب الاقتصادي الحر انفسهم ليعترفوا
صراحة بانه من الواجب الحد من عمل قانون العرض والطلب وليقبلوا ان
تتدخل الدولة في كبح جماحه فلا يطلبون ابعادها عن الميدان الاقتصادي
كما كانوا يفعلون في الماضي وما برحت قاعدة الرأسمالية الرئيسية وما زال
العمل بموجبها يجري كما كان يجري في ايان سيطرة المنهج الاقتصادي الحر
قبل الحرب الكونية الاولى ولاسيما في البلاد الشرقية .

وعلى رغم جميع هذه المساوي وما ينجم عنها من مضار في كل مضامير
الحياة وبخاصة في الامور الصحية لم تستوح الحكومات انظمة العمل فيها الا
من منهج الاقتصاد الرأسمالي الحر ولم تغير من روحه الا بعض النصوص
تغييراً ظاهرياً فكانت « كمن رش على الموت السكر » على حد الاغنية الشعبية .
وفي اثناء سيطرة النظام الرأسمالي الحر حيث كان البشر لا يرون نظاماً
غيره صالحاً للحياة وكانوا يعتقدون ان نواميسه هي النواميس الطبيعية التي
لا يعترها الباطل لم يكتف كثير من رجال الفكر ما ساورهم من مخاوف
من نتائجها . وحسبنا ان نقرأ في هذا الشأن « نشيد القميص » لاحد شعراء
الانكليز : الذي مضته رؤية الاعمال المنزلية الشاقة واجورها الزهيدة ونتائجها
الاليمة وما تقضي اليه من اضرار بالامهات وباطفالهن .

« هنا تجلس امرأة اثقل النعاس اجفانها ولاشي الونى اصابعها فاحمرت عيناها
وهي ترتدي اطماراً بالية لا تليق بامرأة لتواصل جذب ابرة خياطتها خاوية
البطن تحف بها الاقدار وقد عضها الجوع بنابه .

ومع ذلك كانت تتغنى بنغم حزين مشجٍ بانشودة القميص وتقول ثابري
يا يدي على عمالك لتدأب في شغلها بدون انقطاع وقد اخذ الديك بصياحه
وبانت لعينها النجوم من فجوات منزلها .

ولئن كانت هذه هي اوضاع المرأة المسيحية فما هو يا ترى مدى عبوديتها
لدى الشعوب البربرية حيث يعتقدون انها بدون نفس لتسعى لخلاصها .
فيا ايها الذين تعز عليهم اخواتهم ويا ايها الازواج ومن لهم امهات
انكم لا تستنفدون القماش وانما تستنفدون حياة مخلوقات انسانية .
انها ما برحت في فقرها وجوعها ومصائبها تواصل اجتذاب ابرتها لتخيط
في آن واحدٍ وبخيط مزدوج كنفها والقميص .

واليك ايضاً « شكوى الاطفال » وهي القصيدة التي وضعتها سنة
(١٨٦٠-١٨٦١) اليزابت باريت بروننغ « Elisabeth BARETT BROWNING »
لترفع صوتها محتجة على استخدام الاطفال الشائن في المعامل والمصانع :
« هل سمعتم يا اخواني ! الاطفال سيكون قبل ان تحلّ الاحزان بساحتهم
مع السنين ؟
فان دموعهم لا تتوقف عن الانهار وان اسندوا رؤوسهم الى صدور
امهاتهم !

هناك الحملان الصغيرة ثاغية في مراعيها
وفراخ الطير مرققة في وكناتها
والزهر الصغير فاتح اكمامه وقد حوّل وجهه نحو الشرق
اما الاطفال - هؤلاء الاطفال الصغار
فما برحوا سيكون بكاءً مريراً
ايها الاخوات !

انهم سيكون - وسنهم في بلدان الناس سنّ اللعب والمرح
انهم سيكون قائلين يا للتعب
اننا لا نقوى على الركض والقفز
واذا ما اجتذبتنا الحقول اليها
فلكي نسقط على حشيشها ونزقد فوقه
واذا ما حاولنا ان نتقدم اكبنا على وجوهنا
فاجفاننا الثقيلة التي لا تنطبق
ترى صفراء ، الزهر البادي امامها اشدّ احمراراً
لانا جررنا حملنا الثقيل المضي
طول النهار عبر نفق الفجم المظلم
وعملنا طول النهار في قتل دواليب المصانع الحديدية الثقيلة
فلا تبرح وجوهنا تستشعر فضفضتها وما تولده من نفحات هواء
فكأنها لم تنفك عن الدوران وكأن رؤوسنا لا تزال طائشة منها
واننا لئرى الجدران تدور على ذاتها
ويخيل لنا ان السماء ترتجف فوقنا من النافذة المرتججة
ها نحن نشهد الزور يتساقط عمودياً على الحائط
وها الذباب الاسود يطوف في زحفه على السقف
انها الدواليب المدوية طول النهار
وما كان اشد رغبتنا ونحن نشرق بالدمع
ان تقف عن دورانها ولو يوماً واحداً
وكم ضرعنا اليها لترفق بنا
وقلنا لها رحماك ايها الدواليب
احمني اليوم فقط
احمني ! عسى ان يسمع احدنا ولو دقيقة واحدة تهدهد رقيقه

وتصافح يدنا يده فنحن قائمون وجهاً لوجه بعضنا الى بعض !
ولتستشعر هذه الشبيبة النضيرة ! لتستشعر ان هذه الحركة المعدنية الباردة
انها حركة الالات لا حركة الحياة : حركة اعدّها الله وبرزها الى
حين الوجود

ولئن سيطرت ايتها الدواليب على هؤلاء العملة ولئن توحدت رغبتهم ضدك
فانت لا تعبتين بهم وانما تستمرين في دورانك طول النهار
لتسحقي ابناء الحياة وتحولهم عن هدفهم
وتقضي على نفوس الاطفال التي يدعوها الله نحو الشمس
انك لتثابرين على دورانك الاعى في الظلمة » .

ولشد ما كان وقع هذه الاقوال على جمهرة المثقفين في انكلترا ...
بحيث عدل القانون المتعلق بشغل الاطفال فوراً وهذا ما اشاروا الى
مدلوله بكلمة « System Sweating » .

* * *

ليست هذه الشوايب التي تقض مضاجع البشر وليدة افئدة مريضة ولا
من بنات نياتهم الميمنة ولكنها ربيبة التنظيم الاقتصادي الحر الذي يهدف
الى تزييد الانتاج فقط .

ولم تعزب هذه المعرّات حتى في مطلع عهد الرأسمالية عن الانظار
واليك العلاج الذي ارتآه فيلرم « VILLERME » في هذا الشأن :

« يشوقني ان اقول ان جماعة عمال الازراس قد حاولوا وضع حد
لهذه الوساس الشائنة « لا ارهاق في تشغيل الاطفال » ولكن ما فائدة
اخلاص الافراد ؟ ان الواجب يقضي بتوحيد جميع رجال الصناعة لا في
منطقة واحدة بل في جميع العالم وبان ينضم بعضهم الى بعض انضماماً صحيحاً
وحتى في البلدان التي تباع فيها البضائع فيضعوا حداً لهذه الشوايب بدلا

من ان يستغلوها لمصلحتهم .

وبديهي أننا لا نقوى على ان نرجو ذلك منهم لانه لم يتفق لاية طائفة كانت لا في فرنسا ولا في غيرها ان تقدم على هذا العمل وليس العلاج الذي يحول دون استفاد قوى الاطفال في المصانع وانما كهم في المعامل الا من صنع قانون ينظم اعمالهم ويحدد مدتها بالنسبة الى سن كل فئة منهم » « الجزء الثاني ، ٩٢ » .

وبما ان منهج النظام الحر يقوم على التطاحن بدون هواة ويحتقر كل ما هو انساني فنحن لن نرى لنا مخرجاً نحو لنا الاستغناء عن تشغيل الاحداث .

« يسلم جميع الناس بان استخدام الاحداث في المصانع هو من الضرورات التي لا محيد عنها في الامور الاقتصادية ... لان ما يناط بهم من اعمال لا يقوى غيرهم على انجازه بسبب ما لا يديهم من المرونة في قتل الحيوط وما لاجسائهم من الليونة التي تخولهم الانطواء على انفسهم على عكس الرجال الكبار » « الجزء الثاني الصفحة ١١٩ »

وما عدا هذه الشوايب والمعرات التي المع اليها عندما تصدى الى الكلام على تشغيل الاحداث والنساء وكلها معرات تتصل مضارها بالصحة العامة ولها تأثير كبير في كثرة الوفيات ونقص اخرى ليست باقل خطراً الا وهي اختلاط الجنسين معاً والسلفات بالفائدة التي يعطيها ارباب العمل للعمال واكواخ السكن ثمة مساوي عديدة :

« من عاداتهم في المصانع الكبرى : اولاً ان لا يفصلوا بين الرجال والنساء في مصانعهم وثانياً ان يرغبوا الاحداث على الشغل طويلاً وثالثاً ان يقرض اصحابها النقود لعمالهم برباً فاحش تحت اسم « سلفيات » على اجورهم . فالاولى مفسدة للاخلاق والاداب والثانية هدامة للصحة والثالثة باعثة على البؤس والاملاق وجميعها عادات تصم الاخلاق العامة بوحمة العار . . .

«... وما يضع حداً لهذه الاضرار الفادحة سن قانون خاص يقضي بفصل النساء عن الرجال في اثناء العمل ويحدد ساعات عمل الاحداث ويعين الحد الاعلى للقروض التي يسجلها اصحاب المصانع على دفاتر شغل كل عامل حتى اذا ما تجاوزت الحد الموضوع لها اعتبرت لغواً». «الجزء الثاني الصفحة ٣٥٥» وثمة من المآخذ على مساكن العمال «اكواخهم» الشيء الكثير، وقد جزم فيلرم «VILLERME» في تقريره : بان العمال يتكدس بعضهم فوق بعض في المدن الكبرى ليقطنوا ازقة مظلمة ضيقة ومنازل قذرة لا تعرف النور والهواء تنتشر فيها الاوبئة المعدية ولا سيما الامراض الجلدية . اما النساء اللواتي يشتغلن في بيوتهن فاجورهن زهيدة تكاد لا تكفيهن .

هذه هي المآخذ الرئيسية والشوايب التي لازمت النظام الاقتصادي الحر في مطلع عهده وتكاد تكون هي هي في يومنا الحاضر اما اذا طرأ عليها بعض التعديلات فليست باكثر من تعديلات ظاهرية ليس الا .

وما اعتقده القس غوستاف مونود «Gustave MONOD» ان نتائج البؤس الذي يسببه النظام الاقتصادي الحر تؤول الى ازدياد الفجور لدى النساء ودهورتهن في مزالق الدعارة ولا سيما اذا كن يتقاضين اجوراً زهيدة او عاطلات عن العمل ، واذا لم نجاره في رؤية الرومانتيكي فان البؤس هو من دون شك من العوامل القوية التي تدفع بالنساء الى تعاطي الفحشاء .

ومن بواعث الاسى ايضاً ما نشهده من عدم اهتمام ارباب الاعمال واصحابها بمسؤولياتهم الادبية . فهم في الغالب يسيرون سيرة ملتوية امام عمالهم ولا يحاولون اية محاولة ان يتخذوا التدابير والاحتياطات التي من شأنها صيانة الآداب والاخلاق !

وقلما يترفع ارباب الاعمال عن التلفظ بالعبارات البذيئة على مسامع النساء والفتيات اللواتي يعملن في مصانعهم ! وربما شهدوا امام اعينهم اعمالاً ملتوية فوقفوا

امامها لا ينبسون ببنت شفة ولا يبذلون اقل مجهودات الجيولة دونها .
ومن المؤكد ان ضروب البؤس والحرمانات التي كابد آلامها العمال
وما يرحوا يتجرعون غصصها قد أجيح في افئدتهم نار الثورة على اوضاعهم
وحاولوا لدى كل سانحة الانتفاض على الانظمة والتمرد على القوانين
التي اعتبروها من عوامل شقاؤهم وتعاستهم .

ولم تقم الاحزاب المعارضة ولا سيما الاشتراكية منها الا بعد ان أصم
الرأسماليون اذانهم عن الاصغاء الى صوت الوجدان وتعاموا عن طلبات
العمال الحقبة التي طالما نادى بها هؤلاء وحاولوا تحقيقها ، وكانت قوة
الاطماع تصدم دائماً عن بلوغ امنياتهم .

ولو لم تصادف هذه الاماني نزعة الى تحقيقها لدى معظم الجماهير لما
استطاعت احزاب غير المحافظين عندما وصلت الى الحكم ان تحقق تنظيم
عمل الاحداث وتحديد ساعات شغل الكبار ولما اعترفوا بمشروعية النقابات
ودفع اجور الفرض واقرار العقود الاجتماعية : بين اصحاب الاعمال
والنقابة .

وهذه الاصلاحات المشروعة التي لا يستطيع انكارها حتى اشد المتعصبين
للنظام الاقتصادي الحر قد اقرتها القوانين والانظمة في معظم البلدان
ولكنها لم ترسخ بعد في قرارة النفوس .

٤ - نقد المنهج الحر

اجمع رجال الفكر من كل الطبقات على شجب مبادئ الاقتصاد
الحر ولم يكتبوا ما خالجهم من شكوك حولها فلذلك عمدت الديموقراطيات
توّاً بعد انتهاء الحرب الاخيرة الى الحد من مساوئها واطلقت نوعاً يد
حكوماتها في التدخل بالشؤون الاقتصادية تخفيفاً لما يصحب المنهج الحر

من اوهاق وتجاوز على حقوق العمال .

واليك بعض اراء هؤلاء المفكرين التي جاهروا بها قبيل الحرب الاولى :
« ليست ازمة الاقتصاد الحر بنت ساعتها القائمة فقد كانت مساوية بادية
للعيان قبل سنة ١٩١٤ كالشمس في رائعة النهار وان تعامى عنها اصحاب
المطامع وذوو الاثرة ارباب الصناعات والاموال فتاريخ منشئها قد بدأ مع
بدء الاحتكارات القومية والدولية الكبرى : اي منذ تم حشد الصناعة
وبخاصة منذ اندمجت الرأسمالية الصناعية بالرأسمالية المصرفية «البنكية» لتكوّن
الرأسمالية المالية فمن تلك الساعة شهد البشر زوال مبدأ الاقتصاد الحر
الاساسي الا وهو المنافسة الطليقة ليدخل هذا المنهج دفعة واحدة في عهد
التأزم .

ولقد فتح العهد الذي كان قبيل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٩)
منا العين على بوادر هذه الازمة ومن ثم كانت الحرب التي جاءت تزيد في
خطورة المسألة بسبب عاملين رئيسيين : هما اتساع الاحتكارات اتساعاً لم
يكن للناس عهد به ومن ثم توحيد القوى القومية توحيداً كان من طراز
ورأسمالية متقنة كل الالتفات فنشأت صناعات كبرى في اوستاليا وكندا
والمستعمرات والبلدان الاوربية الجديدة التي برزت الى حيز الوجود بعد
مؤتمر فرساي . واعتبر سير منهج الاقتصاد الحر الخلل بسبب هذين العاملين
واخذ البشر يستشعرون ضغط الازمة الاقتصادية التي اختلفت عوارضها عن
سابقاتها لينتضي معها زمان الاقتصاد الحر « لماذا مات النظام الاقتصادي الحر »
(الصفحة ٣٠) . . . ثمت بطالة فنية واعني بها البطالة التي ولدها انتشار
الآليات اي ازدياد الانتاج . . . »

ولذلك لا انفك عن القول ان الظروف التي كانت سبباً لانتشار المنهج الحر
قد استبقتة . لان التقدم الآلي والاجتماعي ولاسيما المزاحمة - وهي اسس هذا

المنهج - تقضي الى حشد الصناعة وتكبير الاعمال . فمن البديهي انه في سبيل صنع السيارات بسعر زهيد لا بد لنا شئنا ام ايئنا من ان نتبنى قاعدة ايجاد المصنع الجبار اما تحشيد الصناعة فمن شأنه ان ينزع الى الاحتكار . وهذا ما يخالف كل المخالفة مبادئ الاقتصاد الحر الاساسية .

« ... يقوم المنهج الاقتصادي على ان يختار « اوتوماتيكياً » خير الامور المنتجة وهذا الاصطفاء لا سبيل اليه اليوم او انه لن يكون بدون صعوبة جدية : لانه لم يبق في الامكان الاستغناء عن المصانع الجبارة التي تستخدم الوف العمال ، ولا سبيل ايضاً للاستغناء عنها لحياة المجموع : كوجود الشركة الفلانية للنقلات او كالمصرف الفلاني او كالورشة البحرية او المصنع الآخر .

وعلى رغم اخفاق جميع هذه المؤسسات بات من الواجب المحافظة عليها مهما كلف الامر ولو على نفقة الدولة لان استمرار عملها من الامور التي تتطلبها المصلحة العامة ... « وفي مثل هذا المقام قد استبقت الظروف المنهج الحر لانه لم يبق لديه سبيل لاختيار خير ما يفضي الى تزييد الانتاج باقل النفقات . »

واذا ما انتقلنا الى بحث قانون العرض والطلب الذي يفرض قيام عاملين متناقضين من شأنها في تناقضها ان يحافظا على الموازنة في تناسق الاسعار : السعر الادنى الذي يخول المنتج ان يعيش والسعر الاعلى الذي يمكن المستهلك من الشراء فنرى ان العرض قد اعتراه الشلل والطلب قد انهار لينقضي بذلك عهد النظام الاقتصادي الحر ، ولئن تذرع المتذرعون « بحجة الازمة » فالواقع هو غير ذلك لان الاستهلاك لا بد له من حد ولا سيما في المنهج الحر الذي لا يعرف غير الحاجات القابلة للاستهلاك « Le libéralisme est dépassé P 411 »

« في غضون اخريات القرون الوسطى عرف الانتاج الصناعي منهجين اقتصاديين : تدامج الجمعيات التعاونية والنظام الاقتصادي الحر : فكان قوام الاول التضامن الاجتماعي بين رب المصنع وعماله وبين مختلف الحرف والمهن وكانوا يعمدون الى تلافي مضر الالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تخلق البطالة بعدم استخدامها وبالاكثر من الاعياد الدينية مما يقابله اليوم الضريبة على الاختراعات واسبوع الاربعين ساعة للذين نعتبرها كامور جديدة .

ولئن تساءلنا لماذا حل المنهج الحر محل الجمعيات التعاونية ؟ فالجواب على ذلك هو ان تقدم وسائل تداول المنتجات قد قطع شوطاً تجاوز معه حدود تقدم وسائل الانتاج .

وفي الواقع ان الجهود الشخصية والحرية الفردية هما اللذان استبقا ذلك النظام كما سبقا التعاون الاجتماعي لتقوم الاثرة الحرة في المقام الاول فيعمل كل لنفسه ويهتم القوي بمشاعله والضعيف بشأنة كالاسماك في البحار يأكل قويا ضعيفها .

« وفي الحقيقة ان الاقتصاد الحر قد نذر ع بهدف الانتاج الغامض الا وهو الاستمرار في ايجاد المنتجات باقل ما يمكن من الوقت ولكنها المنتجات التي تؤمن الارباح فلم يدع لارباب العمل الوقت والوسائل والحق بان يهتموا باجور العمال بل كانوا مصفين بقيود التزامهم والمنافسة !

وماذا كانت القوانين التي تنظم قواعد الربح ؟ انها ايجاد اعظم عدد من الزبائن فاحتاج الاقتصاد الحر الى أسواق استهلاك كبيرة فكان على الاقتصاد القومي ان يعد للمنهج الحر المواد الاولية وان يشتري منه منتجاته لان المستهلك لم يبق من هو كائن ضمن المصنع بل من هو في خارجه .

« ويمكن الاقتصاد الحر في غضون مئة سنة ان يتسع على نفقة الاقتصاد

القومي حتى كانت الساحة التي تجاوز فيها عرض المنتجين طلب المستهلكين : فازداد الانتاج وتدنّت قسوة الشراء ونشبت الضائقة الاقتصادية وكانت الانتفاضات العمالية سنة ١٩٤٠ .

ولا شك في ان النظام الاقتصادي الحر لا بد له من التخلي عن مكانته ليقوم نظام اخر محله « Travail et liberté, Agonie du libéralisme p 111 »

واليك ما قاله البابا بيوس الحادي عشر في فقرة من رسالته الرعائية : لقد استطاع رأس المال مدة طويلة ان يحقق ارباحاً طائلة واراد ان يستولي على مجموع الانتاج والارباح لوحده وكاد لا يترك للطبقة العاملة شيئاً تقوى معه على استرداد قوتها والحفاظة على بقائها ، وبما اكده ان القانون الاقتصادي الذي لا مندوحة عنه يعمل على تكديس رأس المال في ايدي الاغنياء وهو الذي يقضي على العمال بان تكون حياتهم واهية وفي املاق دائم .

بيد ان الواقع لم يحقق في كل مكان قواعد منهج منشستر الحر ونحن لا نقوى على الانكار ان النظام الاقتصادي الاجتماعي لم ينزع الى ايجاد حركة مستقرة في الناحية التي يزعمها « Quadragesimo anno N° 60 »

وجاء في الرسالة الرعائية « Divini Redemptoris » : لقد مهدت الرأسمالية الطريق امام الشيوعية « واذا ما شئنا ان نعرف كيف نجحت الشيوعية وقبلتها جماهير العمال من دون بحث وتفحص لا بد لنا من ان نذكر انهم كانوا قد اعدوهم لقبول هذه الدعاية عن طريق الاهمال الديني والادبي اهمالا ابقاهم المنهج الاقتصادي الحر يرتعون في احضانه بحيث لم يدع حتى الوقت اللازم لانجاز اهم وجائبهم الدينية ولم يكلف الرأسماليون النفس ان يبنوا الكنائس بقرب مصانعهم ليؤمنها العمال ايام الآحاد والاعياد ولا سهلوا على الكاهن مهمته وانما على العكس من ذلك قد شجعوا العلمانية واكملوا عملها فلذلك نخفي ميراث الفساد الذي طالما ندّد به سافاؤنا كما

ندد به نحن انفسنا ، وليس من المدهش ان ينتشر الضلال الشيوعي انتشاراً واسعاً في عالم ابتعد كل الابتعاد عن المسيحية (N° 16) .
ولقد المعنا في بيان مساوي النظام الاقتصادي الحر الى مختلف الآراء من اشدها تطرفاً الى اكثرها محافظة لننتقل بعدها الى نقد هذا المنهج نقداً يتناول

- ا - خطأ هذا المنهج الذي لا يعرف الحرية الا بالظاهر .
- ب - الاثره الجشعة التي هي من اسسه الجوهرية .
- ج - اتخاذه المادة هدفه الاول بدلا من ان يجعل هدفه الانسانية .
- د - ديكتاتورية النقود فيه .

* * *

ان النظام الاقتصادي الرأسمالي ليس فيه من الحرية
الا ان يقول عن نفسه انه المنهج الحر

قال الكردينال مانينغ « MANNING » ان الحرية التي افضت اليها الثورة الفرنسية ليست الا حرية الموت جوعاً .

وقال البابا لاوون الثالث عشر : انها « الحرية » التي جردت العامل وجعلته تحت رحمة سادة قُدت قلوبهم من صخر جلمد « لا يعرفون معنىً للانسانية » لتتركه بدون دفاع يقية غائلة البؤس لان اولياء الاعمال دأبهم ان يتزاحوا مزاحمة لا كباح لها « Rerum Novarum » .

وبحق لقد اطلقوا على هذه الحرية اسم « حرية الادغال » لانها تقوم على طرفي نقيض من الحق في العمل والحياة .

« يرى الجيل الجديد في البديهة القائلة بان الحرية الاقتصادية كفية بشفاء جميع الجراح التي تحدثها خيبة امل الظن الانسانية ، ومن المؤكد ان كل

تشريع ينص على تدخل الدولة لا يبلغ هدفه يكون من جملة التدابير التي اتخذت قبل اوانها او من التدابير التي لم يحكم امرها او انها قد كانت شديدة التطرف . وعلى كل من الخطأ القول ان تدخل القانون لا فائدة له لانه تجاوز لا مبرر له على عمل النواميس الطبيعية وعوامل التنسيق الاقتصادية المحتمومة هذه النواميس المفيدة طبعاً . اجل ان الحرية التي زودت القوانين بها الهيئة الاجتماعية في القرن التاسع عشر لم تكن الا حرية الالم Martin» de SAINT - LEON histoire des Corporations et des métiers p 764»

ولا يملك العامل المنفرد حريته اذا ما تقدم من صاحب عمل كبير واراد ان يعقد معه «مقاويلته» كند لند لانه يتقدم منه طالباً منه ان يشغله عنده وركبته تصطكان عندما يفكر في زوجته واولاده ليقبل مرغماً شروطه التي يفرضها عليه وذلك خوفاً من تعريض ذويه للموت جوعاً . فاذا شئنا ان نمكّن العمال من التعاقد «كقرين لقرين» مع صاحب المصنع او المعهد او المؤسسة انبغى لنا أن نسمح لهم بإنشاء النقابات التي اعترفت كل القوانين بحق انشائها لان تعديل شروط العمل وفق رغبة فريق واحد من المتعاقدين وبدون ائذار سابق وعدم الاهتمام بما يفضي اليه تبديل هذه الشروط من بلبلة في ميزانية العامل بسبب انقاص اجرتة من دون علمه وبدون ان يأخذ صاحب العمل مستلزماته الحيوية العملية بعين الاعتبار افتئات صريح على خصائص العقود بين فريقين .

«وقد يجوز تنزيل اجرة العمال مؤقتاً الى اقل من حدّها الحيوي اذا ما حلت بساحة المصنع ضائقة اقتصادية وذلك لانقاده من الافلاس . اما اذا لم ينجح في تفادي الازمة وبات يبحث عما اذا كان يواصل عمله او لا فمن الواجب عليه ان يتدارك بطريقة اخرى مصلحة اليد العاملة » بيوس الحادي عشر «Quadragesimo Anno»

والعامل الذي يبذل حياته في المصنع الحق بتحسين اجرة عمله الذي يخوِّله ان يعيش هو واسرته ومتى انقطع المصنع عن ان يكون لخدمة الحق في الحياة زال كل سبب لبقائه ، كما له الحق ايضاً ان يقيم وكلاء عنه من اعضاء نقابته على ان يكونوا من ذوي الاختصاص الفنيين الجيدين بالمهنة لكي يستطيعوا ان يناقشوا مندوبي اصحاب الاعمال مناقشة المطلع على الامر اما اذا رفض اصحاب المصانع والاعمال الا ان يفاوضوا عمال مصانعهم مباشرة فما ذلك منهم الا مغالطة صريحة اي التمسك بعقلية اصحاب المصنع القديم العيلي اما في الصناعات العصرية الكبرى فمثل هذه المحاولة ليست الا تجاهلاً عملياً للتنظيم النقابي .

ومن مصلحة العامل ان يقدم مطالبه بواسطة احد مندوبي نقابته لانه كون عادة اكثر كفاءة منه واشد استقلالاً حيال رب المصنع .

ب - الاثر المتأصلة في المنهج الاقتصادي الحر

من اركان التعليم الاقتصادي الحر الاثر « الانانية » الفردية الناجمة عن مبدأ حرية الاختيار : « ان استحكام الافكار الفردية وسيطرتها قد كانت من الاسباب الرئيسية للمظالم التي قاست اوصافها طائفة العمال وكان مسؤولاً عنها اصحاب الاعمال .

« GARRIGUET » Introduction à l'étude de la sociologie P 290 »

« ان مبادئ الاثر الفردية المشؤومة المسلم بها قد تناست « خاصة الحياة الاقتصادية والاجتماعية » فهي الجشع الساعي وراء فائده المفضي الى توزيع الثروات هذا التوزيع المجحف كل الاجحاف » Quadragesimo Anno N°59 »
فرب المصنع الذي يعترف بوجود الحق المطلق لا يعترف به الا على شرط ان يجد فيه مصلحته وان يوجه تجارته بخبرته من دون ان يهتم لمعرفة اذا كان هذا العمل سيخدم عماله او المصلحة العامة اولاً .

« وهالك المثل على ذلك : لقد خيل اليّ ايجاد واسطة جديدة لانشيء معملًا صناعيًا راجحاً اذ خطر لي انني لو بنيت محلاً في الوادي الفلاني حيث تتدفق المياه لاستغنيت عن دفع ثمن زيوت القوة المحركة التي احتاج اليها ولكان باستطاعتي ايجاد العمال باجور زهيدة من القرى المجاورة فهم لا شروط لهم ثقيلة وانما يقبلون الاجرة التي اعرضها عليهم وغاية مصنعي هي ان اصنع اللحف من الخرق البالية وعندما ارى ان المعمل الذي انشأته لجني الارباح التي حلت بها قد خيب ظني ولم يأت بالفائدة المادية التي كنت اتوخاها منه اعمد الى تصفيته فاسرّح عمالي واغلق ابوابه وليس لاحد ان يعارضني في عملي هذا لانه من حقي المشروع »

هذه هي قاعدة طبيعية من قواعد النظام الاقتصادي الحرّ : اي اجتناء الربح الشخصي فقط . اما أيعتبر مشروعني نافعا حقاً للمجتمع ؟ او هل يؤدي خدمة صحته للعمال والمستهلكين او هل البلاد في حاجة للحف تصنع من بقايا الخرق البالية وفيها كميات من القطن كبرى فذلك امر لا نأبه له ! فذريعة النظام الاقتصادي الحر وبرهانه انه من حق الفرد ان يقتنص الارباح كيف تسنى له اقتناصها طالما يجد من يشتري منتجات هذا المصنع وهو لا يحتاج الى تبرير انشائه الى براهين وذرائع اخرى .

اما - هل يجد العمال فائدة جدية من المشروع واما حرمان قريتهم ايديهم النشيطة فذلك امر لا شأن له به طالما قبلوا باختيارهم الانضمام الى العمال وارتضوا عن طيبة خاطر بالاجرة التي تدفع لهم وطاب لهم ان يأتوا الى المدينة .

اما تعريض صحتهم واخلافهم الى الخطر باقتلاعهم من محيط اباؤهم ووسط عيالهم وبيئتهم الاخلاقية ليعيشوا في مصنع يرتادون عن طريقه التجارة ودور السينا الخلاعية فذلك امر ليس ذا بال !

وقد يكون جواب القائلين بمبادئ النظام الاقتصادي الحرّ مالنا ولهذا الاختبارات ؟ ! ونحن اذا ما اخذنا بها فما هي النتيجة التي تؤول الينا ؟ أيرومون منا مساعدات لانشاء مدرسة او لايجاد مستوصف في مدينتنا العمالية ؟ اننا احرار ان نفعل أولا نفعل وما من احد يجبرنا على ذلك .

ولئن انعمنا النظر في صحة منطق الاقتصاد الحرّ والمنطق القائم على الاسس الاخلاقية لرأينا الثاني اقرب جد القرب من الحقيقة الراهنة لانه يقيم حيال الطمع بالربح المصلحة العامة ويعارض سلطة التفرد المطلقة بالمسؤوليات الادبية والاجتماعية ويضع فوق انشاء المشروع حياة العامل ومستلزمات الصالح العام .

ومن لا يدرك ان ادخال الالة الى المصانع لا يؤدي الى كارثة اذا كان رئيسه لا يأبه لجميع ردات افعاله الاجتماعية لكي لا يأخذ بعين الاعتبار الا ما يقتضيه التراحم ومصلحته الشخصية ؟

ولا يسعني في هذا الباب الا ان استشهد بما روته احدى الصحف الفرنسية سنة ١٩٣٤ وذلك بمناسبة انشاء احد المراكز الجديدة لتوليد الكهرباء في كلب « Kembs » من اعمال الالزاس . فقد طرح السيد كايو « Caillau » على اصحاب ذلك المشروع الاسئلة التالية : بماذا تقدرتون نفقات هذا المشروع الذي تقومون به ؟ ... بمئة وخمسين مليوناً تدفع منها الدولة سبعين والباقي اسهم وسندات ! ما هي المنطقة التي سيتناولها تنويركم ؟ - حتى تروا « Troyes » ست او سبع ولايات - ان في هذه الولايات مشروعات كهربائية سيفضي عملكم الى اقفالها ! وما هو عدد العمال الذين يستوعبهم مشروعكم ؟ مئة وخمسة وعشرين عاملاً - ان ثمت الفاً ومائتي عامل فانكم ستلقون منهم الفاً وخمس وتسعين عاملاً ؟ وهل يكون سعر تياركم الكهربائي ولو على الاقل ارخص من السعر الحالي ؟ هذا بما لا نستطيعه .

هذا النموذج من نماذج انشاء المحال التجارية الذي قضى على الف عامل والقاهم في احضان البطالة من دون ان يحقق اية فائدة للمستهلك ! فيا له من تطور وتقدم !

وما هو مصير العمال اذا ظل كبار رجال الصناعات يتفانون في التسابق والتزاحم بواسطة الآليات التي يزداد اتقانها يوماً فيوماً بتفوق احدهم على منافسه وبالقضاء على مصنعه بواسطة استخدام الطريقة الميكانيكية الفلانية او الفلانية ليقضي في الوقت نفسه وفجأة على ثلاثة او اربعة عمال او على تسعة من عشرة منهم او اكثر ! ؟

ومهما يكن من امر فان الآليات اصبحت امراً واقعياً وان التطاحن في التزاحم لا ينفك عن ان يدفع بصاحب العمل الى استخدامها حتى اذا ظل اتقانها آخذاً بتقدمه اصبح لا يفتقر ارباب المصانع الا الى عدد قليل من العمال لانتاج ما كانت تنتجه جهرة كبيرة منهم قبل سنوات قليلة .

ولا يعنى ارباب الصناعات ابداً بمسؤولياتهم الاجتماعية فلذلك لا يترددون ايما تردد عن احداث اي خلل كان في سوق العمل عن طريق الاستغراق في استخدام الآليات من دون اي قيد ولا شرط استخداماً قد يكونون فيه من المسيئين فعلاً الى المصلحة العامة .

وليس السبب الذي حداهم الى التسابق في استخدام الآلة الا لكون النظام الاقتصادي الحر قد جعل محوره المنفعة الشخصية وفتح باب التنافس في التزاحم على مصراعيه من دون اي اعتبار آخر كان ، فهو لا يهتم لحاجات العامل الحيوية ولا لمصلحة المستهلك والمجتمع الحقيقية حتى بات اولو البصائر واصحاب الوجدان الحي ينكرون عليه هذا المفهوم لان الاقتصاد السياسي القديم القائم على قاعدة دع الامور تجري في اعنتها لا يكفي لحل

القضايا الآخذة بالتعقيد يوماً فيوماً ولا تصلح الا ان تكون قاعـدة علم الانتاج والاثراء على حين انه يقوم الى جانب هذه المعضلات المادية ووراءها قضايا قانونية واجتماعية . فثمة الواجب وثمة العدل .

ج - تفضيل الارباح والمنتجات المادية على الحقوق الانسانية

يقوم صاحب رأس المال في يومنا الحالي في حلقة جهنمية مفرغة بعد ان حفره تيار الشؤون التجارية وهي تضغطه ضغطاً لا حدود له فكلما ازدادت ارباحه ازدادت اطعمه اذ انه بدلاً من ان يعمل في سبيل اسداء الخدمة النافعة قد توصل الى ان ينتج في سبيل الانتاج لا اكثر ولا اقل حتى بات البشر في وسط مادية عمياء لا قيمة معها لشيء آخر .

لقد اصبحت المادة المصنوعة تتحكم بصانعها الانسان ، وغدت المنتجات المصنوعة هي التي تخلق الحاجات وصارت المنافسة هي التي تقرر الاجرة ، وصفوة القول ان الشؤون التجارية هي التي تسيطر اصحاب الاعمال حتى اصبح رب المصنع عبداً له لا رئيساً عليه ، ولم يتحقق كمصنع في سبيل خدمة الانسانية فغايتة وهدفه لا يقومان على خدمة الانسان ولنا على تحقيق الارباح وتزويد المصنوعات ليس الا .

وان توزيع العمل بطريقة التسلسل قد ارجع دور الانسان الى ان يكون آلياً وحده من ذكائه بعد ان اصبح اتقان المصنوعات وتزويد المنتجات يحتلان المقام الاول في ابتداع الآلة فالعامل الذي يخرج من المصنع الذي كان يشتغل فيه لا يستطيع ان يأتي عملاً آخر يؤمن له حياته بعد ان ارغم على ان يتقيد بصنع جزء صغير من الآلة التي يخرجها مصنعها فمن كان مختصاً مثلاً بصنع طرف مسار فقط لا يستطيع ان يعرف شيئاً عن جملة الاداة التي يصنع ولذلك قال البابا بيوس الحادي عشر: تخرج المادة مشرقة من المصنع اما الانسان فينحط فيه ويتدنّى «Quadragesimo anno N° 146»

ولقد نشأت الآلة وكان هو مخترعها واما المختبر الذي صنعت فيه فملك الصناعي
الاكبر الاقوى الذي يرمي الى ان يتفوق على سواه تفوقاً لا يبدو له
ممكناً الا عن طريق تحطيم القوى التي تنافسه ... فجميع وسائل نجاحه
تتخذ كلها وجهة واحدة: لتتحول الى الربح لا الى الخدمة .

ولا ريب في ان تصورنا استخدام التقدم الآلي وجعل المكتشفات التي
اوجدها العقل لا تعني الا بالمادة هو تصور « اناني » وتكالب في التهالك على
اجتناء الارباح ولا شيء فيه انساني اجتماعي على حين انه كان بالاستطاعة
استخدام الآليات استخداماً مفيداً بالاستناد الى فكرة اعدل بالنسبة الى
الفرد الانساني اي بالاستناد الى احترام حرية العامل والى انه صاحب نفس
عاقلة فيقوى آنذاك هذا الفرد على بذل معظم قواه العقلية فيتمتدق عمله
ويندفع اليه بكل جوارحه اما الآن فقد اصبحت وظيفته من الوظائف
العريقة في استمرارها وحملته على ان ينظر الى عمله على شاكلة الانسان
الذي يتطلع الى جلاده .

وارباب المصانع وذوو رؤوس الاموال يحاولون غالباً الفوز باكبر كمية
من الانتاج ولا يبحثون عن انتاج اصناف جديدة حتى بات من الضرورة
عدم تقدير اليد العاملة التي بدلاً من ان تقوم صاحبها بعمله مستنداً الى
عقله وحذقه لتحسين ما يصنع، اصبحت مرغماً على الاسراع فيه لينجزه بطريقة
سطحية لا تستلزمه الا اتيان حركات تكاد تكون فطرية فيه من جراء
تعودها لتكون ملكة من ملكاته .

* * *

ثم ضرر آخر وهو ان المصنع بدلاً من ان يكون وليد حاجات الامة
اخذ يجهد جهده لابتكار حاجات جديدة كمالية مصطنعة ويحاول بطريقة
الاعلانات المغرية اجتذاب الزبائن لشراء هذه الكماليات .

والتاجر الذي لا يهتم الا لجمع المغنم يتوخى اغراق العالم بكافة بضائعه حتى يأتي يوم يكون فيه التضاحم بينه وبين زملائه على انتاج بضائع واحدة مدعاة الى الافلاس لانهم ارتأوا تشييد مصانع عديدة فلم يتورعوا عن انشاءها وكان انتاجها يفيض كل الفيضان عن حاجات البشر .

وقبل الحرب العالمية الاولى كانت اميركا قد تجهزت لتنتج مليون سيارة اكثر مما يستوجبه الاستهلاك العالمي وان تصنع من الاحذية ثلاثة اضعاف ما كان يقتدر اليه سكانها .

ومتمشياً على قانون العرض والطلب دفع الاستهلاك لقليل المنتجات ارباب المصانع الى المطاحنة بينهم في التضاحم فاستخدموا الاعلانات المشوقة في الدعوة لشراء بضائعهم ورواجها .

وبالنظر الى الازدياد المستمر في اتقان الآليات لا بد للنفقات التي ينبغي ان نتوقعها للاطفال بالاضافة الى ما يستلزمه تشييد المعامل من الاموال ان تبلغ رقماً من المستحيل غالباً تخفيضه بسهولة في اثناء الضائقات الاقتصادية الا على حساب العمال وذلك اذا ما رأوا انفسهم امام افلاس يتهددهم فلا يأبهون الى ما يسمى بالاجر الحيوي اما اذا ما عجز المصنع عن تأمين حياة عماله فيعتمد الى توزيع خسائره على مأجوريه ويشركهم فيها اما الارباح فيوقفها على توسيع دائرة اعماله .

واذا كان دولاب الاعمال سائراً سيره المعتاد فيتعاظم دخل المعامل يوماً عن يوم على عكس ما يجري في عهد الضائقة الاقتصادية لتحمل هذه الارباح الطائفة رجال الصناعة على انشاء فروع جديدة تزيد الاغراق في الانتاج وهكذا دواليك . ارباح ضخمة تفضي الى انشاء مصانع جديدة من طراز جديد لانتاج بضائع جديدة كما اتفق للحريز بعد ظهور النباتي منه فادى ذلك الى اقبال مصانع الحريز القديمة والقضاء على الحريز الطبيعي .

وفي السنين السان قد يتحول المصنع الى منظمة جبارة وذلك بان يحشد لحسابه كل ما يلزمه من المواد الاولية مع ما يقتضي له من وسائل نقل واسباب اخرى يتصرف بها تصرف المالك بملكه .

« فالصناعي الالاماني ستين « STINNES » قد تمكن بخطة محكمة كل الاحكام بترويج اعماله وبفضل الارباح التي جناها في غضون خمسين شهراً . ابان الحرب العالمية الاولى من جراء صنع الذخائر ان يشتري لحسابه مناجم فحم « كوك » وينشئ لنقل موادها الطرقات الحديدية وان يشتري عدة جراند وسفن ويؤسس مصانع الورق لتموين صحفه ويحتكر غابات عديدة لانشاء مراكبه فققتز ثروته التي كانت خمسين مليون مارك سنة ١٩١٤ الى خمسة مليارات فرنك في سنة ١٩٢٤ .

وما وصلت معامل فورد قبل الحرب العالمية الاولى الى ان تخرج يومياً عشرة آلاف سيارة حتى استغنت حكما عن الوف العمال ، وقد جاء في كتابه « حياتي وعلمي » « ان المصنع الجبار لا يستطيع ان يكون انسانياً » . ولما مات كروجه ابن احد اصحاب مصانع الكبريت البسيطة خلف ثروة اكثر من خمسة مليارات .

وعندما كانت السوق الداخلية تستهلك في فرنسا من مئة وخمسين الف سيارة الى مئتي الف في السنة وكانت معامل سيتروين « CITROEN » تخرج ثلاث مئة وخمسين الف سيارة اصدت كراساً صغيراً بمناسبة صنعها طرازاً جديداً من السيارات دعت « صالون » جاء فيه « ان مصانع سيتروين تعول اكثر من ثمانين الف عيلة » وبعد ان تددت صادرات السيارات التي كانت سنة ١٩٢٩ تسعة واربعين الفاً ومائتين وثمانين سيارة الى ٢٦ الف سنة ١٩٣٩ اعلنت هذه الشركة انها اصبحت مرغمة على تصفية اعمالها .

ان المشروعات الكبرى التي تضفي اصحابها بما يلزمها من اعاب ومشقات

تدفع بهم الى الهوس وتحملهم في السنوات السمان على الاغراق في الانتاج اما في غضون الضائقات الاقتصادية فتحرم عمالها اجرتهم العدل اذا لم يجبرهم على البطالة وترغم اصحابها على الافلاس وربما تدفعهم الى الانتحار .

ولئن كان تجمع الثروات في ايدي عدد قليل فلربما كان في اميركا بين ايدي نفر اقل منهم بالاستناد الى ما ذكره ارثور بريسبان « Arthur BRISBANE » وهو احد كبار رجال الصحافة ومن اصحاب الملايين اذ قال : في الولايات المتحدة ثلاثة اشخاص تقدر ثروتهم بخمسة مليارات دولار على حين انه قبل الاغراق في الانتاج قد كان في الولايات المتحدة زهاء الف شخص من اصحاب الملايين وكانت الثروة الكبرى تقدر بمائتين وخمسين مليون دولار اما الآن فتمت ثروتان تبلغان ثمانية اضعاف هذه القيمة وهناك مئات الافراد تبلغ ثروة واحد منهم ٢٥٠ مليوناً اي ان الثلاثة في المئة من الشعب يملكون نصف مجموع ثروة البلاد .

ان هذه القوة المالية التي يتمتع بها فرد واحد تدفعه الى ان يكون ذا نفوذ ومقام لم يكن ليحلم بهما فيستخدمهما في سبيل مصالحه . فقد كان للصناعي ستين « STINNES » الالماني خمسون جريدة يوجه بواسطتها الرأي العام وكان اول من سعى لتخفيض سعر المارك تخفيضاً كبيراً فوراً بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ولئن شاء رجال العصر الماليون استخدام ثرواتهم في سبيل مصلحة المجموع لوجب عليهم ان يكونوا من اولياء الله وكن من نكد الدهر لقد اصبح القديسون اندر من الكبريت الاحمر في يومنا الحالي !

وهاك ما قاله البابا بيوس الحادي عشر في هذا الشأن : « ليس الذي يلفت نظرنا هو تكديس الثروات فحسب ولما استيلاء نفر قليل من الناس على قوة اقتصادية هائلة بيدها الحل والربط قد اودعت فقط في ايديهم ألا

وهم منظمو رأس المال الذين يتصرفون به .

« انها لقوة هائلة ولاسيما لدى الذين يستولون على المال : سادته المطلقين ليتحكموا باقراضه كما يطيب لهم وبحسب مشيئتهم فيكونوا كمن يوزع الدم على الجسم الاقتصادي الذي قبضوا على حياته بأيديهم بشكل لا يستطيع ان يتنفس معه احد من دون ارادتهم »

« ان حصرهم القوة والموارد الطبيعية الميزة الاقتصادية العصرية ليس الا نتيجة طبيعية لمزاحمة لا تعرف هودة ولا حدوداً لكي يظلوا وحدهم وقوفاً لانهم الاشد قوة مما يفيد غالباً انهم هم الذين اشد منافسة لكي لا يعبأوا الا قليلاً بشأن وجدانهم . » يؤدي حصر القوة والثروة الى المكافحة في سبيل الاستيلاء على السلطة الى استخدام ثلاث ذرائع : الكفاح لاحتراز السيطرة الاقتصادية ومن ثم التأثير على السلطة السياسية التي يستغلون مواردها وسلطانها في كفاحهم الاقتصادي وانتقال هذا النزاع الى الميادين الدولي فالدول على اختلافها تحشد ما لديها من قوى وسلطة سياسية اما لخدمة مصالح رعاياها واما لتستظهر بها على حسم خلافاتها السياسية - « Quadrage-simo anno N° 113-116 »

والباباوات بصفة كونهم اصحاب اكبر سلطة ادبية في العالم قد حملوا على ديكتاتورية المال التي اصبحت سيدة البلدان الكبرى في عصرنا الحالي وعلى هذه الاقطاعية الجديدة السائدة لتبلغ ما بلغته من القوة وهي لا قلب لها . وبمنطق شديد اوضح البابا بيوس الحادي عشر كيفية التنظيم المالي المثلى الذي يدب الاضطراب في الحياة الاقتصادية والسياسية والدولية اذ قال : انها مراسيم شكلية لا مفر منها : فبالمال يستاثرون بالصحافة وبالرأي العام وبالمال يؤثرون على سياسة البلاد وبالسياسة على الحياة الدولية ! فما اكثر الحروب التي كانت اسبابها المضاربات المالية !

« وفي مثل هذا المقام ظهرت نتائج الانانية الفردية في الحياة الاقتصادية فتحطمت المنافسة الحرة من تلقاها ، وقامت الديكتاتورية الاقتصادية على انقاض السوق الحرة والتطاحن على المعام قد شغل مركزه فحلت محله اطماع السيطرة الجهنمية فاصبحت جميع الحياة الاقتصادية صعبة كل الصعوبة وقاسية لا تطاق وزد على ذلك البطالة المخوفة الناجمة عن التباين بين الموجبات السياسية والموجبات الاقتصادية ولكي لا نذكر الا اشدها خطورة نقول : ان السلطة قد فقدت حقوقها بعد ان كان من واجبها ان تحكم وقد ترفعت كسلطة عليا من دون اي تمييز كان وفي سبيل المصلحة العامة فقط والعدل فلقد نزلت الى مصاف العبيد واصبحت اداة طيعة بيد جميع الاهواء والمطامع النفعية .

« في حقل العلاقات الدولية ينبثق من المصدر نفسه تياران آخران احدهما العنصرية او بالاحرى الاستعمار الاقتصادي وثانيها الذي لا يقل عن الاول شؤماً وكراهية وهو الدولية او الاستعمار المالي الاسمي القائل اني تكن الثروة فهناك الوطن » « Quadragesimo anno N° 117 »

هذه هي الحلقة الجهنمية المفرغة التي استنكرها البابا بيوس الحادي عشر بقوة وقال في شأنها « ان وجود عدد كبير جداً من العمال الفقراء من جهة وعدد قليل جداً من الجهة الثانية وهم الاثرياء القابضون على ثروات طائلة يدل بوضوح على ايجاد الثروات بكثرة وافرة في عصرنا الصناعي ولكنها موزعة توزيعاً سيئاً ولم تستخدم استخداماً يتناسب وحاجات شتى الطبقات » (Quadragesimo anno N° 67).

ولقد رأينا من خلال استعراض الحالة الراهنة اخطاء النظام الاقتصادي الحر واوضحنا منشأ وافكاره الرئيسية والمظالم التي افضى اليها والمعنا الى نقد اسلوبه وزيف الحرية التي انتسب الى مساهمها الى ما يلزمه من جشع

قد تاصل في مبادئه وكيف يتخذ البشر قاعدة فضلى ليمشوا عليه وذلك من الناحية المادية لا من الناحية الانسانية وديكتاتورية المال وكفى بما يرافقه من المساوي لتقع عليه التبعة الكبرى للضائقة التي يتخبط فيها البشر .

هذا الذي كان في بلاد الناس اما في بلادنا فان الذين كدسوا الاموال واستولوا على الكثير من الاطيان لم تكن ذرائعهم بانبل من ذرائع الرأسماليين الاوروبيين لانه كان يكفي لنيل رضاء السلاطين واكتساب عطفهم ان يكون المنعم عليه من الماهرين في النخاسة ليحقق على نفقة الجمهور اقطاعات كبرى يذل فيها القرويين والفلاحين ويسترقهم ويستخدمهم لقضاء كل شهواته ومآربه .

ولا اقول قولاً ياداً اذا ما تصديت الى اولئك الذين قام نبلمهم على حساب المجموع عندما حاولوا استرواء عمال العثمانيين الذين كانوا غالباً من الذين لا يعرفون للانسانية معنى وكفى بالجزار ان يكون واحداً منهم لندرك ما كان عليه العدل في ذلك العهد المظلم .

فما اكثر الفلاحين الذين تخلوا عن املاكهم لزعيم كي يتفادوا عن الغزوات والضرائب ونكبات الحكومة في تلك الايام ... وما اوفر عدد الذين حاولوا التقرب من عمال العثمانيين آنذاك باحط الذرائع واسفل الوسائل ليقطعهم ارضاً او ينعموا عليهم بوظيفة « حوالي » جاب يتمكنون بواسطتها من انتزاع ملكية الفقراء والاستيلاء عليها . . . حتى كاد يصح بهم قول بريدهوم الماثور « الملكية هي السرقة » .

ولئن امسكت عن ذكر اولئك الذين جعلوا من انفسهم سادة غيرهم فلكي اتفادى عن نبش الداء الدفين الذي تسود له كثير من الوجوه سواء اكانت وجوه اشخاص طبيعيين ام معنويين .

وهل يقوى منكر مهما بلغت به الجرأة على ان يدحض تلك الوقائع ؟

أو هل يستطيع الادعاء بان مرافق البلاد المالية والاقتصادية هي الآن موزعة توزيعاً عادلاً بين افراد الامة ؟ أو ليس في هذا التفاوت القائم بين افراد الامة بالنظر الى ضروب النشاط الاقتصادي ما يحمل على الاعتقاد ان المصالح العامة اصبحت موفوقة على بضعة افراد ليسيظروا عليها سيطرة اوليغارشية ؟

وقد ادلى السيد دالاديه قبيل الحرب الاخيرة بتصريحات في خطاب جاء فيها ان مئتي عيلة في فرنسا تقبض على جميع مرافق البلاد الاقتصادية والمالية وقدم برهاناً على سيادة الاحتكارات بان ضرب مثلاً ماله ان مصرفي باريس وهولاندة عندهما مدراء مشتركون مع ثمانية مصارف وسبع شركات حديدية ومع شركة قناة السويس وخمس شركات تأمين على الحياة وثمانية مشروعات صناعية كبرى اي مع ٣٩ شركة ، ولا اعتقد ان تلك الاوضاع التي تحبظت فيها فرنسا قبل كارثتها تختلف كثيراً عما هي الاوضاع عندنا الآن .

وحسبنا ان نشير الى آفات هذه الاحتكارات ونسك عن ذكر الاسماء والاحصاءات عسى في ذلك تذكرة لقوم يبصرون ليعمل عتلاء الامة على تلافي هذا التفاوت القائم بين طبقاتها درءاً لما قد يسفر عن نتائج ربما كانت اسوأ مما يدور بخلدكم ! مهما بلغ مبلغ تماسكهم وتضامنهم ، وان كان لا يتم امر من الامور الا بارادتهم ووفق رغائبهم !



الفصل الثاني

لم نتورع عن الامساع الى مساوي المنهج الاقتصادي الحرّ القائم ولا حاولنا التحيز لغير الحقيقة فقد اوضحنا المسؤوليات التي تقع على عاتقه وما نجم عن تعليمه من آثار سيئة حتى شجب مبادئه البابا لاوون الثالث عشر ومن ثم خلفه البابا بيوس الحادي عشر ولم يهادنا في بيان اضراره واجفافه وما نتج عنه من مظالم اجتماعية واقتصادية .

فحيال المظالم وضروب الاجحاف والمساوي وليدة النظام الاقتصادي الحرّ أينبغي لنا ان ننحاز الى الاشتراكية ام الى الشيوعية عسانا ان نجد فيها دواءنا الناجع فنخلص من شرور الحرية الاقتصادية ؟

ان معظم الناس يميل الى الاعتقاد انه خير لهم الانحياز الى الاخذ بهذه الفكرة . فما هي الاحلام التي تعمد بتحقيقها الاشتراكية والشيوعية ؟ افليست برقاً خلبا ام هي حقيقة امنيات واقعية تؤول بالانسانية الى النهوض من كبوتها والخلص من آلامها ؟

وربما دهش القارئ اذا ما رأنا لا نفرّق الا بعض التفريق بين الاشتراكية والشيوعية وان اختلفنا اختلافاً بينا في مناحي عدة لان انصار كل منهما لا يروم ابداً التخلي عن استقلاله في العمل بما حمل تروتسكي الزعيم الشيوعي المشهور على القول : لم تبق الاشتراكية تلك الاعتصابات التي كان اصحابها يجتمعون بدون رابطة بل غدت من المنظمات المستقلة التي تسير وراء اهداف معينة لتتذرع بوسائل العنف التي تملبها الثورة « مؤتمر الدولية الثالثة ٧ - ١٩ آب ١٩٢٠ »

ويلوح لنا انه بالاستناد الى هذا القول ان الشيوعية والاشتراكية ينهلان من مصدر واحد ومن البديهي انه اذا ما نظرنا الى الناحية العملية نرى انفسنا حيال كتلتين الاولى كتلة المحافظين وهي التي تستوحي عملها من اخطاء المذهب الاقتصادي الحر والثانية الكتلة الثورية الاشتراكية الشيوعية التي تعتنق الوهم القائل بان الثورة هي العلاج الوحيد الناجع للخلاص من مأزق الحالة الاقتصادية القائمة .

ولئن عرضنا الى المقارنة بين اخطاء المذهب الحر والوهم الاشتراكي الشيوعي لشعرنا فوراً بفكرة المتهج الاول الحسابية التي تنشز عن كل عاطفة وبتحمس المذهب الثاني وبثقة بجودة الطبيعة الانسانية حسنة وثقة بتفاوتان بالنسبة الى اقتناع الانصار كما نشعر ايضاً بما للثورة من قيمة تجددية اي اننا نشعر « بانانية » باثرة المذهب الحر وبغيرية المذهب الاشتراكي الشيوعي الذي يسعى اصحابه الى ان يبعثوا في صدر الجماهير ضرباً من الصوفية يحاكي تلك الاماني التي كان يعلقها الاسرائيليون على مجيء المسيح لينقذهم مما كانوا فيه من ذل واحتقار ويعيد تشييد مملكتهم .

والحقيقة الواقعية ان كلا الحزبين يسعى الى تحقيق هدف طبقته وان ضرب صفحاً عن التصريح بذلك فالاولون يدعون انهم يريدون الدفاع عن النظام والآخرين انهم يتوخون احقاق العدل بيد ان من يحاول الدفاع عن الاحتفاظ بما في النظام القائم من مزايا لا يجد من الوجهة العملية مناصرين على قدر من ينادي بشجب المظالم واستنكار المساوي وضروب الاجحاف ، وفي الواقع ان مبلغ تعلق الطبقات الثرية بالحفاظ على مقتنياتها لا يعدل ابداً مبلغ الآلام التي تنزل بساحة العمال من جراء الجور والظلم .

واذا لم نضع فارقاً بينا بين الشيوعية والاشتراكية فلان كليهما يستمد اساسه من مبدأ المادية الماركسية ويثق كل منهما نفس الثقة بالمنهج الثوري .

ويتناول بحثنا دراسة الاشتراكية والشيوعية على الصورة التالية :

ا - الملحة التاريخية .

ب - ما فيها من مبادئ رئيسية .

ج - النقد .

١ - الملحة التاريخية .

لقد كانت الاشتراكية ردة فعل على المذهب الاقتصادي الذي كان هو ايضاً ردة فعل على النظام التعاوني القديم وعلى النظرية القائلة باطلاق يد الدولة في كل الشؤون الاقتصادية .

ولقد انتقل المجتمع من النظام التعاوني القديم لانه حاول التخلص مما كان فيه من ضغط الحرية الفردية فسعى السعي الحثيث لتهدئته وكان في طبيعته اولئك الهداة القادة الذين قدسوا الحرية الفردية فاعلنوا حرية المنافسة والتزامهم بدون قيد ولا شرط فافضت هذه الحرية الى سلطان رأس المال المطلق « ديكتاتورية رأس المال » .

وفي سبيل ازالة ما في النظام الرأسمالي من ارهاق ومظالم كانت الاشتراكية التي ترتأي اللجوء الى الثورة الاجتماعية لتغيير الحالة الاقتصادية القائمة .

سلطان المال المطلق

لم تنقُض سنة ١٨٤٠ التي ضجّ فيها العمال في كل ارجاء اوروبا وانتقوا على اصحاب رؤوس الاموال حتى كتب جورج ويل (Georges WEILL) مصوراً اوضاعهم سنة ١٨٤٥ فقال : « ما بدأت الثروة العامة تزداد ازدياداً مستمراً حتى اخذ البؤس يزداد في اشتداده فانتشار الاعمال التجارية واتساع المؤسسات المالية وامتداد الخطوط الحديدية قد اوجدت عدداً كبيراً من

الثروات الجديدة الضخمة واوجدت هذه الاقطاعية المالية ، فاصبحت سوق باريس المالية «البورصة» الثانية في اوروبا واخذت رؤوس الاموال بالتكدس يوماً فيوماً في العاصمة الفرنسية فابتلع مصرف فرنسا كل مصارف الولايات وعندما جدّد امتيازها بدون دفع رسوم اضافية سنة ١٨٥٧ افضى ذلك الى ارتفاع اسهمه ارتفاعاً عظيماً وتحولت مؤسسات التسليف وهي مصارف نيفر «Nevers» ومارسيليا «Marseille» وباريس «Paris» الى مؤسسة واحدة ولم يبق من اثنتين واربعين شركة للخطوط الحديدية الا ست شركات شرع بعضها ينافس بعضاً .

وقد كان لبعض رجال المال المشهورين ضلع في كل الشؤون الاقتصادية، وكتب احد الاشتراكيين قائلاً ان عدد الاشخاص الذين كانوا يسيطرون على الشركات الكبرى كان ١٨٣ شخصاً يستولون على عشرين ملياراً من الاسهم والسندات المالية وكانت مراكزهم كمدرء الاعمال تحوّلهم ان يجعلوا مراقبة المساهمين منهم في حيز العدم فكانوا يقبضون على زمام الصحافة اما عن طريق شرائها اما عن طريق ارغام الحكومة على العمل لمصلحتهم لتدعوها بانذارات شبه رسمية الى السكوت عن اضرار مصارفهم. (Histoire du Mouvement social. 1852 à 1910 P. P. 16-17 alean Paris 1911). فازداد تكدس الاموال وازداد نفوذ اصحابها منذ ذلك التاريخ وغدت مراكز «المدرء» لكبريات الشركات موزعة بين عدد قليل من المالكين . وحسبنا ان نقرب صفحات الدليل التجاري السنوي لنقع انظارنا على بعض هذه الاسماء وقد ورد ذكرها على التكرار كمدرء لا كبر المؤسسات التجارية .

وهذه الملاحظات والاساليب التي كانت سائدة في مطلع عهد الرأسمالية التجارية والصناعية قد كانت هي هي تقريباً في العهد العثماني وانما كانت هنا اقطاعية العقارات بينما كانت في اوروبا الاقطاعية المالية .

ولم تكن الذرائع التي توصل فيها الاقطاعيون في المملكة العثمانية الى امتلاك العقارات الواسعة الا من هذا النسيج ولقد كان لا بد من ان يسبق ايجاد النظام الشيوعي الاشتراكي رجال النظريات الذين لم يكونوا قليلي العدد فتضاربت آراؤهم واشتدت مجادلاتهم حتى كان آخرهم كارل ماركس « Karl MARX » الالماني وحتى تطورت مبادئ هذين النظامين تطوراً كبيراً وتبدل برنامجهما مرات عدة تعقدت من جرائهما دراستهما .

وهذه المرونة في التطور قد اوضحها هنري دمان « Henri de MAN » في كتابه « ما وراء الماركسية » وطاب له ان يشبهها بتطور المثالية المسيحية المتبلورة .

وقبله قارن جوراس « JAURES » بين الفكرة التقليدية التي كان يدين بها باريس « BARRES » وفكرة التقدم الاشتراكي وما قاله في هذا الشأن « لقد خص باريس الذين طواهم الزمان اولئك القديسين بضرب من العبادة والورع الجامدين اما نحن ايها السادة فنقدس الماضي بيد ان منهجنا لتكريم الجودود وتمجيدهم لا يقوم على ان ندير وجهنا نحو العصور السالفة لنحلم بسلسلة طويلة من الاوهام فوسيلتنا الحقيقية في احترامهم هي ان نتمم في اتجاه المستقبل عمل تلك القوى الحية التي اشتغلت في الغابر » .

« ان الذين كافحوا في الماضي من اي حزب كانوا والى اي معتقد انتموا وباية عقيدة كانوا يدينون قد كانوا رجالاً يفكرون ويرغبون ويتألمون ويفتشون عن سبيل للخلاص فجميعهم وحتى الذين كانوا في المعارك منهم وان من المحافظين كانوا بحكم الحياة التي لا تقهر قوى حركة واندفاع وتطور اما نحن فنسئل اوفياء لعملهم الماضي كما تظل الانهار امينة لمنبعها في جريها نحو البحار » ايها السادة نحن لا ننفك عن التمسك بالماضي ولما لم يكن من العبث ان سطعت تلك الاجيال بذرياتها ورهجت ، فذلك هي نحن

لأننا نسير ولأننا نكافح في سبيل مثالية جديدة . وتلك هي نحن لأننا ورثة
اثرة الجدود وقد حملنا المشعل اما انتم فلم تحتفظوا لكم الا برفاتهم «خطابه
في الندوة النيابية (٢ كانون الثاني ١٩١١) .

ومن الملحوظ ان الاشتراكية اذا ما وصلت الى الحكم انقلبت الى
حزب حكومي لتطالب ببعض الاصلاحات ولتقلع عن ان تكون نزاعة
الى الثورة .

اما الشيوعية فقد اعتمدت الاساليب الرأسمالية بسبب الصعوبات التي
لاقتها وتلاقيها لتتراجع عن المبادئ الاشتراكية شيئاً فشيئاً .

وقد استطاع غالباً وفي بعض الظروف ان يتظاهر القادة الشيوعيون
بانهم من المغالين في القومية ومن المهادين للاكليريكية وبانهم اشد تسامحاً
بذلك من الاشتراكيين الذين اذا ما وصلوا الى تسنم المناصب الحكومية
بدوا اشد « بورجوازية » من محافظي الاحرار القدماء ، وعلى كل فالتعليم
الشيوعي يعول في جوهره على العنف اكثر مما تعول عليه الاشتراكية وكلا
التعليمين يتصل احدهما بالآخر كتياري نهر واحد ليكونا مجراه ويدفعا
بالجواهر الى الثورة ولقد اقتصرنا على هذه اللمحة التاريخية العجلى بسبب ضيق
المقام ولكي لا نتعدى نطاق البحث الذي اتخذنا على العاتق معالجته .

* * *

ولقد كانت بذور النظريتين الاشتراكية والشيوعية ملحوظة في بعض
مبادئ الثورة الفرنسية « يولد الناس ويظلون احراراً ومتساوين في الحقوق »
(اعلان حقوق الانسان ١٧٩١) .

اجل ان الثورة السياسية قد كانت تمهداً للثورة الاجتماعية لان الاشتراكية
القطرية وجدت من افصح عنها ونفخ في بوقها على صفحات الجرائد كبابوف
« BABEUF » وصحيفة « Le Père DUCHESNE » .

وفي مطلع الربع الاول من القرن الاخير كان سان سيمون « SAINT SIMON » وفوريه « FOURIER » من المبشرين بالاشتراكية الوهمية العاطفية القائلة بتحسين شروط الطبقات الفقيرة باسرع ما يمكن من الوقت .

وحاء بعدهما بريدهون « PROUDHON » (١٨٠٩ - ١٨٦٥) فلم يثق بالمتقنين فطلب من العمال انفسهم ان يأخذوا قضيتهم بيدهم لكي يتسنى لها النجاح اما منهجه فكان ناقصاً ومشوشاً فلم يشاء المناداة بنضال الطبقات لا بالاشتراكية وان اعلن ان الملكية غير مشروعة وقال كلمته المأثورة « الملكية هي السرقة » .

وثم كان انتقاض بلاندي « BLANDI » السياسي واشتراكية الدولة وكانت المصانع القومية مع لويس بلان « LOUIS-BLANC »

وقد تبلورت التعاليم الاشتراكية مع كارل ماركس الالماني واطلق عليها اسم الاشتراكية العلمية (١٨١٨ - ١٨٨٣) واتخذ اسس الدولة من المادية التاريخية : « لقد قررت الاوضاع الاقتصادية من صناعية وتجارية وانتاحية وتبادلية الحضارات والعادات والمنظمات السياسية والمؤسسات الاجتماعية » وبلاستطاعة تلخيص تعليم كارل ماركس كما يلي : « الثورة الاشتراكية ولادة العمل التطوري المحتوم . فرأس المال سائر الى ازدياد التكديس ازدياداً يفضي الى الازمات الاقتصادية واملاق الجماهير ، ومقارنة هذا الادفاع الذي تكابده الاكثرية الساحقة بثروة العدد القليل الضخمة يؤول الى نزاع الطبقات نزاعاً تتفوق الاغلبية فيه ويؤتى فيه النصر للقوة الجماهيرية ذات العدد العظيم على الاثرياء ذوي القوة المالية وتصبح قوى الانتاج وموارده في متناول الجميع وتبيت الاشتراكية حتماً امراً واقعياً » . ويعتبر تعليم كارل ماركس انجيل الاشتراكية .

وفد كان من قادة اصحاب النظريات الشيوعية في فرنسا جورج سوريل « G. SOREL » الذي استمدت الفاشستية الايطالية مبادئها من نظرياته بالنسبة للشهرة التي كان يتمتع بها قبل الحرب العالمية الاولى ولاسيما بعد اصدار كتابه : « خطرات بشأن العنف » « Réflexions sur la violence » الذي غالى فيه بشأن ما تخيله من مفاعيل الاعتصاب العام ليضرم في صدر الجماهير الشعبية حماسة ثورية حقيقية شبهها بجرارة الايمان المسيحي في مطلع عهده وبحماسة جنود نابوليون الحربية ورجال الثورة الفرنسية .

ومن اقواله التي اطرى بها الاعتصايات « بوسع النقابيين ان يحلوا كل الحل » « قضية تكييف نفسية الجماهير » وذلك اذا ما حشدوا كل المنظمات الاشتراكية في مأساة اعتصاب عام ... ومن الواجب ان تتخذ هذا المفهوم كوسيلة مادية عملية ... ومحصل هذه المفاهيم يشتمل على الاشتراكية برمتها » وليست الاضرابات الموضعية الا تدريب على اتيان الثورة لانها تعود الجماهير ترسيخ مفاعيل الاعتصاب العام في اذهانهم وتجعلهم يشعرون بقوتهم وتحطم ما رسخ في الذهن من العادات النفسية التقليدية « فالاضطراب الموضعي الذي نأتيه كتدريب ثوري صريح من ثمرته ان يحدد مصالح جماهير المأجورين وطرق تفكيرهم افضل مما تفعله وقائع الحياة اليومية ... فتتخذ جميع أشكال المتنافسات ميزاتها الواضحة كل الوضوح وذلك اذا ما اقترضنا ان المنازعات « بين العمال وذوي رؤوس الاموال » قد توترت توتراً افضى الى اعلان الاعتصاب العام الذي يفصل الامة فصلاً صريحاً الى معسكرين « سوريل ص ٧٧٣ » « Cité par Martin Saint-Léon »

وسنة ١٨٦٤ اسس كارل ماركس في لندن الدولية الاشتراكية الاولى التي كانت تستوحى نصائحه وارشاداته ووضع بيانه الاول كما يلي : « يجب ان يكون تحرير الطبقة العاملة من صنع يديها ، والهدف الاعظم الذي تخضع

له كواسطة كل حركة سياسية ليس الا تحرير هذه الطبقة اقتصادياً . وجاء هذا البيان بعد ان مهد له بيان ماركس انجلس سنة ١٨٤٨ يشير الى الطريق الواجب نهجها « لا يخسر الكادحون شيئاً سوى احقادهم وانما سيربحون كل شيء فاتحدوا ايها الكادحون في جميع الاقطار » .

ويحل الاشتراكيون « فكرة الطبقة العاملة التي تتشابه مصالحها في جميع ارجاء الارض محل فكرة الوطن ولذلك ينبغي لهذه الفكرة ان تتحقق لاعلانها حرباً شعواء على العدو المشترك الا وهو الرأسمالية » .

ولقد كانت غاية جمعية العمال الدولية « ان تصهر كل الطبقة العاملة الاوربية والاميركية في جيش هائل (انجلس) بيد ان القضاء على كومونة باريس سنة ١٨٧١ قضى على الدولية الاولى اما الدولية الاشتراكية الثانية فولدت في العاصمة الفرنسية واطلقوا عليها اولاً اسم دواية بروكسل لانها اتخذتها مقراً لها حتى كاتب الحرب العالمية الاولى فبذلتها واستؤنف تجديدها سنة ١٩١٩ في امستردام ومن ذلك العهد ما برحت تتعاضم وتزداد حتى كانت تضم في مؤتمر مرسيليا سنة ١٩٢٥ اربع وثلاثين امة .

اما الدولية الثالثة او دولية موسكو الشيوعية فقد انشأها لينين سنة ١٩١٩ ، واذا كان ماركس قد انتقل بالاشتراكية من مفهوم وهمي الى مفهوم علمي فان لينين قد نقلها من المضمار العلمي الى المضمار العملي فحقق على رأس البلاد الروسية الواسعة حلم ماركس بديكتاتورية الكادحين .

وقامت الدولية الجديدة على تعليمي كارل ماركس وانجلس المبشرين بشورة الكادحين ، ومهمتها ان تعمم ديكتاتورية الكادحين الثورية وان تنقذ هذه الحركة مما يخاطبها من العناصر الانتهازية والاشبراكية الوطنية وتوحد جميع القوى للاضطرابات في العالم لتمهد لانتصار الثورة الشيوعية في العالم كله اجمع « البيان الدولي الشيوعي الى عمال العالم بومته » .

وفي سنة ١٩١٧ سار لينين على رأس الثورة الروسية فاعلن الغاء الاملاك الخاصة وامم جميع الصناعات والاراضي واستولت الدولة عليها ونفذ تنفيذاً حرفياً برنالهج ماركس المثالي وجعل العمل عسكرياً .

وبما قاله تروتسكي آنذاك « كل عامل هو جندي عمله فلا يحق له التصرف بنفسه واذا ما تلقى امرأً بنقله من مركزه عليه ان ينصاع اما اذا تمرد فاعتبر كفراري من الجيش وانزلت به العقوبة » .

ولما توصل لينين الى تبوأ كرسي الحكم بسبب انهزام جيوش القيصر وبفضل الحرب اقر بالانف ديكتاتورية الكادحين وانشأ لجنة « التشيكا » « Tcheka » وعهد اليها بمكافحة خصوم الثورة التي قدر عدد ضحاياها بـ ١٧٥٠٠٠٠٠ نفس .

ومنذ ذلك العهد ما برحت تتطور التوجيهات الاولى « فعقب ثورة اذار سنة ١٩٢١ عندما رفض الفلاحون تسليم محصولاتهم لتموين الموظفين والجيش » تراجعت السياسة الشيوعية تراجعاً ستوايجياً لتدشن السياسة الاقتصادية الجديدة ففوضاً من مصادرة المحصولات افروا الضرائب العينية واستنجدوا برؤوس الاموال الاجنبية لاستثمار ثروات البلاد الطبيعية واطلقت حرية التعاونيات .

ولقد مات لينين سنة ١٩٢٤ فاحتفلوا بدفنه احتفالاً رسمياً مهيباً وتولى مكانه جوزف دجوغا شقيلي من جورجيا واطلق عليه اسم ستالين اي الرجل الحديدي وهو في نظر الشيوعيين رجل الانقلاب الاجتماعي العالمي .

ب - المبادئ الاساسية

ان كلمة اشتراكية تلقي في الذهن فكرة الاشتراك والشيوعية توحى الى النفس معنى حياة الاشتباع - ولقد قال البابا لاوون الثالث عشر في

رسالته الرعائية « Rerum Novarum » « بحث الاشتراكيون الفقراء على بغض اصحاب الاملاك ويدفعونهم الى الحقن عليهم ويزعمون انه من الواجب ازالة كل ملكية خاصة والغاءها لارجاع ما يملكونه الى الاشتياغ العام فتتولى البلديات او الدولة ادارتها ويمنون النفس انهم بتحويل الاملاك هذا التحويل وبتوزيع الثروات على هذه الشاكلة يحققون الرفاهية على السواء بين المواطنين ويأتون بالعلاج الناجع للمساوي القائمة »

وجاء في رسالة البابا بيوس الحادي عشر الرعائية « Quadragesimo anno » « لتعليم الشيوعية وعملها هدف مزدوج تسير وراءه ... على وضع النهار وجميع الذرائع وحتى باشدها عنفاً : كنزاع الطبقات والغاء الملكية الخاصة الغاء كاملاً ، وفي سبيل بلوغ امنيتها هذه لا تستنكف عن استخدام اية ذرية كانت كي لا تحترق امراً ، فحيثما تسلمت السلطة اظهرت قموة بربرية بصورة يصعب علينا ان نتصورها لغرابتها كما تنبىء بذلك المذابيح واعمال التهديم التي كدستها في البلدان الشرقية الاوربية الكبيرة واسيا فهي خصم الكنيسة المقدسة - وعدوة الله اللدود . ويا له من باعث على الاسف ! ان كل شيء يبرهن على ذلك جلياً كما يعرفه الجميع كل المعرفة »

« رقم ١٢٠ »

والاشتراكية المتشدة وان لم تتخل تماماً عن فكرة النضال الطبقي والغاء الملكية الخاصة لتعتدل بعض الاعتدال بالاستطاعة القول انها لم تلجأ الى اعتدالها هذا والتخفيف من غلوئها في استخدام الذرائع العنيفة الا بعد ان رأت ما كانت نتائج اقرار الشيوعية فلذلك التفتت الى التعاليم التاريخية المسيحية حتى كاد يصح فيها القول انها اصبحت قريبة منها .

ومهما يكن من امر لا نستطيع النكران ان ما تطالب به يشبه شيئاً كبيراً ما يتمنى تحقيقه الذين يودون اصلاح المجتمع وفق المبادئ .

المسيحية .

« اذا عدل النضال الطبقي عن اللجوء الى الاعمال العدوانية وتبادل الحقد والبغضاء ليتحول الى بحث المصالح ومناقشتها مناقشة مشروعة سعيًا الى اقرار العدل فانه يستطيع - وان لم يحقق السلام الاجتماعي المنشود الذي نتمناه جميعاً - ان يكون نقطة الانطلاق للوصول الى تعاون الحرف تعاوناً متبادلاً - فالحرب الشعواء التي شنت على الملكية الخاصة قد اخذت باخمود شيئاً فشيئاً لكي تقتصر في النهاية لاعلى ملكية مصادر الانتاج نفسها التي كانت موضوع المهاجمات وانما على بعض مالها من السلطات الكبير الذي انتزعت هذه الملكية من دون اي حق كان واخيلسته ، وعلى هذه الشاكلة ندرك بدون كبير تعب ان فكرات الاشتراكية المعدلة لا تختلف ايما اختلاف عما يروجوه ويتطلبه الذين يسعون الى اصلاح المجتمع على اسس المبادئ المسيحية » « Quadragesimo anno Nos 122-123 »

ولقد حرصنا على الاشارة الى هذه الفقرة الطويلة من براءة البابا بيوس الحادي عشر لنبين لمعتنقي الاشتراكية المعدلة ان ما تنشده هو تقريباً ما تنشده المسيحية والتعاليم الكاثوليكية وانه لا يصح لنا ان نبذ جملة التعاليم الاشتراكية وذلك بالاستناد الى اقوال البابا نفسه .

واننا لن نحجم عن ان نتلخص من الاشتراكية ذات الشكل المشروع ما فيها من افكار رئيسية وان لم يكن الامر سهلاً كما يلوح للقارىء بسبب ما لها من اشكال عديدة ، من اشتراكية تقول بارجاع كل شيء الاشتراك الى القائلة باشتراكية الدولة الى التعاونية فالزراعية . . . اذ يبشر زعيم كل فئة منها بمذهب خاص ويدخل على المبادئ العامة بعض الازاء لكي لا يظل ثمة تعليم ثابت مستقر وانما سنة تطور لتتردي لكل اوضاع لبوسها وتلبس للاحداث التي تعيش في وسطها ما يلائمها .

ومن الملحوظ منذ بضع سنوات ان وصول الاشتراكيين الى الحكم افضى بهم الى انتهاج خطة سياسية عدلت جداً من تعاليمهم فلذلك اختلف الاشتراكيون الانكليز عن اخوانهم الفرنسيين اما الشيوعيون فلهم منهج واحد يتطور في كل الاقطار وفق خطة واحدة اما ما طرأ من تطورات على طراز الحكم في روسيا فكان جهوداً اقتضتها الاوضاع الزمانية وهذا ما يسمونه « انتهاج سياسة علمية »

ولقد اوضح زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي ذلك في قوله التالي : « في سبيل فهم الحزب الشيوعي يجب ان نتخذ نقطة الانطلاق من الواقع اي ان التجمعات تتكيف بتأثير القوى الاجتماعية الزاهنة تكيفاً لا سبيل لصدده فالمجتمع الاقطاعي قد حبل بمجتمع الرأسمالية الجديد وهذا بدوره يحبل بمجتمع جديد الا وهو المجتمع الذي لا طبقات فيه : ان الحلم بمجتمع بدون طبقات تعوض رفاهية المجموع فيه عن اتقسام البشر الى فئتين غنية رافهة وفقيرة مملقة ليحاكي في قدمه قدم الانسانية وقد عاد الى الظهور في القرن التاسع عشر عندما تعاضمت الضائقات الرأسمالية وجسمه البؤس تجسيمياً ماموساً بحجم عظيم لتجعل المقارنة بين املاق بعضهم وثروة البعض الاخر شديدة التباين .

« اما المصلحون الاجتماعيون كسان سيمون « SAINT-SIMON » وفورييه « FOURIER » واوين « OWEN » فلم يكن بمقدورهم ان يدركوا كل الادراك القوى التي كانت تعمل عملها في قلب المجتمع الرأسمالي لانبثاق المجتمع الجديد ، اجل ان حالمهم بالتطور الاجتماعي كان راهناً ولكنهم جهلوا الوسائل العملية التي تجعل هذا الحلم ينتقل الى الواقع ولهذا السبب كانوا في عداد الاشتراكيين الوهميين .

« اما ماركس وانجلس فقد حللا تطور الرأسمالية والنواميس التي تدير

بموجبها فرأينا في انتفاضات سنة ١٨٤٨ و كومونة باريس الاشتراكية العلمية التي جاءت الشيوعية تتممها .

« ان الشيوعية هي التي تناسب مع مقتضيات الظروف القائمة لتغير شكل المجتمع فهي القوى التجديدية التاريخية التي توصلت الى ان تدرك ادراكاً كاملاً قيمة المهمة التي تقع على عاتقها فالحزب الشيوعي هو الحزب السياسي الوحيد الذي يرى السياسة علماً يطبقه كما يطبق المهندس علمه ولذلك يعرف الحزب الشيوعي ان يميز الهدف الاسمى للغد عن اهداف عمل اليوم .

« ومثل الشيوعيين الاسمى هو تحرير المجتمع الجديد السجين في قلب المجتمع الحالي الذي سبقه التطور التاريخي وهو لا ينفك عن مقاومته اما المجتمع الجديد فمن الواجب ان ننظر اليه من الوجوهات الاقتصادية والسياسية الثلاث « . . . وهدف الشيوعيين يقوم على تحويلهم الانسانية ان تحقق بعملها في القوى الاقتصادية التقدم الذي حققوه بعملهم في القوى الطبيعية » وعلى رغم ما يعتور هذه الاقوال من غموض والتباس يخيل لنا اننا نستطيع ان نوجز مبادئها الرئيسية على الصورة التالية :

- ١ - التعويض من الملكية الخاصة بالملكية الاشتراكية .
- ٢ - نضال الطبقات واعداد الثورة الاجتماعية .
- ٣ - المادية الوثنية والخطة المبنية حيال الاديان .
- ٤ - الصوفية الثورية .

١ - التعويض من الملكية الخاصة بالملكية الاشتراكية

يعتبر الاشتراكيون ان الخلل الجوهري في النظام الاقتصادي الحر هو في جعله المصلحة الفردية المحور الذي تدور حوله كل الشؤون ، ويقولون ان الرأسمالين لا بد لهم في سبيل مضاعفة منافعهم الشخصية من ان يندفعوا

في مضار منافسة لا هودة فيها فيحولوا الملكية عن هدفها الاجتماعي وبسيروها تسييراً مناقضاً للمصلحة العامة .

١ - تتفق جميع المذاهب الاشتراكية على شجب التنظيم الاقتصادي القائم لانه يفضي عملياً الى التفاوت بين في توزيع الثروات اذ يجعل من جانب فئة الاغنياء القليلة العدد لتحكرك بما تجعله الثروة في يدها من قوة وسلطان جميع المرافق والموارد ومن الجانب الآخر فئة الفقراء الضعفاء المحرومين حتى الموارد التي تؤمن لهم ضروريات حياتهم .

٢ - يرى الاشتراكيون على اختلاف مبادئهم ان نظام الملكية الخاصة والاجور التي ليست الا من بناته وحرية التنافس هي من اسباب هذا التفاوت والمظالم الاجتماعية الرئيسية .

٣ - يود الاشتراكيون الغاء الملكية الخاصة ليحولوا محلها الملكية المشتركة التي تتولاها الجماعة او الدولة او المقاطعة او الشركة ويرمون الى التعويض من جملة المشروعات الخاصة القائمة او قسم منها بمشروعات اشتراكية تتولى زمامها الدولة او المقاطعة او الشركة .

وصفوة القول ان العداء الذي تظهره الاشتراكية للملكية الخاصة والمشروعات القائمة في سبيل اجتناء الفوائد هو من اظهر ميزاتها لانها تروم احلال الملكية الاشتراكية محل الملكية الخاصة .

وهذه بعض اقوالهم في هذا الباب :

بريدهوم - « الغوا الملكية مع الاحتفاظ بالحق فيها . وبتعديل مبدئها هذا تبدلون كل ما في القوانين وتجثثون اصول الشر من الارض : مؤلفة « ما هي الملكية ؟ » تبدلون الحكومة والاقتصاد ، وعبارته في هذا الشأن « الملكية هي السرقة عبارة مأثورة »

جول كود « Jules Guesde » - « الملكية الفردية لا تستطيع ان تجد لها مبرراً لا عن طريقة وضع اليد ولا عن طريقة العمل » « لقد كانت الملكية ورغبة الانسان ان يكون ملاكاً وما بروت من احد حوافز الانتاج في مجتمع جعلها شرط الرفاهية والاستقلال الوحيد وهو لا ينقلك عن المحافظة على هذا المفهوم : اي انه بدون هذا الشكل لا تحترم المنفعة الخاصة الانتاج ما عدا الذين يرجون ان يصبحوا ملاكين ولديهم الوسائل التي تبلفهم هذه الامنية وهم الاقلية القليلة من البشر ، ولقد دال التاريخ على ان الذي حفز نشاط الانسان هو الملكية وان كانت محصورة بهذه الاقلية بيد ان نشاطها قد كان لاستبعاد المنتجين واستثمارهم اكثر بما كان في سبيل الانتاج نفسه » (التعليم الاشتراكي . ص ٤٣)

كارل ماركس - « يتصل نقد ماركس للحق في الملكية بنظريته بشأن القيمة فالمنتجات المصنوعة تستمد قيمتها فقط من العمل الذي تجسم فيها ولا تستطيع ارباح رأس المال ان تتكوّن من اقتطاع جزء من اجرة العامل . » رابوبورت - « Rapport » - « بسبب ما في نظامنا الاقتصادي من خطأ فادح لا يقرّه عقل وما فيه من أفك لا يقضه رأي سديد تتخبط الانسانية في جحيم اجتماعية حقيقية فالبشر بدلاً من ان يتعاونوا في تشييد البيت المشترك الصالح للسكن لا يهتمون الا بان يفترس بعضهم بعضاً وبان يدس اقدمهم السم للآخر بما يفضي الى تدمير قوة الافراد والمجموع تديراً خفيفاً اما الشيوعية ففي ازالتها سبب النضال والمزاومة نفسها - الملكية الاحتكارية - فانها ستشيد مجتمعاً جديداً قاعدته الاسس المعقولة للتعاون والتبادل والاقتصاد « Précis du Communisme p. 107 »

هنري دمان « Henri de MAN » - « تهدف كل اشتراكية الى ايجاد نظام اخوي عادل او بعبارة اخرى تصبو الى تشييد نظام اجتماعي يكون

فيه الجهد العام في خدمة المصلحة العامة عن طريق الملكية العامة كما يشير الى ذلك مدلول لفظ الاشتراكية « Idée socialiste p, 376 »

وهذا هو لباب الفكرة الاشتراكية الذي لا يحول ولا يتغير في كل مراحل تطورها « هنري دمان » ان تطور الملكية الخاصة الى ملكية مشتركة ضرورة لا يحيد عنها الان مساوي الرأسمالية لا تمكن الاشتراكية من تمهيد الطريق امامها « ولقد بلغ المجتمع الذي نعيش فيه الى هذه الدرجة من تطوره فاصبح بسبب كمية الانتاج لا يستطيع ابداً ان يرمي الى اهداف فردية او طبقية بل عليه ان يتنظم تنظيمًا يخوله تحطيم القواعد القانونية القائمة التي لم تتطور معه كما فعل سنة ١٧٨٩ ليمكن النظام الرأسمالي من النمو . ولهذا السبب تبدو الاشتراكية اليوم كحل وحيد ضروري لوضع حد للامور الراهنة في مدة ربما كانت اقصراً جداً مما كان يتصوره بالامس اولئك الذين لم يقدرُوا تماماً نتائج الحرب والثورة الروسية، فهمتنا الجوهرية التي على تقع عاتقنا نحن الاشتراكيين الذين لم يكن لهم مثل اعلى قريباً تحقيقه - كما قال كارل ماركس - ولا مهمهم باية صورة الا ان يحققوه - ان تستنبط من قلب المجتمع الحالي عناصر المجتمع الجديد المكونة فيه نواته لنعد الطبقة العاملة لمصيرها . فاذا شئنا ان نخل الحماسة للعمل محل شهوة الربح بالنسبة الى الانتاج واجتناب البيروقراطية التي اكل الدهر عليها وشرب وهي لا تعرف غير الجُمول والاعتباطية وان لا يبتلع ربح الرأسمالي ما كان يبتلعه بالامس ينبغي للشعب برمته ان يحني بعقله وقلبه « الانقلاب » الكبير ويشرف عليه ، وليست مهمتنا الا ان نوقظ فيه المعنى الاجتماعي الذي ندعوه بكلمة شريفة جد الشرف « الشعور الطبقي » (SPINASSE) « محاضراته سنة ١٩٣٢ في ٢٤ شباط بالاتحاد الاشتراكي الدولي الشيوعي »

* * *

اننا لتسائل كيف يتم تطور الرأسمالية الى اشتراكية ؟

لا شك في ان المذاهب الاشتراكية يختلف بعضها عن بعض بالنسبة الى ما تجيب به في هذا المقام على المعضلات التي يستوجبها هذا التطور .

١ - على اية مشكلة يجب ازالة الملكية ؟

١ - تقول الشيوعية بالغاء الملكية واجتثاثها من اصولها من دون هوادة .

وجاء في احد بيانات زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي السيد موريس توريز وذلك طبعاً بالنسبة الى مماشاة الظروف الراهنة ما مآله : « لا يريد الشيوعيون مطلقاً الغاء الملكية العقارية والتجارية والصناعية الصغيرة » على حين ان البولشفية تقول انها انتقل ضروري من النظام الرأسمالي الحالي الى النظام الشيوعي .

ب - تميز الاشتراكية طائفتين من الملكيات : ملكية الاستهلاك الضرورية للاحتياجات الشخصية المباشرة والتي ينبغي لها ان تظل ملكية خاصة وملكية ذرائع الانتاج « كالعقارات والمصانع والمناجم والمصارف والخطوط الحديدية والمتاجر الخ » التي يجب ارجاعها اشتراكية وتسليمها الى المجتمع او « النقابة او المقاطعة » .

ج - يرى القائلون باشتراكية الدولة من الافضل الابقاء على الملكية طالما لا تستوجب المصلحة العامة التعويض عنها بالملكية الاشتراكية .

٢ - ومن يستثمر هذه المشروعات ؟ الدولة ام الجمعيات ، فالاشتراكيون والنقابيون يقولون ان جماعات العمال المنظمة هي التي ستولى ادارة المشروعات الرأسمالية القديمة اما التعاونيون فيأملون ان تلغى ويعوض عنها بشركات تعاونية من دون اللجوء الى الثورة ولا الى تجريد الملاكين من املاكهم .

٣ - وماذا يكون دور الدولة فيها ؟ ينبغي الشيوعيون الغاءها تماماً

كعامل اقتصادي او كسلطة سياسية ويود التعاونيون الاستغناء عنها على قدر الامكان اما الاشتراكيون فيريدون استخدامها لقلب المشروعات الرأسمالية الى مشروعات اشتراكية فلن تتعدى وظيفتها في المستقبل وظيفة المدير العام من الوجهة الاقتصادية اما القائلون باشتراكية الدولة فيقولون على السلطة التشريعية لحماية المصالح العامة والدفاع عن الطبقة العاملة وليصلحوا بواسطة الضرائب التفاوت العظيم في الثروات .

وتمت عدد كبير ومن جملتهم رجال بارزون بين الاشتراكيين يحاولون اليوم دفع التهمة عنهم بانهم ينتمون الى اشتراكية الدولة لكي لا يقال فيهم انهم من مثاصري المبادئ الفاشستية ويؤمنون ان مفهوم الجديد للدولة لا صلة له بمفهومها الاوتوقراطي الذي يجعلها السيدة المطلقة .

ومهما يكن من امر اننا لنحار كيف يستطيعون النفاذ عن هذه الشوايب في النظام الجديد وهي التي اخذوها على النظام القديم ؟

ه الاشتراكية تقوم اولا على احلال النظام القائم على المصلحة العامة محل النظام القائم على الربح وثانياً هي تنظيم العمال انفسهم للقيام بالعمل اما اشتراكية الدولة الروسية فلا اعتبرها الا بمثابة مرحلة ربما كانت ضرورية في ظروف معينة فانا اشتراكي اذاً انا خصم اشتراكية الدولة « SPI- NASSE. ibid. p. 228 »

ويتضح لنا بما رأينا ان عدداً قليلاً من الاشتراكيين يقول بالغاء كل ملكية خاصة الغاء كاملاً اما الشعار الرسمي لحطة اتحاد نقابات العمال فيقتصر على طلب تأمين ادوات الانتاج والغاء ملكية الصناعات ذات المنفعة العامة.

٢ - النضال الطبقي واعداد الثورة

في سبيل النظام تحويل الرأسمالي الى نظام اشتراكي لا بد من الثورة التي

يعدّها نضال الطبقات الناجم طبعاً عن مساوي الرأسمالية ما بسبب تضاعفه من تكديس الثروة في أيدي نفر قليل ليختصوا بما يميزهم عن سواهم وبما تقضي الى يؤس الجماهير « بوساً لا تستحقه »

وسنة ١٧٨٩ كانت الثورة البورجوازية على النبلاء اما الثورة الاجتماعية المقبلة فستكون ثورة الطبقات الكادحة على البورجوازية . فالعامل في نظر كارل ماركس هو من كان موضوع الاستثمار فلذلك كان لا بد من قيام نضال الطبقات المشروع ليؤدي حتماً الى جعل الرأسمالية هباء منشوراً .

ويعتبر هنري دملان « Henri de MAN » « ان نضال الطبقات يستمد مبدأه من شعور استثماري مزدوج الاول يأتي عن فقدان التوازن بين حاجات العامل الآخذة بالازدياد وبين ما يفتقر اليه لتأمين احتياجاته والثاني عن خوفه من البطالة ومن دفع اجرة زهيدة له تنسيه بهجة عمله القديم وفرحه »

ويرى لينين ان النزاع الطبقي هو نتيجة محتومة للنظام الرأسمالي وذلك بالاستناد الى تحليل كارل ماركس لنزاع الطبقات وفقاً للمادية التاريخية .
« لقد كان عملي الجديد :

- البرهان على ان نزاع الطبقات لا يرتبط الا بمراحل التطور التاريخي التي قررّها الانتاج .

- يؤول نزاع الطبقات حكماً الى ديكتاتورية "طبقة الكادحين .

- لن تكون هذه الديكتاتورية الا برهة الانتقال الى الغاء الطبقات لانشاء مجتمع بدون طبقات (١)

يفرض نزاع الطبقات بمقاومته سيطرة الطبقة الحاكمة تعليم المساواة

(1) Lénine. Marx, Engels, Marxisme. p. 208 (Bibliothèque Marxiste, aux Editions sociales internationales, 1935).

الكاملة لجميع الناس وادما تصوروا ذلك كان لا بد من العودة الى استئناف النظر في الفكرات التي تدين بالوطن والامة، وكان لا مندوحة عن ان يؤول هذا التصور الى قيام امية العمال في كل الارض لان النزاع الطبقي يكون اولاً لالغاء الراسمالية اذ يشعر عمال المسكونة برمتهم بانهم اشد ابناء بعضهم لبعض بما هم اخوان لاصحاب الرساميل في بلدانهم هؤلاء الاعداء الذين يأكلون اتعابهم ويستثمرونهم ليقولوا ان التعاطي مع المتاجرين بالمدافع ومع الشركات والمصارف الذين يتشوقون الى الثروة الفلانية او الفلانية في احدى نقاط الارض يشطر البشر شطراً اصطناعياً الى كتل ويدفعها الى التحارب تحارباً دورياً « وينظر العمال الى ان الحدود الجغرافية تتغير وفق مستيئة اصحاب الملكيات ولا يعتبرون الا الحدود الاقتصادية التي تفضل بين الطبقتين العدوتين . طبقة العمال وطبقة الراسماليين » مقررات مؤتمر مرسيليا تشرين الاول سنة ١٩٠٨ .

ان النضال الطبقي هو رحلة ضرورية حتى اذا قدر له الفوز اضمحل الراسماليون لكي لا يبقى الا طبقة العمال وحدها وهذا الانقلاب يؤول الى نوحيد الاوطان والقضاء على الحروب « ومما قاله تورين الزعيم الشيوعي المعروف : للشيوعيين هدف اجتماعي اسمى وهو قيام مجتمع لا يعرف التفاوت الاجتماعي ولا يمزقه نضال الطبقات .

« فالمجتمعات المنقسمة الى طبقات حيث الاقلية تستغل الاكثرية وتعيش على ظهرها قد ظهرت لتحل محل الشيوعية التي كانت منذ ازمان سحيفة قدميتها .

ويسعدنا ان نقول بدون اعتباط ان مجتمعنا الراهن ينقسم الى طبقات هي طبقة المملقين الكادحين وطبقة المتوسطين وطبقة الراسماليين ، وفي هذا العهد الراسمالي الاحتكاري تتولى الاقلية الطفيلية الصغيرة كل الصغر استثمار

الأكثوية الكبيرة في البلدان الرأسمالية .

« ففي العهود الغابرة كان تقسيم الامة الى طبقات ضرورة تاريخية بسبب نقصان نمو القوى الانتاجية وافتقارها الى الاعمال المثمرة فأل ذلك الى التفاوت اي الى تقسيم العمل وتقسيم المجتمع الى طبقات .

« واذا كان نمو القوى الانتاجية وتقدم العمل آل الى تقسيم المجتمع الى طبقات يتفاوت بعضها تفاوتاً عميقاً عن بعض فانها قد اعدا في الوقت نفسه زوال هذا التفاوت اليوم لان التاريخ قد استبق النضال الطبقي اذان ازدياد طاقة القوى الانتاجية وتقدم العمل الانساني قد اوجبا - بعد ان جعلنا من الممكن قيام مجتمع بدون طبقات » .

والذي يدل على ان البشر لا يستطيعون الحياة في ظل نظام طبقي ما يقاسونه من آلام بسبب الضائقات الاقتصادية ووحشية الحروب الاستعمارية فلذلك يقتضي ان يقوم مقام نفوذ العمل الحديث نظام اجتماعي جديد لا طبقات فيه .

* * *

ويؤخذ من اقوال تورينز سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي ان الشيوعيين يفهمون بنضال الطبقات انه عمل ونتيجة محتومان لسنة تطور لا مفر منها فلذلك ربما نظلمهم اذا ما اخذنا عليهم انهم يدعون الى حرب اهلية .

وقبل البلوغ الى الثورة المحتومة كما يقولون لا بد من ان يرافق النضال الطبقي اجراءات اليمه فمن الضعف وخور العزيمة ان لا نحاول ابعاد شبح هذه الثورة وان كانت الثورة الاجتماعية تبدو لهم كحرب عادلة ولا يحيد عنها .

وبما قاله بول فور « Paul FAURE » : « ينبغي ان لا نخشى الشيوعية اكثر من خشية الاشتراكية اذا كانت تدل على نفس المفهوم الاجتماعي

وانا اعلم ان الجبناء تخيفهم بعض الكلمات فلفظة الشيوعية توقظ في اذهانهم قصوراً تلتهمها النار ، اجل لا اجعل ابداً ان الثورة الشيوعية والعمالية قد رافقتها احداث مؤلمة ، ولكن هل تركزت الفاشستية بدون عنف ؟ وهل الحروب التي يهيئونها لنا هي نزعات بهجة ؟ الم تجر الاديان نفسها الدماء انهاراً فالحروب الدينية - وما الدين بجوهره الا تعليم محبة واحسان - كانت لها على طول العصور محارقها واضطهاداتها وحروبها « Reformisme inutile »

واذا كان لا مفر من نشوب الثورة الاجتماعية بالاستناد الى ما يقوله التعليم المادي المنطقي فمن الواجب ان نستعجل اندلاعها لانها شرط من شروط التطور المجدي فلا نخش شرها .

« في المجتمع الانساني قوى حية واعني بها القوى المنتجة بعملها وفيه قوى جامدة اي القوانين والعادات التي تقف عقبات كؤود في وجه تقدم العمال وكما ان التقدم لا يتم في الطبيعة الا بالنضال والتطورات الفجائية فكذلك في المجتمع لان التقدم ليس ممكناً الا بواسطة نضال الطبقات والثورة » .

وهذا الشعار يدفع بالشيوعيين والاشتراكيين الى عدم التعويل على الاصلاحات والا يتكلموا على السلطة التشريعية والتنظيم التعاوني لادخال الاصلاحات التي يرون انها ضربة لازمة وانما يعملون شيئاً فشيئاً نحو الثورة ويعولون على العمل المباشر : الاضراب العام والثورة لكي ينزعوا ما في ايدي الطبقة المسيطرة من امتيازات واملاك على اعتبار منهم انها لا مبرر لها .

* * *

هل يجب التأهب للثورة الاجتماعية عن طريق تنظيم النضال الطبقي ؟ ان النقابات هي الاحزاب المعارضة ، وما الاضراب الا نوع من انواع التعبئة المحلية وتدريب من تمارين الطبقة العمالية الكبرى .

« لقد قيل ان الحروب الطويلة اوجدت فكرة الوطن وعززتها وكذلك الاضراب الموضوعي اذا ما تواتر فانه لا ينفك عن اضرار الفكرة الاشتراكية في قلوب طبقة الكادحين ليقوي فيها شعور البطولة والتضحية والاتحاد ويحفظ لهم امالهم بالثورة حية على ساكله ما يتغنون به في انشودتهم الثورية »
« Georges SOREL : Matériaux d'une théorie de prolétariat ».

« هو الكفاح الحاسم - لنوحد جمعنا منذ الغداة .. وستكتسح الاممية الجنس البشري » .

وان ما يعلقونه من امل على توجيه الطبقة العاملة يقوم على النضال الرهيب الناشب بين العمال وقوى ذوي رؤوس الاموال في العالم برمته .
وحسبنا رؤيتهم يتبجحون بانشودة « الحرس القيان » « La jeune garde »
لندرك مدى ما يعلقونه من امال على الثورة الاجتماعية المحتممة :

نحن فرنسا الفتية - شباب المستقبل - قد درجنا في الغصص - لقد اصبحنا نعرف كيف نحيا ونموت - واننا لعاملون في سبيل القضية الصحيحة - لننقذ النوع الانساني - ولا يهنا ان تصبغ دماؤنا بلاط طريقنا - نحن ابناء البؤس وقوة ثورة الغد - سنتقم لامهاتنا - فقد استغلن اللصوص - ونأبى ان نكون فريسة الجوع - فمن يعمل يجب ان يكون لديه خبز - فغداً نستولي على المصانع - فنحن رجال لا كلاب !

اللازمة

اتبهوا

ايها الجلادون والاغنياء والكهنة ويا ايها النهمون

اتبهوا الى شباب الطليعة

فها هوذا الكفاح الحاسم يبتدىء

انه لاثار لجميع الذين ماتوا جوعاً

انها الثورة بضوضائها الصاخبة

وربما اندلعت غداً

هذه هي الصورة التي يتأهبون بها للاضراب العام الاثل الى الثورة والى
الامسية العظمى التي يعقبها انبلاج فجر عهد جديد لينقطع ما يصل بين الاثرياء
والكادحين انقطاعاً مادياً قد سبقه كما يقول سورل انقطاع ادبي ومثالي ،
وهكذا يجب ان تبعث الروح الانتقاضية المقبلة اعداداً للثورة . فروح
الاشتراكية مكنونة في فكرة الاضراب العام « BERTHE, le mouvement
socialiste avril 1904 »

الوثنية المادية وخطتها المبيته ضد الدين

تستمد الشيوعية والاشتراكية مفهومهما حكماً من مادية ماركس
الفلسفية وهو يؤول الى نقض المبادئ الادبية برومتها وهو من حيث جوهره
على طرفي نقيض والاديان اما اذا تلبس احياناً برداء التسامح الديني فما
ذلك منه الا خطة مبيته ، الغاية منها استعجال الزمان للقضاء على كل معتقد .

ويؤخذ من اقوال لينين نفسه ان تعليم كارل ماركس يتصل اتصالاً
وثيقاً بمادية المدرسة الفرنسية الفلسفية للقرن الثامن عشر

« لم تكن فلسفة القرن الثامن عشر الفرنسية ولا سيما المادية الفرنسية
لمناضلة المؤسسات السياسية الراهنة كما كانت لمناضلة الدين واللاهوت فحسب
بل كانتا تنقضان علم ما وراء الطبيعة برومته . « LENINE, Marx, Engels,
Marxime p. 15 »

ويفسر ماركس التاريخ بموجب مفهوم مادي تطوري اذ قال : « يجب
ان نوفق بين العلم والمجتمع . . . بحسب القاعدة المادية . . . فتفسير اساليب
علم خاص وما يمرب عنه احد الفنون والحرف يوضح عمل الانسان حيال
الطبيعة اي حصل انتاج حياته المباشر بالاستناد الى اوضاعه الاجتماعية

ومفاهيمه العقلية المنبثق منها ، فالبشر يدخلون في شؤون محدودة محتومة مستقلة عما لديهم من ارادة بانتاج حياتهم الاجتماعي ، وهذه الشؤون تنسجم مع احدى درجات تطور قواهم الانتاجية المادية لوقت ما . اما جملة هذه الامور المادية فنكوّن بناء المجتمع الاقتصادي : اي القاعدة « الواقعية » التي يشيد عليها شكل البناء الحقوقي والسياسي الاسمي الذي يماشي اشكالا محدودة من الوعي الاجتماعي « لينين الكتاب - المذكور »

ويستند هذا التطور الى المفهوم المادي المنطقي « LENINE » « ينظر ماركس والنجلس الى المادة كجسم ثابت او متحرك يظل مستقراً او متحركاً اي على حالته اذا لم نسه ، ولا شك ان في المادة انفعالا وجموداً وفيها ايضاً قوى تحدد عملها المتناسك كحجمها وخصائصها الاخرى فالقوة المتحركة التي تدفعها الى ان تتسع بدون انقطاع تصطدم بما فيها من ثبات اي بقوة المقاومة لينكوّن من ذلك نضال وتناقض مستمرين فيها ، ولا نعتقد ان هذا النضال مضر بل على العكس فهو شرط الحياة والتقدم » وقال النجلس « الحياة تناقض دائم يقوم وينحل : ومنذ ينقطع تنقطع معه قسمة الموت » « Anti — Dühring, t. I. p. 138 »

ولا يقوم هذا النضال في داخل الكائنات فقط ولكنه موجود بينها ليكون الشرط لتقدم الطبيعة العام وهو لا يتم بصورة مستمرة وانما مفاجأة وبالثورة ، والذي لا شك فيه ان كل تحول مفاجيء قد نضج تدريجياً وشيئاً فشيئاً وانما علينا ان لا نخلط بين كيفية تهيئة كيفية تحوله نفسه ، « M. Prenant » « Biologie et Marxisme, p. 88 » ومن هنا يتضح لنا ان النضال والثورة مستقران في قلب المادة نفسها ، كما يؤخذ من نظريته المادية الجدلية : ان القوة الملازمة للمادة تنشئ تقدماً مستمراً بسبب تحولات مفاجئة لردّها الى منازلة لا مهادنة فيها لجميع قوى المقاومة الداخلية والخارجية

« Ancel, loc, cité p, 21, 22 »

ومادية كارل ماركس تنشئ بجوهرها مفهوماً تاماً للعالم والحياة والمعتقد بسلسلة استقراءاتها المنطقية المتأسكة على هذه الشاكلة، فتعليمه المادي للتاريخ وجدلية المنطقية الجوهرية ينقضان كل تعليم آخر ويقضيان كل حقيقة سامية ويؤولان الى الغاء كل علم ادبي صحيح لان علم الاخلاقيات لا بد له من ان يتطور في رأيه بحسب الظروف الاقتصادية ووقائعها .

والمعتقد الذي يعتبره الشيوعيون عقبة كأداً في وجه تطور المجتمع يدلل على الموقف العدائي الذي اتخذته ماركس حياله ويوضح الخطأ الواجب انتهابها لتدليل هذه العقبة لان كل ما هو قائم قد كان لينتفيح ، وعليه ان يتطور ، اما طبقات المجتمع القائمة فلا قيمة لها الا بالتطور الذي تم فيها، فعليها ان تفسح المجال لتنظيم جديد في سبيل تقدم جديد، وليست ديكتاتورية الكادحين والنظام الجديد الا المرحلة الاولى وطريقاً مؤدية الى نشوء مساوي جديدة ، فاذا توقفت الانسانية عن تطورها ، فذلك معناه موتها اما التساؤل عما اذا كانت الشيوعية هي من مناصري الملكية الخاصة او ضدها ام من مناصري العيلة المستقرة او ضدها ام من مناصري الزواج الحر او ضده فذلك ما لا معنى له، فهي ستحتفظ بالشكل الذي تراه مناسباً للملكية وستقلب الشكل الذي تراه غير ملائم لها وترهف الشعور القومي او انها تبشر بالامية وذلك حسب ما تقتضيه الظروف .

وإن صرفنا النظر عن جميع التقلبات فان الشيوعية لا تنفك عن ان تكون من اشد اعداء الاديان السماوية ومن الدّ خصوم الكنيسة وكل عاطفة دينية لتعتبر ان الكون قد كان اعتباطاً فلا اله موجود وليس من حقائق طبيعية وما من شرائع ثابتة جدير احترامها لانها ترى غاية تحرر الانسانية السامية قائمة في ثورتها الاجتماعية

وحسبنا الاشارة الى بعض فقرات من كتاب جول كود Jules «

GUESDE « الذي اطلق عليه اسم « تعليم القانون الاشتراكي »

س - « من هو الانسان ؟ - ج ان الانسان هو الظاهرة الاخيرة من السلسلة الحيوانية لانه مركب على شاكلة الحيوانات جميعها من حاجات يسعى لسدها شيئاً فشيئاً الى اقصى درجة ممكنة ، ومن شعائره ان يسعى سعياً حثيثاً لاشباعها اشباعاً اكمل وان يضاعفها مضاعفة اكمل . . . لذلك قد ضلّ الذين يريدون التفريق بين هذه الحاجات او جعل بعضها مشروعاً وغيرها غير مشروع . . . وليس ارجاع هذه الحاجات الى ان تكون محدودة بحجة جعل الانسان كاملاً الا اضطهاداً له « الصفحة الاولى »

س - « ما هي غاية الانسان ؟ - ج : ان سعادة كل انسان او مخلوق حيّ قائمة على نسبة القدر الذي يشبع حاجاته اشباعاً اتمّ « الصفحة العاشرة »

س - « هل ثمة حرية ضمير ؟ - ج : كلاً ان حرية الاختيار ليست موجودة ولا تستطيع ان تكون موجودة « الصفحة الثانية عشرة »

س - « ما هي الثقافة ؟ - ج : الثقافة هي تنشئة قوى كل انسان وتوجيهها او اذا شئت القول انها تنشئة جملة قواه العضلية والعصبية وتوجيهها نحو الخير واعني بذلك توجيهها الى ما هو اشدّ نفعاً لكل واحد منهم وللجميع ولا يمكن ان تكون غير ذلك « الصفحة الرابعة والعشرون »

س - « ما هي الملكية ؟ - ج : ليس للملكية الفردية والملكية الاشتراكية نفسها مبررٌ وذلك اذا ما فهمنا بالاشتراكية مجموع البشر في كل الارض في زمان معيّن « الصفحة الثامنة والثلاثون »

اما العيلة فمصيرها للزوال اذا لم تتجدد في شكلها وتكوينها ! وليس

بالاستطاعة البتّ في هذا السؤال بتاً حاسماً . . . اذ من المحتمل وان تجددت ان لا تكون ضرورية الا لزمن ما ، وسيحين حين من الدهر لن يبقى لوجودها مبرّر . . . ومن المحتمل ان ضروب العطف والمحبة التي نحيطها بها وقد عززناها في اتجاه مشترك عن طريق تساوي افرادها في ترادف الفوائد قد تجعلها بدون جدوى . وربما خوّلنا ما يناط بها من مهمات ان نقصر مدة عملها على الام والوالد طوال زمن الرضاع اما العلائق الجنسية بين الرجل والمرأة القائمة على الحب والعطف المتبادلين فقد تصبح طليقة « لتتغير وتتعدد بنسبة الصلات العقلية والاخلاقية بين افراد جنس واحد او جنسين مختلفين »

فهل يغيب عنا بعد ما يعد به المجتمع المقبل : من الغاء العيلة واباحة الحب الطليق ليقوم هذا البناء الاجتماعي الجديد على قواعد اخلاقية قوامها الفردية والعيلة والاجتماعية ، وعلى اساس مادي من دون ان يكون له افق يطل على ما وراء هذه الحياة وعلى الله .

اجل انها لمجموعة قواعد دينية معكوسة تقضي قضاء مبرماً على جميع المبادئ الادبية الطبيعية الدينية .

« نتعننا » البورجوازية « غالباً نحن الشيوعيين باننا ننكر جميع مبادئ علم الاخلاق . . . أفقدرون في اي معنى ننكر مبادئ الاخلاق وعلم الاخلاق نفسه ؟ اننا لننكرهما في معناهما «البورجوازي» الذي يجعل مصدرهما الله ، فجميع هذه المبادئ الاخلاقية المستمدة من مفاهيم بعيدة عن الشؤون الحيوية وعن الانسانية نفسها لا نستطيع الا نكرانها اما المبادئ الاخلاقية التي ندين بها فخاضعة كل الخُضوع لمصلحة الطبقة الكادحة ولما يقتضيه النضال الطبقي . . . فمبادؤنا هذه هي التي يصح استخدامها لتحطيم مجتمع المستثمرين القديم ولحشد كل العمال في سبيل ابداع المجتمع الشيوعي الجديد » .

« ان بين توجيه الخطة الشيوعية المرسومة وبين ما يامر به الدين من وصايا متناقضات لا نشعر غالباً بها فالشيوعي العامل وفق توجيه الحزب لا يستطيع ابداً الاقرار بما تعلمه الاديان اما اذا اراد التوفيق بين خطة حزبه ومعتقداته الديني فينقطع عن كونه شيوعياً » .

ولقد قال لينين : « الدين افيون الشعب ... وضرب من الكحول الذي يغرق فيه العبيد صورتهم الانسانية وما يتطلبونه من حياة جديدة بكرامتهم »
« Œuvres complètes, t. VIII, p. 520 »

« ان ضروب الاوبئة المعدية وانواع العنف وشيت الارجاس والادناس ليخشى شرها اقل مما يخشى شر الفكرة المرفهة في دقتها المحكمة في تقيدها والغامضة كل الغموض الا وهي فكرة الله ، ان الماركسي هو مادي محض وبوصفه مادياً هو عدو ازرق لكل دين » « Cité par le BEZBOJNIK »
septembre 1935 »

وجاء في جريدة البرافدا ٢١ حزيران سنة ١٩٣٥ : « لا مهادنة مع الدين ومع مروجي العقائد الدينية التي لا يستصوبها عقل ومع الاكليريكيين الذين ما فتئوا يلحقون جماهير العمال بسمومهم فالحزب الشيوعي لا يقوى الا على ان يواصل محاربتهم حرباً شعواء .

وجاء في الفقرة الثالثة عشرة من برنامج الحزب : « لا يمكننا ان نكتفي بالقاعدة التي سنتها الديموقراطيات القاضية بفصل الكنيسة عن الدولة » فالحزب يرمي الى تفكيك الصلة التي تربط طبقات المستثمرين بعضها ببعض والى تحطيم الدعاية الدينية المنظمة تحطيماً كاملاً وذلك بان يساهم بتحرير الجماهير العاملة تحريراً حقيقياً من الاوهام الدينية عن طريق تنظيم دعاية ثقافية علمية كبرى تنقض الدين . »

ومن منهاج الكومنتون الدولي الشيوعي : يجب ان تشمل الثورة

الثقافية اعظم الجماهير عدداً وان يحتفظ فيها بمكان خاص لمحاربة افئوس الشعوب الا وهو الدين ، محاربة منهجية ومن دون مهادة .

ونعتقد ان فيما ذكرناه من الاقوال المستقاة من مصادر الشيوعية نفسها كفاية لتحملنا على الحذر من بعض ما نشهده من تسامح ديني ربما يكون صادقاً عند بعضهم اما المتضلعون بالمبادئ الشيوعية فيعتبرونه من خير الحطط المرسومة حيال الكنيسة القديمة التي ينبغي لها ان تموت حتف انفها.

وبما صرح به سبيناس « SPINASSE » في احدي محاضراته : ان بين الاشتراكية والكاثوليكية سدول الماضي فينبغي لنا اذا شئتم ، ان نسقطها الواحد تلو الآخر ، فاننا لم اياس معكم من بلوع هذه الامنية ... ولقد كنت افكر دائماً شخصياً واقول انني لا ارى تناقضاً بين منهج الانتاج الذي ندعوه اشتراكياً وبين الوضع الاجتماعي والنظام الاشتراكي القائم والمعتقد الديني سوى ذلك الماضي بمناضلاته السياسية القديمة وذلك الوضع الاجتماعي السابق حيث كانت الكنيسة تتظاهر غالباً بدغم الحالة الاجتماعية الراهنة فمن الواجب ان نزيل هذا من عقول الناس وان نخفف من غلوائه .

ومؤدى ما نقله جان كوست «Le Bolchevisme» «Jean COSTE» Beuchesne p 240 « للكنيسة في المجتمع » البورجوازي قوة التأثير على الرأي العام بسلطانها الخاص ، فان هذا الامر لم يعد ممكناً بعد ان وصلت البولشفية الى الحكم لان الحقل العام قد استأثرت به وحدها ، ومع الزمن لن يسمح للكنيسة ان تأتي عملاً بصفة كونها وحدة اجتماعية ، وها هي ذي تتراجع شيئاً فشيئاً حيال خصمها البولشفية التي تسعى تدريجياً لتحل محل كنيسة المسيح وتجعلها بدون جدوى وتحتل مقامها »

وفي احد فصول الكتاب الذي وضعه لينين « حول موقف الحزب من الدين » والخطة التي عليه انتهاجها معلقاً على كارل ماركس وانجلس « الصفحة ٢٤٦ » قال : الشيوعية تقوم على الماركسية : الاجتماعية العلمية وقاعدتها الفلسفية هي المادية، وشجب كما شجب انجلس تلك المحاولات التي كان يتظاهر بها المتطرفون اليساريون الثوريون من الاشتراكيين الديموقراطيين لانهم كانوا يريدون ان يدخلوا في برنامج الحزب الاعتراف جهاراً بالاحاد اي باعلان الحرب على الدين .

ومما قاله انجلس بمناسبة بيان لاجئي « كومنة » سنة ١٨٧٤ « والبلانكيين » مشايخي مذهب « بلان » المهاجرين الى « لندن » : ان اعلان الحرب بهذه الصورة على الدين هو من خير الوسائل لتقويته وجعل موته اشد صعوبة « فمن الجهالة حمل الجماهير العاملة في نضالها الطبقي الائن الى تحريضها من نير الدين المرهق على ان يمارسوا عملهم الثوري العنيف ضده »

« فيسمارك نفسه الذي وضع في رأس برنامجه التفريق الديني بدلاً من التقسيم السياسي بنضاله « Kultukampf » لم يثبط عزائم الاكليويكيين الكاثوليك بل شحذها واضر بقضية الثقافة الحقيقية لانه حول انتباه بعض طبقات العمال والديموقراطية عن المهمات الجوهرية التي يشتمل عليها النضال الطبقي الى عدااء الحزب الاكليويكي تحويلاً سطحياً كان من اشد ضروب الافك « البورجوازي » ... وطلب انجلس بالحاف من حزب العمال ان يتفرغ الى تنظيم الكادحين وتثقيفهم متذرعاً بالصبر ليؤدي صنيعهم الى الغاء الدين وذلك بدلاً من ان يزوجوا بانفسهم في مغامرات سياسية ضده « Program-me d'Erfurt 1891 »

وهل يعزب عنا بعد ما في هذه الخطة الصامته من نيات مبيتة حيال الدين وان كانت ناعمة الملس بما تتظاهر به ؟ ومن اقول لينين في هذا

الباب : من الخطأ اعتبار الدين « كشأن خاص » لان الاشتراكية بجوهرها لا دينية وتناقض كل فكرة من افكاره ولا تعتبر اي علم كان من علوم ما وراء الطبيعة العقلية .

« فالماركسية والمادية هما لاديينيتان ويعارضان الدين معارضة مادية لا هوادة فيها كما كان « انسكلوبودي ENCYCLOPÉDISTES » القرن الثامن عشر... اجل من الواجب اعلانها حرباً شعواء عليه فذلك من اول مبادئ كل مادية وماركسية. اما الثانية فلا تقف عند هذا الحد من المبادئ بل تذهب الى ابعد لتقول علينا ان نعرف كيف ينبغي لنا ان نحارب الدين فذلك لا بد ان نفسره للجماهير تفسيراً مادياً ونقنعهم بانه يستمد منشأه من منبع مادي وعلينا ان لا نقصر نضالنا على التبشير المثالي الغامض بل ينبغي لنا خاصة ان نربط هذا النضال بحركة العمال الحسية الرامية الى اجتثاث جذوره الاجتماعية « لقد ابدع الحوف الخالق » « فاحوف تجاه القوة هو اشد حماية من رأس المال » .

وايما استولت الشيوعية على السلطة عمدت الى استخدام جميع الذرائع سواء اكان ذلك من حيث الوجهة الثقافية ام من حيث الوجهة الفنية لمحاربة الاديان ، وقد جاء في مجلة الحياة الفكرية في عددها العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ الصفحة ٣٦٨ تحت عنوان « القضية الدينية والرئيس لازار كارديناس في المكسيك » ما يلي : وضع الرئيس كارديناس نهجاً مدرسياً اطلق عليه اسم « Campagne défanatisatrice » وهو يشتمل على خمسة وستين درساً من واجب المعلم ان يوسعها امام طلابه الصغار بالوسائل الحسية التي تتناسب ومداركهم العقلية : ومنها الدعاية ضد الاديان بالقوة : الكنيسة تستصوب التقسيم الطبقي ، الكنيسة تعاون الارستوقراطية ، الكنيسة تحارب تطور الدولة ونشر التعليم .

وهاك نموذجاً من تلك الدروس التي في معهد تاباسكو «Tabasco» وهو من المعاهد التي تستخدم الطريق الاستدلالية .

— قالت المعلمة لطلابها الصغار — غداً ستؤمنون مدرستكم من دون ان تتناولوا طعام الصباح .

وعندما عاد الطلاب في غداة اليوم الثاني وهم صائمون استولت عليهم الدهشة لما رأوا في صدر — ردهة التدريس صورة المسيح مصلوباً — وما كاد يستقر بهم المقام حتى اصدرت المعلمة امرها قائلة لهم فليركع الاولاد الكاثوليك فاطاع الاطفال — فاستأنفت كلامها وقالت فليطلب كل منكم من يسوع ان يعطيه طعامه وصلوا « ابانا » فنفذ الصغار امرها واردفتم تقول :

— ألم يعطىكم شيئاً — فاجابها الصغار بسذاجتهم : كلا ايها الآنسة !

— كرروا اذن طلبكم فربما لم يسمعكم واتلوا ايضاً « ابانا » .

واستمرت تلقي مسرحيتها هذه الباعثة على الشجى حتى تسرب الشك الى انفس اولئك الاطفال البسطاء .

ولما تيقنت بنجاح مهمتها ترنحت تبهاً وكبراً وتابعت تمثيل روايتها واسمعت الصغار ثناء على الرئيس كاردنياس وختمته بالعبارة التالية : اطلبوا منه ان يعطيكم طعامكم ، وما اتمت كلامها حتى كان الطعام المعداد من ذي قبل عن سابق قصد وتصميم لتستخدمه ذريعة اقناعها في هذه المهزلة ، بين ايدي الصغار . وعلى هذه الصورة تثار الدولة على مناضلتها للدين بحسب خطة مرسومة منظمة باندفاع لا يهادن لتستخدم جميع الذرائع الحديثة من دور السينما الى الصحف والنشرات فالمدارس فجمعيات منكري وجود الخالق ، ولا تستكف عن ان تستعمل سرا اشد ضروب الاضطهاد حياله واذا ما رأيناها تنتهج خطة التسامح فان خطتها لتشتمل على هدف صريح

الا هو تحطيم كل الاديان وبخاصة الكنيسة التي لم يتركوها - كما قالوا - تموت حنف انفها بعد ان تضاءل في نظرهم نفوذها فشدوا النكير عليها وحاولوا ان يعوضوا من مفاهيمها « العقائد والمبادئ الاخلاقية » بصوفية جديدة ، واذا كان الكثيرون من مشايخي الاشتراكية قد انصرفوا عن مناهضة الاكليويكية القديمة كما كانوا في الماضي فان منطق تعليمها المادي لا يستطيع ان يتوخى الا القضاء على الدين قضاءً مبرماً .

٤ - الصوفية

ادرك الاشتراكيون والشيوعيون انه ما من شيء يُطوى الا ليحصل جديد محله فلذلك زعموا انهم قد اعدوا للجماهير صوفية ثورية .

١ - يبعث الشيوعيون في افئدة مناصريهم املاً يكاد يكون سبيل خلاص الانسانية الوحيد ومجملونهم على ان يعلنوها حرباً لا هواودة فيها على مساوي الحالة الراهنة لوضع حد لها وتحقيق سيادة الكادحين وقد جعلوا قانون ايمانهم على الصورة التالية : « اني اؤمن ايماناً وطيداً لا يتزعزع بان المعصية الكبرى والشر العظيم اللذين ينبغي لي ان احاربهما بكل ما اوتيت من قوة هما استثمار الانسان للانسان واستغلال رأس المال للعمل المنتج والاجور لاداب في جعل ملكية الانتاج ملكية مشتركة ليكون لكل فرد الحق فيها .

فايماني الراسخ بان اللجنة هي هنا وليس من نعيم سواها وانا حريص كل الحرص على ايجادها بواسطة مجهودات الطبقة الكادحة المتألدة التي سيقدر لها الظفر عن طريق نضال الطبقات نضالاً لا هواودة ولا مهادنة فيه ليضع حداً للحالة الراهنة ويتوجتها بديكتاتورية رهيبة تسحق سحقاً جميع اعدائها ولن تبقي على احد منهم ، وایماني وطيد ايضاً بان انسان العالم الجديد سيكون

صالحاً بطبيعته التي افسدتها الراسالية القائمة بما انشأته من منظمات ملكت عليه مشاعره ليقول هذا لي وهذا لك .

وبما لا سبيل للريب فيه ان هذا الانسان سيرى ذاته قد تبدلت نفسيته عندما يتأكد ان كل ما يفتقر اليه اصبح مؤمناً فيقلع عن التفكير في السعي وراء اجتناء الارباح وتكديس النقود وعندئذ تتعزز فيه الفضائل الاجتماعية عن طريق تأمين الحبز والسلم والحرية .

« وانا على ثقة بان ذلك العهد لن ينبثق فجرة الا بفضل مجهودات الجماهير الشعبية المنظمة العامة وبفضل المثابرة على مقاومة رأس المال : عدوه الازرق ومقاومة كل ما من شأنه اضعاف شعور الطبقة الكادحة والدعوة الى التعاون مع « البورجوازية » وجميع ما يرمي الى اصلاح آني مسكن... اي بمكافحة جميع هذه الاسباب او الدم الناقع الذي يضعف عزيمة الطبقة المناضلة ويؤخر ميعاد الثورة بنت البؤس والجوع كما قال بريدهوم « Proudhon » فانا احب طبقتي واخلص لها كل الاخلاص واکره كل من لا ينتمي اليها وكل ما يجعلني افكر في الاغنياء وعذوبة العيش ورخائه « بورجوازي » واني اكره على وجه اخص كل ما يزعمونه قوى روحية يقيمونها عقبة في وجه الكفاح لتخفيف وطأة المعارضة كما انني امقت ما يسمونه علم الاخلاق « البورجوازي » والدين « افيمون الشعوب » وانبذ الكهنة... ان هذه الامور هي التي سادها الكي لا تعود ابداً الى الوجود فتسهم الشعب لاطمئن بالاً ولن يساورني ابداً الخوف بعد ذلك فارقد رفدتي الاخيرة في العدم . »

والذي لا مرأ فيه هو ان ايماناً على هذه الشاكلة ودعوة الى صليبية لا تعرف ملاينة يتطلبان من الشيوعي المؤمن جملة استعدادات نفسية كان

خير من حاول تحليلها تحليلًا دقيقًا الاب انسل « Ancel »^(١) .
وبما يؤخذ من الروايات الشيوعية ان نفس المؤمن الشيوعي المقبلة هي
نفس متألمة قد ارهف وعيها ما تعانيه الطبقة العاملة من اوصاب ...
نفس نائرة على الوضع الراهن تضرر الكره لجميع الذين كانوا من المسؤولين
عن قيامه كرهاً صريحاً وغير صريح وهي ترغب مها كلفها الامر في تبديله
فلا تلين لها قناة في مناصبته العدا وتؤمن ايماناً وطيداً بجذوى عملها .

ولما كان هذا الشيوعي الحقيقي بافتقار الى من يعضده ويعلمه ويتولى
زعامته في سبيل الوصول الى الانقلاب المرجو والى ترسيخ العقيدة في صدره
فقد اكتشف له لينين جميع هذه الامور في كتاب رأس المال الذي وضعه
ماركس بعد ان انصرف بكلية الى استنباطها وسار في طليعة الحزب
الشيوعي حتى اذا ما انقضى بعض الوقت على غرس مبادئ المركسية
والتثقيف بها غدا مشايحه ثورياً صحيحاً وذو عقيدة لا تتزعزع تؤمن ايماناً
لا شائبة فيه بكل اقوال ماركس وقد صهرت نفسه صهرًا جعلها ابيسة
كريمة ليوقفها بمرمتها على خدمة الحزب « وهو مخلص للثورة ومالك قياد نفسه
لا يحجم عن اية تضحية كانت ولا يتردد ايماناً ترد عن القيام باعمال
البطولة » راجع الصفحة الرابعة عشرة من كتاب لينين . *Maladie
infantile du Communisme* »

فالمجاهد الشيوعي تملك نفسه فكرة الثورة التحريرية تملكاً تصوفياً
ليحرمها كل شيء في سبيل النجاح قضيته فهي مقيدة بالنظام لتقبل بطيئة خاطر
الخضوع خضوعاً اعمى لانه ضروري، فنفسه قربان وانه وان كان يعلم بانه لن
يتأتى له رؤية الظفر الحاسم فيكفيه التفكير في ان ارباحه ستخدم الطبقة
الكادحة لتصل الى الجنة الارضية وهذا التفكير وحده كاف ليحفظ فيه حماسه .

(1) Ancel, Dogme et morale Communistes p. p. 73 - 75 F. N. C.

ب - يعتقد الاشتراكيون انهم اذا الغوا الملكية الخاصة والسباب السعي وراء الربح الفردي ازالوا السبب الرئيسي في المنازعات والخصومات فلمال في نظرهم المصدر الوحيد لما يسود العالم من تشويش واضطراب ومفاسد ولذلك يقول الاشتراكي المقتنع :

« في اعتقادي ان مجرد الغاء وسائل توفير المال يؤول الى ايجاد مبادئ اخلاقية سامية وانا مقتنع بان الناس سيتوفعون عما هم عليه وسيخلصون من كل ما هو حيواني في طبائعهم يدفعهم الى اتيان اعمال وافعال وتبني منهم حيوي وطرارز معيشه تقوم غالباً على طرفي تقيض مع الاخلاق المناقبة »
« SPINASSE conférence citée p. 232 ».

ولئن تبدلت عادات المفهوم « البورجوازي » العيلية القديم بالاستناد الى الايمان المادي بالتطور التقني المستمر فيعتقد كارل ماركس اننا سنصل الى ايجاد شكل اسمي للعيلة .

« ستخلق الصناعة الكبرى بما تفرضه حتماً باساليب الانتاج المنظمة اجتماعياً خارجاً عن نطاق العيلة على النساء والمراهقين والاحداث من الجنسين قاعدة اقتصادية جديدة لشكل عيلي اسمي ، ومن البديهي ان اعتبارنا لشكل العيلة الجرمانى المسيحي هو شكل لا يقره العقل كمثل اشكالها الرومانية واليونانية والشرقية القديمة التي تؤلف سلسلة ادوار تطور تاريخية متتالية »
« LENINE Karl Marx p. 40 »

ولا يرتاب الاشتراكيون في ان الانسان سيكون اوفر سعادة واشد فضيلة في مجتمعهم الجديد . « ان هدفنا هو انشاء مجتمع يكون البشر فيه ادوات وغاية في آن واحد بحيث يشعر كل عامل شعوراً كاملاً باشتراكه وحرية الكاملتين وتنسجم المتناقضات التي رآها بريدهوم في جميع الاعمال الاقتصادية فتخفف الالة متاعب الانسان من دون ان تخلق البطالة وتعزز

توزيع العمل والثروات من دون ان نزيل ما فيهما من جمال
« SPINASSE, Conférence cite p. 224 »

* * *

ولئن حاولنا على قدر المستطاع ان نسبغ على هذه اللوحة خير مظهر
من مظاهر الاخلاص فثمة امور اخرى لا مندوحة لنا عن التساؤل عنها
اذا ما شئنا ان ندرك ادراكاً اكمل تعليم الشيوعيين والاشتراكيين !
فما هو هذا المجتمع المقبل ؟ ومتى يتم تحقيقه ؟ وكيف يكون ذلك ؟

« الاشتراكية بنت الحوادث نفسها . ولئن سألتهموني عن عملها في
الغد ؟ فاقول لكم انني لا اعرف عنه شيئاً بالضبط ! واذا ما فرضنا انها
ستتبوأ غداً مقاعد الحكم في البلدان الكبرى ذات الحضارة الصناعية فانا
اجهل كل الجهل اذا كان في مقدورنا ان نبذل فوراً طريقة الانتاج او ان
نحقق واحداً في المئة او واحداً من عشرة او ربع البرنامج الاشتراكي .
فنحن سنأخذ الامور كما تكون ، واني لاجسر على القول اننا سنأخذ الافكار
كما هي : ولا ادري مطلقاً اذا كانت ستستمر بعض اشكال النظام القائم
او النظام الراسمالي او بعض اشكال النظام الاقطاعي قائمة وقتاً طويلاً في
نظام اجتماعي اقتصادي جديد كما هي قائمة الان بعد مرور قرن ونصف
القرن على ازدهار النظام الراسمالي : ان الاشتراكية تنبثق من الحوادث »
« SPINASSE, p. 226 »

وان تطور المجتمع المقبل سيعرف التقدم والتراجع .

ولقد اسبغ اشد الاشتراكيين اعتدالا كهنري دمان مثلاً HENRI
« de MAN على ثورتهم مظهراً ادعى الى الطمانينة من المفهوم الجائر الذي
يتصوره معظم الشيوعيين .

« أنا مؤمن بالثورة ؟ نعم أنا مؤمن بها وكما تقدمت في السن كلما شعرت بنفسي ميالا اليها وتضائل ايماني بها !

فانا ثوري لان الانتقال من النظام الرأسمالي الى الاشتراكي لن يكون من دون حرب شعواء بين مبدئين حقوقيين لا سبيل للتوفيق بينها . . . فعلى قدر ما يتأصل في الشعور الثوري اراني ابتعد عن مفهوم ثورة سطحية ابداعية « رومانطيقية » تحاول ان تقحم النشوء عنوة وتقلب مجراه فجأة مع انه لا بد له من الحرية والوقت الكافي . . . ان تغيير العادات لاشد صعوبة من تغيير القوانين ونحن في افتقار عظيم اليه . . . ان التبديل الذي يتطلبه هذا النشوء لا يلائمه العنف الذي لن يفضي فقط الى احداث ردة فعل لدى من يكابده بل الى افساد اخلاق من يتذرع به »
« HENRI de MAN, au-delà du marxisme page 389 »

وقبل الفراغ من هذه اللحة المقتضبة التي تصدينا فيها الى تعليم الاشتراكيين والشيوعيين لا نرى لنا مفرا عن الاماع الى ما يختلف حوله اصحاب نظرياتهم من نقاط .

وقصارى الكلام تنحصر روح المنهج الثوري في نقاط رئيسية اربع وهي التعويض من الملكية الفردية بالملكية المشتركة « الاشتراكية » ونضال الطبقات . واعداد الثورة اعداداً فعلياً والاستناد الى المادية وحدها لتحويل المفهوم الاجتماعي الى مادية وثنية تحل محل الدين فتدعه محتجج خلجته الاخيرة ليموت وفق الخطة المرسومة لموته فتقوم الصوفية التي تثق بصلاح الطبيعة الانسانية وفائدة التطور الاشتراكي مقامه وذلك لاذكاء ايمان المجتمع فيستشعر بعض الاستشعار او الاستشعار كله تقدمه الدائم الذي لا بد منه .

٣ - مواطن الخطأ في النظريتين .

ماذا يسوغ لنا ان نفكر في منهج الاشتراكية الشيوعية الذي اكتسب

عطف قسم كبير من الطبقة العاملة على ما يخيّل لنا؟ فإذا كان هذا المنهج قد بشر طول مئة عام ونيف ببزوغ فجر اقتصاد جديد فهل في مقدوره ان يصلح مساوي النظام الاقتصادي الحر؟ وهل يكون عمله افضل من عمله ام شراً منه؟ والعلاج الذي تصفه «الاشتراكية» ايكون شراً من الداء الذي اسفاه المنهج الحر» وليس هذا الداء الا الانانية» .

ويلوح لنا انه لا يخلوا من الفائدة قبل الشروع ببيان مغالط التعليم الاشتراكي الشيوعي ان نميز بين ما يسمونه الاشتراكية العاطفية والاشتراكية العلمية .

١ - التمييز بين هاتين الاشتراكيتين .

٢ - بيان مغالط التعليم الاشتراكي الشيوعي .

١ - التمييز بين الاشتراكية العاطفية والاشتراكية العلمية

تتناول لفظة اشتراكية من الوجهة الواقعية معاني شتى فهناك الاشتراكية الرسمية التي درسناها بالاستناد الى تعاليم بريدهوم وكارل ماركس وكود وجوارس وهنري دمان وسوريل وسبيناس الخ ... وهي الاشتراكية العلمية المنطقية التي لا تعترف بوجود عيلة ودين ووطن وتقوم مبادئها على إلغاء الملكية الخاصة ونضال الطبقات وثمر الاشتراكية العاطفية التي يتوخى ذووها قيام العدل بين البشر عدلاً خيراً بما هو عليه وقيام مساواة افضل من المساواة الراهنة وان يحب الناس بعضهم بعضاً حباً اتم واوفى .

لا شك في ان العامل العصري الذي مضته مظالم النظام الرأسمالي الواقعية ينظر الى التكوين العالمي نظرة مفعمة بسوء الظن ويعتقد ان قيامه على هذه الشاكلة فاسد لان المكانة التي يحتلها منه قد ارهقه كابوسها وضيق عليه جد الضيق سبل الحياة الراهنة فيتوق من صميم قواذه الى ان يتناول عن

عمله اجراً يكون اشد عدلاً وان يجتزل مقاماً لا يتفاوت الا تفاوتاً قليلاً
عن مقام صاحب العمل ليحيا في وسط يسوده اخاء الاجتماع !

ويغلب على ظننا ان الكثيرين ممن يقولون عن انفسهم انهم اشتراكيون
ويعتقدون في داخلهم ان الاشتراكية تنحصر في هذه المطالب التي اشرنا اليها
ليسوا الا على شاكلة هذا العامل حتى اذا فندنا امامهم الانجيل الماركسي
او تعليم كود استولت عليهم الدهشة واسقط في يدهم .

ولقد جرت عادة القادة الاشتراكيين ان يكتبوا غالباً في دعاياتهم التي
يقومون بها هذا التطرف ولا يظهرون للملاء الا دستوراً موجزاً من
الاصلاحات التي تبدو غالباً في نظر الذين مضهم ظلم النظام القائم كاصلاحات
عادلة فيميلون الى اعتناق مبادئهم ولكنهم ليسوا في الواقع الا اشتراكيين
عاطفيين وهم على صواب في ما ينشدونه من اصلاح .

٢ - نقد التعليم الاشتراكي الشيوعي

على قدر ما نستشعر ما فينا من عطف على مشايبي الاشتراكية العاطفية
فعلي قدر ما نحرص على نبذ الاشتراكية العلمية لان القادة الاشتراكيين
الذين تنبأوا ويتنبأون بانثاق عهد ذهبي جديد لو كان بمقدورهم ان يحققوا
خططهم لكانوا جرواً الانسانية في طريق مأساة دامية اما اذا كانوا شديدي
الرافة بمن خدعتهم الظاهرات البراقة عن حسن نية فلا نستطيع الا ان
ننبذ ضلالهم بصراحة وجراً واذا ماشينا الاشتراكية في انتقاد الرأسمالية
الحررة ومحاولة اصلاح ما فيها من خلل فلا يفيد ذلك اننا نستصوب تعاليمها
لنتني على نتائجها ولا بد لنا من ان نراها تقارص عملها لنخبر النظام الانشائي
الذي تقترح اقامته اما الآن فما برح غامضاً في تعريفه ومن الصعوبة بمكان
ان نتوقع سلفاً صحة دروسها قبل ان نشهد اختبارات الحياة وما تلاقيه في
الكثير من مشروعاتها لتخرج بها من حيز الواقع الى حيز الوهم .

٣ - اقامة الملكية المشتركة مقام الملكية الخاصة

لئن تعرض الاشتراكيون الى انتقاد تصرفات ذوي الاملاك المفعمة بالساوي والجشع والاثرة فلا مندوحة لنا عن الموافقة على تقديمهم اما اذا تعرضوا الى نكران الحق المشروع في الملكية فلا نستطيع ان نجاريهم في هذه الطريق الخاطئة ، فالبابا ليون التاسع قد رفع صوته عالياً بالاحتجاج على هذا التجاوز قائلاً : ان الشيوعية « تأبى على الافراد حق التملك الخاص او تملك وسائل الانتاج بصفة كونها اصل الاملاك الاخرى ولأن الاستيلاء عليها يؤدي الى سيطرة انسان على انسان . فمن الواجب ان يضمحل هذا الضرب من الملكية لانه مصدر الاستعباد الاقتصادي - *Dévin Rédempto* » *ris N°10* . ان الله تعالى قد وهب الانسان الارض ليؤمن بواسطتها حياته ، فالغاية الاولى منها اذاً غاية اجتماعية والارض قد اصبحت ضرورة عقب معصية الانسان وباتت شرطاً من شروط العمل والاقتصاد لا يستغنى عنه ، ومن الوهم الاعتقاد ان الانسان يقوى في ظل نظام اشتراكي على العمل من دون ان يبذر فيه ليهم فقط بالمصلحة العامة ، فهو كما تراه الكنيسة من الناحية الواقعية في افتقار الى حافز الملكية الخاصة ليندفع الى عمله ويحرص عليه اما الاعتقاد ان الانسانية ستصل الى درجة من التقدم في الغيرية تحولها الاستغناء عن هذا الحافز فبدعة بعيدة عن الواقع .

ولا تجهل الكنيسة ان الغاء الحق في الملكية يجر البشرية الى كارثة عمياء لان الانسان الذي لا يرى فائدة له في العمل لا يشتغل الا اقل ما يمكنه ان يشتغل ،

ولئن اجابونا انه لئن يكون من كسلان في المجتمع الجديد وان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون ان يعمل فهل يقيمون كسله بالجوع والقوة ؟ واذا كان الامر كذلك فهل يتجاهلون ان حافز المنفعة الشخصية

هو اخلاقي اكثر من الخوف وضغط الانسان لاجراج المتكاسل من تقاعسه وجوده؟ وهل فاتهم ان الانسان يميل بغريزته الى الراحة والاستمتاع بها اكثر مما يميل الى التوفير والاقتصاد ليعيش يوماً فيوماً بدلاً من ان يسعى الى الادخار؟ وما اشده تذبذباً اذا تحقق انه لن يكون بمقدوره ان يحقق المغامر والارباح لاولاده من بعده اما من اعتقد عكس هذا فما هو الا واهم كل الوهم لانشاء انسانية من بنات الخيال .

واذا ما انتقدنا الرأسمالية فلا نضع النفس في الموقف الذي يتخذه الاشتراكيون والشيوعيون منها لان ماديتهم تجعلهم من ذوي النظر القصير « انهم يأخذون المآخذ على اساليب النظام الرأسمالي الفنية كما لو كانت مآخذ اساسية وكما لو كان التغيير في شكل النظام الاساسي هو الذي يناقض تحرير الانسان على حين ان الذي يبدو لنا هو ان الروح هي التي تبعث الحياة في اسلوب النظام اما مناهجه الفنية فليست الا ظاهرة خارجية ينبغي ازالتها من النطاق الاقتصادي .

« Marc SCHERER, Communistes et Catholique »

ب - اسناد جميع المهيات الاشتراكية الى الدولة واطلاق يدها فيها

تعتقد الاشتراكية اكبر امانها على اصلاحها الدولة الجديدة لا الدولة البورجوازية اي الدولة الجديدة التي تمثل مصالح الامة الكبرى ولم تتضاعف سلطتها الا عن طريق تأميم المشروعات لتخدم المصلحة العامة خدمة فضلى .

ولقد انتقد اوزنام « OZANAM » مفهوم الاشتراكية هذا بقوله : « يجعل مذهب الاشتراكيين الحديث الشر كل شر قائماً في توزيع الخيرات توزيعاً سيئاً ويعتقد الاشتراكيون ان الغاء المنافسة وتنظيمهم العمل تنظيمياً يجعل منه سجناً يعيش العمال ضمنه وان تعليمهم الشعوب ان يتنازلوا عن

حريتهم مقابل تيقنهم من الفوز بالخبز ليعدوهم بالاستمتاع بالذخ هو انقاذ للانسانية
« Origine du socialisme p. 229 »

وبما قاله جول جود « Jules GUESDE » في تعليمه قواعد الاشتراكية :
« ان الدولة التي احتلت مقام العناية الالهية هي التي ستسهر على اوضاع
المواطنين وانعاش حالتهم وهي التي ستحل محل العيلة : « فجو التعاطف
والحب الذي اتسع نطاقه في قلب المجتمع عن طريق تساوي كل فرد منه
بالرفاهية سيجعل العيلة او هذا « المستودع الثاني » الخاص من دون فائدة
فالولد ينحصر الدولة وهي التي تتولى امر تثقيفه » .

او لا نشتم من وراء هذا المفهوم الذي يطلق يد الدولة في كل امر
من امور الحياة رائحة تعبئة عسكرية ؟ والذي لا شك فيه هو ان الاشتراكيين
لا يروقه ان يسمعوا مثل هذا النقد اما اذا ما سمعوه فيقولون فيه انه لا
يصدق الا بحسب الدولة البورجوازية او الفاشية النازية على اننا لا نرى
الذريعة التي تتملص بواسطتها ديكتاتورية الكادحين في قبضها على كل مهام
الحياة من نزع طغيان دولتهم الى الاستيلاء على كل الشؤون والامور .

أو ليس الاتكال على الدولة اتكالاً يجعلها في مكانة العناية الالهية مدعاة
لتعاس المواطن وتكاسله ؟

أو ليس في اطلاق يد الدولة هذا الاطلاق الذي لا يحده قيد لتدخل
في معظم الاحيان في كل شأن من الشؤون تدخلاً بعيداً عن الحكمة تدخلاً ليس من
اختصاصها جريمة ضد الحرية الفردية وحقوق العيلة والتفاني اجتهداً في المهنة ؟
ونظرية اطلاق يد الدولة من دون قيد او شرط. ألا تفضي الى حشد جيش
من الموظفين الفضوليين الذين يعيشون فقط على ظهر الامة ؟ .

والذي لا سبيل للريب فيه هو ان للدولة دوراً مهماً في المجتمع وقد
يكون تدخلها في محله وانما عليها ان تكون لكل الاحزاب وجميع المصالح

على تضاربها والحكم في المصلحة العامة والمدافعة عن الضعفاء على حين ان الدولة الاشتراكية هي مارد يطمو سيله على كل الشؤون وتتجاوز بصلاحياتها الحدود الطبيعية : فذلك لن تغوينا ابداً بجنتها الارضية ولا بمنزلتها التي جعلوها منزلة العناية الالهية !

وان الشيوعية لتضحي في سبيل هذه الدلة المارد حقوق الانسان الطبيعية ومشروعية العيلة واسس النظام الاجتماعي الطبيعية كما قال البابا بيوس الحادي عشر في رسالته الرعائية « Divini Redemptoris n° 10-141 » فضلاً عن هذا ان الشيوعية تجرد الانسان من حريته ، مبدا سلوكه الادبي وتنزع من الشخص الانساني كل ما يكون جدارته ويقف حاجزاً ادبياً في وجه طغيان غرائزه العمياء ولا تعترف للفرد باية حقوق طبيعية كانت خيال المجتمع لكي لا يكون فيها سوى دولاب تابع لنهجها ، كما تقول بمبدا المساواة المطلق في علاقات البشر بعضهم ببعض فتنبذ كل تسلسل في المراتب والدرجات وكل سلطة شرعها الله حتى سلطة الابوين وتعتبر كل امر قائم يقال عنه سلطة او طاعة بين الناس ينبثق من الجماعة كأنها مصدره الوحيد « والشيوعيون برفضهم على الحياة الانسانية كل ميزة قدسية او روحية فان تعليمهم يجعل من الزواج والعيلة منظمة كانت من المتواضع عليها فقط مدنياً وهي ثمرة المنهج الاقتصادي المحتومة ، وبناء على هذا لا يعترفون بوجود رابط زواج له الصفة الحقوقية الادبية لكي لا يتعلق الا برغبة الافراد والجماعة لا غير : ثم يبنذون عدم فسخ الرابط ، ولا تقر الشيوعية ولا سيما باي رابط خاص كان يربط المرأة بالعيلة والمنزل ، اما اعلانها تحرير المرأة فانتراع لها من الحياة العائلية وابعاد لها عن الاعتناء بامر الاطفال لتلقيها في احضان الحياة العامة واعمال الانتاج الاشتراكي على شاكلة الرجل تماماً اما امر الاعتناء بالمنزل والاطفال فتكمله الى المجتمع ، وقصارى القول ان الشيوعية تنتزع من الالباء حق تثقيف ابنائهم لتعتبره خاصاً بالمجتمع وحده ولكي لا

يقوى الوالدون على ممارسته الا باسمه وبالانتداب عنه .

« وما هو المصير المقدر لمجتمع انساني شيد على مثل هذه المبادئ المادية؟ انه لن يكون شيئاً آخر الا مجتمعاً لا تسلسل بالمراتب فيه الا تسلسل المنهج الاقتصادي ولا مهمة له الا تحقيق المنتجات بواسطة العمل الاجماعي اما غايته الوحيدة فالاستمتاع بالخيرات الارضية في جنة » يقدم كل فرد فيها بحسب قواه ويأخذ بحسب حاجاته . وتتعرف الشيوعية للمجتمع بسلطة الحل والربط وباخضاع الافراد لنير العمل الاجتماعي من دون ان تهتم لرفاهيتهم الشخصية ولا لارادتهم نفسها حتى اذا اقتضى الامر تجبرهم بالقوة على العمل من دون السماح لهم بحق التصرف بهوجب النظامين الادبي والحقوقى الا وفق المنهج الاقتصادي المعمول به لكي لا يكون لهما اساس الا القيم الارضية المتقلبة البالية وصفوة القول يزعم الشيوعيون انهم اكتشفوا عهداً جديداً ودشنوا حضارة جديدة منبثقة من التطور الاعمى أي من «انسانية لا اله لها» .

« والخلاصة انه متى يصبح المثل الاعلى الاشتراكي حقيقة واقعية للجميع ولن يعود المجتمع يتعرف ايما تعرف الى تفاوت الطبقات تفقد الدولة السياسية - التي هي اليوم اداة سيطرة بيد الرأسماليين الكادحين - كل مبرر لوجودها » وتتوارى من تلقائهما . وبانتظار حلول هذا العصر الذهبي تعتبر الشيوعية الدولة والسلطة السياسية من اجدى الادوات واكملها لبلوغ اهدافها .

« ايها الاخوة المحترمون : هذا هو الانجيل الجديد الذي تزعمه الشيوعية البولشفية وتبشر به العالم كرسالة سلام وخلاص ! انه لمنهج مفعم بالضلال والفسطة ويناقض العقل كما يناقض الوحي الالهي ، وانه لتعليم هدام للنظام الاجتماعي بسبب كونه يحطم اساساته نفسها ، وهو منهج ينكر

اصل الدولة الحقيقي وطبيعتها وغايتها كما ينكر حقوق الفرد الانساني وجدارته وحرية .

* * *

نزاع الطبقات والاممية

من بواعث الاسف رؤيتنا الاشتراكيين الذين يستنكرون بشدة نشوب الحرب بين الامم يعدّون العدة ويتخذون الالهة لثورة اجتماعية يعلقون عليها كل امالهم مع ان الثورة الاجتماعية ليست الا حربا داخلية مخيفة تفوق ويلاتها ويلات ميادين القتال لان الاخ يذبح فيها اخاه وتقسم العالم الى طائفتين : طائفة الكادحين وطائفة الراسخين لتقوم احدهما على طرفي نقيض من الاخرى .

وبهذه المناسبة لا يخلو من الفائدة ان نذكر الفقرة التي ختم بها السيد جوهر سكرتير حزب العمال الفرنسي العام محاضرتة التي القاها في برلين قبيل الحرب العالمية الاخيرة وكان موضوعها « اننا لا نريد الحرب » .

« ايها الرفاق لقد حانت الساعة لنرفع صوت المستثمرين - اسم مفعول - عالياً وان نقول بلسانهم جهاراً اننا نستنكر القتال معربين بهذا عن رغبتهم وارادتهم . ولنفعل اكثر من هذا ولنشرع باعداد الصفوف تفادياً من اعلان اية حرب كانت فنتدفع بجميع الوسائل التي في ايديهم لنقف في وجه كل حرب عننية . ايها العمال الالمانيون والفرنسيون اجبيوا على صوت ذئاب الاموال الاجش وصراخ ليوث الوطنية الضارين برفع صوتكم عالياً لتقولوا لهم لتسقط الحرب » - Léon Jouhaux, contre la guerre, Bibliothèque du mouvement prolétaire 1913 »

اجل قلما يعترف الماركسيون بالحرب كعادلة ولكنهم يرون الاضراب مشروعاً وعلى شاكلة تجربة تعبئة اجتماعية وفي الواقع ان الاضراب لا يقل

ضرره عن ضرر الحرب التي لا بد لها من شروط دقيقة جد الدقة لتكون مشروعة اما الاضراب في التعليم الاشتراكي الشيوعي فهو الفرصة السانحة لاذكاء نار البغضاء في افئدة الجمهور وتدريب قواه وتنظيم نضاله تنظيمًا حاسمًا ، واذا كان الاشتراكيون والشيوعيون من انصار السلام بين الامم فهم من الرسل المقتنعين بمجدوى الثورة الاجتماعية التي ينبغي لنا ان نفهمها كما عرفها بريدهوم PROUDHOM لبورجوازي سنة ١٨٤٨ : « لا يمكن للثورة الاجتماعية الا ان تؤدي الى كارثة عظيمة تكون نتائجها المباشرة اجداب الارض وسجن المجتمع في قفص القوة واذا قدر لها ان تستمر بعض اسابيع فقط واتفق لها ان امانت جوعاً ثلاثة او اربعة ملايين من البشر عند ذاك تصبح الحكومة من دون مورد والبلاد بلا انتاج وتجارة ؛ وعندما يعرض الجوع بنابه باريس وتحاصرها المقاطعات الاخرى ولا تدفع لها شيئاً ولا تقونها بشيء وعندما يسقط في ايدي العيال ويقضى على معنوياتها من جراء سياسة الندوات وبطالة المصانع وتبحث عن اعاشتها كيفما يتفق لها ان تعيش ، وعندما تحجز الدولة الفضة وحلى المواطنين وتصادرها لترسلها الى مظاهر صك النقود ، وعندما تصبح مصادرة المنازل الوسيلة الوحيدة لتغطية النفقات والاجور وعندما تطوف العصابات الجائعة ارجاء البلاد لتؤلف طوائف السلب والنهب وعندما يهب الفلاح ويعد ببندقيته ليحرس محصوله فيهمل زراعته وعندما يصير اول كديس من الحنطة نهياً مقسماً ويقترحم اول بيت وتنتهك حرمة اول كنيسة ويوقد اول مشعل ويفضّ عرض اول امرأة ويهرق اول دم ويطيّر اول رأس فيسود الارهاب جميع فرنسا عند ذلك فقط تعرفون ما هي الثورة الاجتماعية وستعرف لجنة السلام العامة : اللجنة العليا ذات القلب النحاسي نتائج الثورة التي قيل عنها انها ثورة ديمقراطية واجتماعية عندما تتقلد جمهرة من الناس لم يكبح لها جماح السلاح وقد اسكرها الانتقام والحقد لتحمل الرماح والفؤوس والسيوف المصلّطة والسواطير والمعدات فيعبس وجه البلاد

ويعروها الصمت وتدهام الشرطة منزل العيلة وتسهر على الاراء المشبوهة وتنصت للهمسات والاقوال فتشمسك الدموع في العيون وتعدّ الانفاس ويصبح السكوت عرضة للمراقبة وتنتشر الجاسوسية والوشايات والمصادرات من دون شفقة وتقترض القروض بالقوة اقتراضاً مستمراً وتدنّي قيمة النقد الورقي وتشبّ الحرب الاهلية ويصبح العدو على الحدود عند ذلك يعلم الولاة الغاشمون ما هي الثورة » .

اجل ان نضال الطبقات هذا سيفضي الى حروب اهلية مخيفة والى ارباب حقيقي .

« من المستحيل ان يداس النظام الطبيعي ومبدعه من دون قصاص ولذلك لم تستطع الشيوعية ولن تستطيع تحقيق هدفها حتى ضمن النطاق الاقتصادي المحض ،

وفي الواقع ان الشيوعية قد ساعدت في روسيا على بعث الحياة في الرجال والانظمة بعد ذلك الجمود الطويل الامد وفلزت بواسطة وسائل كانت غالباً بعيدة جد البعد عن التقيد بالدرائع الادبية ،

ولئن صرفنا النظر عن عهد الارهاب فانه ليس بالامكان ان يستغني النظام الاقتصادي عن القواعد الادبية والشعور بالمسؤولية الادبية وهذا ما لا محل له في المنهج المادي الشيوعي » « Divini Redemptoris n° 21 »

ومن العبث ان نؤمن بجدوى القوة ذات السلطان الكلي وبقيمة الثورة لان العنف لا يولد الا العنف ولا ينجم عن الثورات الا ردات الافعال الدائمة فالاصلاح الحقيقي يقوم على تبديل العادات والاخلاق والافئدة وان كانت ثمرته بطيئة لانه اسلم عاقبة واطمن فائدة ولان العنف ليس بافضل لمن يتوسل به من الذي يكابده والمسيحية التي تدين بالحجة لا يتأتى لها ابدأ ان تتفق مع البغضاء وليس في مقدورنا مطلقاً التسليم بهذا النضال الذي

يجندل فيه الاخ اخاه .

« ليس بالامكان انقاذ الانسان بالعنف الذي لا يستند اىما استناد الى العقل ولذلك لا يقوى على ان يتحقق استئناف البنيان الاجتماعي والاعمال الاقتصادية الا عن طريق انضاجها وهما لن يبلغا هدفاً رفيعاً الا اذا اطرحا القوة جانباً لان الطريق الوحيدة الحقيقية لاحقاق التقدم والازدهار هي طريق المحبة والحكمة المنتبئين من مصدر داخلي .

« وان تجربات التاريخ الشيوعية التي لم تعرف ان تجعل المحبة في قلبها قد اخفقت في مهدها .

« فالمحبة هي الطريق الوحيدة للخروج من هذه التجارب والمحبة وحدها بوسعها ان تخلق نظاماً اجتماعياً عادلاً فانا اود ان ارتكز الى المحبة واليها وحدها .

« وليس التحرر القائم على القوة الا صورة كاريكاتورية اما التنظيم الجديد للمجتمع على هذه الشاكلة فيسفر عن طبقة جديدة من المستغلين يستند قيامها الى فكرة منهج ملتوية ، وانهم في سبيل كتمان اثرتهم « انانيتهم » وتحجر قلوبهم اصطنعوا فلسفة لتجريد غيرهم « KAGAWA, Méditations »

وبما ذكره المؤرخ المسعودي عن ثورة الزنج من سنة (٢٥٥ هـ الى ٧٢٠) انهم دوخوا المملكة العباسية اربعة عشر عاماً واربعة اشهر وان الدعي علي بن محمد بن احمد الذي انتسب الى الحسين بن علي بن ابي طالب قد درس حالتهم وبؤسهم واجورهم ونفستهم ورثى لعيشهم على السوق والتمر فمناهم ووعدهم ان يقودهم ويرئسهم ويملكهم الاموال وحلف لهم الايمان الغلاظ الا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الاحسان الا اتى اليهم فالبهم حوله فهزموا الجيوش العباسية فكانت ضحاياهم مما لا يحصى له عدد .

ولما تغلب عليهم الموفق « اخو الخليفة المعتمد على الله » وابنه ابو

العباس « الذي صار فيما بعد خليفة ولقب بالمعتضد » وقتل صاحبهم نكل بهم شر تنكيل وكانت ضحاياه منهم اكثر من ضحاياهم من البيض .
والتاريخ مفعم بمثل هذه العبر ولذلك لا نجراً على الاعتقاد ان الثورة الاجتماعية هي من الوسائل المفيدة لاقرار السلم والعدل في الناس .

اما عهد ما بعد الثورة واما المجتمع الجديد المؤلف من جميع عمال العالم المصهورين في بوتقة وطن واحد فان كان تحقيقها فكرة نبيلة سامية فان صيورتها لن تنطبق ابداً على ما يقوم في خيالهم وانما تحقيقها فسيكون الطغيان نفسه لان افراغ البشر في قالب واحد ليكون واحدهم على شاكلة غيره تماماً فعلى طرفي تقيض من التقدم وذلك لان الله قد خلق العالم متباين الوجه كل التباين مما يستوجب منا البخت عن انسجام يكون اشد مرونة وصحة بين الامم .

ولئن كان الوطن والعرق صنمين شديدي الخطر فلن تكون الانسانية الا على شكل البعل الكنعاني « ملك » الذي كان يتهيج اذا قدمت له الضحايا على مذهبه من شخصيات ابنائه .

وهل من ريب في ان ما فينا من نزعات يسير متدرجاً تدرجاً متسلسلاً اما الوطنية فاذا فهمنا معناها كما ينبغي لنا ان نفهمه فانها من الفضائل التي تعدّ البشر ليخلصوا جميعهم للانسانية .

ج - الحاد المنهج الشيوعي

بما لا غرابة فيه هو ان تكون الشيوعية من خصوم الاديان لان كل ما جئنا به يدلل كل التدليل على انها تشجب المعتقدات الدينية بمرمتها بعد ان اعلنتها حرباً شعواء على كل ما هو الهي :

« انه للمشهد الذي يتمثل امامنا ونراه للمرة الاولى في التاريخ الا وهو

الصراع البارد المقصود الذي اعده الانسان بهارة « ضد كل ما هو الهى »
فالشوعية بطبيعتها لادينية وتعتبر الدين « كافيون الشعب » ، والمبادئ التي
تقول بالحياة بعد الموت تمنع الكادح عن مواصلة تحقيق الجنة السوفياتية في
هذه الارض . « Divini Redemptoris N° 22 »

والذي لا سبيل الى انكاره هو ان مثل الشوعية الزائف للخلاص
لن يعثره التبديل .

« تشتمل شيوعية اليوم على فكرة الخلاصة الخاطئة بصورة اشد وضوحاً
بما كانت عليه في الحركات الماضية الاخرى الشيئية بها ، ومثلها الاعلى
الزائف للعدل والمساواة والاخاء في العمل يهر تعليمها وكل مآتيها بضرب
من الصوفية البعيدة عن السداد وهي تبعث في ذهن الجماهير التي خدعتها
بوعود غرارة بحماسة وعزيمة تثيران جرائم العدوى ولاسيما في مثل الزمان
الذي نعيش فيه اذ سبب توزيع الثروات العالمية توزيعاً سيئاً سيادة البؤس
غير الطبيعي . وتتبعج الشوعية بهذا المثل الاعلى الزائف كما لو كانت
سبباً مبدئياً لبعض النجاح الاقتصادي ، ولئن كان ادعاؤها حقيقياً فان
هذا النجاح تفسره اسباب اخرى كثيرة : كتنعيز الانتاج الصناعي في
بلاد كانت قد حرمته ، وباستثمار الثروات الطبيعية العظيمة وباستخدام
الطرق الوحشية للاجبار على القيام باعمال عظمى بنفقات قليلة « Divini
Redemptoris N° 8 »

اجل ان عقيدة مادية كارل ماركس التطورية التي تعتنقها الشوعية هي
عقيدة خاطئة .

« ان اساس التعليم الذي تخفيه الشوعية احياناً تحت ظاهرات شديدة
المغالطة هو مبادئ المادية الجدلية التاريخية التي بشرها كارل ماركس ، اما
العلماء النظريون البولشفيون فيزعمون انهم وحدهم المختصون بتفسيرها .
ويلقي هذا التعليم في الازهان انه ما من حقيقة فريدة الا المادة

وقواها العمياء وما النبات والحيوان والانسان الا نتيجة من نتائج تطورها والمجتمع الانساني نفسه ليس شيئاً آخر الا ظاهرة هذه المادة او شكلها وهي تتطور بموجب نواميلها وتنزع حتما الى مركب حاسم الا وهو المجتمع من دون طبقات وذلك في اثناء تنازع قواها المستمر .

ان تعليماً على هذه الشاكلة لا محل فيه لفكرة الاله ولا فارق عنده يقوم بين الروح والمادة والنفس الجسد ولا حياة للنفس بعد الموت فعليه لا امل مطلقاً في حياة ثانية .

والشيوعيون المستمسكون بشكل ماديتهم الجدلي يزعمون ان النضال الذي يسير بالعالم نحو مركبه الحاسم بالاستطاعة استعجاله بفضل الجهود الانسانية لذلك يبذلون وسعهم لتشتد المتناقضات القائمة بين مختلف الطبقات اعظم اشتداد فيجعلون من نضال الطبقات وما فيه من بغضاء وتدمير مظهر صليبية في سبيل تقدم الانسانية ، اما جميع القوى التي تعترض قوى العنف المنهاجية هذه فيجب ان تباد مهما كانت طبيعتها كعدو للنوع البشري .
« Divini Redemptoris N° 9 »

واذا ما تظاهرت الاشتراكية في بعض البلدان بانها مهادنة للاكليروس كما صرح افطالها في مؤتمر ارفرت « Erfurt » بان الدين امر خاص فلكي يكتسبوا عطف الكاثوليك والبروتستانت على حين انهم لا يقولون غلواً عن الشيوعية في تأييدهم الحضارة المادية كما يؤخذ من المقدمة التي وطأ بها ادلر ADLER لكتاب منيجر Menger : الدولة الاشتراكية اذ قال :
« الاشتراكية نظرة جديدة الى مصائر الحضارة وتقدير جديد لمعنى الحياة الانسانية عامة وبرمتها ولكل الحياة الفردية في الانسانية » .

وهذا هو المفهوم الذي لا يختلفون عليه . فهل يترك محلاً للدين في قلب الفرد الانساني ؟ وهل بالامكان ان يكون الدين شأنًا خاصاً ؟ وهو الذي ينظم جميع اعمال البشر ! وهل تمت قاعدتان ادبيتان ؟ احدهما للحياة الخاصة والثانية

للحياة العامة ؟

وفي الواقع ان النظرية الماركسية تنافي الدين كل المنافاة وهذا ما لا ينكره كبار اصحاب العقائد الماركسيون وذلك اذا ما تحدثوا باخلاص لعقائدهم !

وما قاله بوبل BOBEL من فوق منصة الندوة الالمانية النيابية : « اما فيما يختص بالدين فنحن لادينيون » .

ومن اقوال هنري هاين Henri HEINE « اننا نترك السماء للملائكة وعصافير الدوري » .

وقد قال السيد ليون بلوم Léon BLUM في الثالث من شهر شباط سنة ١٩٢٥ في مجلس النواب الفرنسي : لقد نصبت الكنيسة نفسها مؤازراً لاشد اشكال الارهاق والظلم وجعلت ذاتها اداة له كما جعلت من نفسها سنداً واداة لاشد الاشكال البالية قدماً في الرجعى السياسية . . . فنحن نسعى لنقبض على زمام السيطرة الروحية . . . وان نخلق شيئاً شبيهاً بالايمان الذي يستند الى العدل الانساني لا الى الوحي الالهي . . . واننا سنجعل من الاشتراكية قاعدة عامة للحياة لتنحكم بجميع افكارنا وافعالنا .

ولئن لم تعزب عنا هذه الاقوال فالبعبارتان كاثوليكي واشتواكي هما على طرفي نقيض احدهما من الثانية . « ولو كانت الاشتراكية على شاكلة جميع المضال تشتمل على شيء من الحقيقة » وهذا ما لم ينكره الاحبار الرومانيون قط « فلا يعني ذلك انها لا تستند الى نظرية في المجتمع خاصة بها لا يمكن لها ان تتفق مع المسيحية الحقنة فلا اشتراكية دينية والاشتراكية المسيحية هما نقيضتان : ولا يستطيع احد ان يكون في الوقت نفسه كاثوليكياً صحيحاً واشتراكياً حقيقياً . « Quadragesimo anno N° 130 »

وهذه الصوفية التي يحاول المجاهدون والمفكرون والقادة الاشتراكيون والشيوعيون غرسها في الصدور لا تستند الى اساس وطيد من اسس علم النفس الصحيحة . وبما يميز المسيحي تميزاً بيناً جداً عن الاشتراكي هو الشعور بالمعصية فالاشتراكي يعتقد نفسه بريئة من المعصية التي يجارها لدى غيره على حين ان المسيحي يستشعر ضعف نفسه وخطئها ويعتبر انه على شاكلة غيره من حيث الشر وانه مسؤول عن مكافحته فيجاربه في غيره بتحفظ ويتوخى اصلاح الانظمة عن طريق اصلاح نفسه التي يود ان تكون صالحة اولاً .

وتستند الاشتراكية والشيوعية استناداً اساسياً الى نظرية روسو « ROUSSEAU » الخاطئة التي مآلها : الانسان صالح بطبيعته غير ان المجتمع قد افسده وما هذا المجتمع في المذهبين الاشتراكي والشيوعي الا المجتمع الرأسمالي .

ويتصور الاشتراكيون والشيوعيون الدين تصوراً خاطئاً ليعتبروه بدعة بورجوازية، الغاية منها الحفاظ على الرجاء في صدور منكودي الحياة وهو رجاؤهم ان يفوزوا بما يعرضهم من بؤسهم في الحياة الثانية ويشجعهم تشجيعاً في غير محله على الصبر حيال مساوي الحياة فيقبلوا بسهولة فقر غيرهم .

ولقد اساءوا غالباً تفسير انجيل مرقس ٧ ويوحنا « فان المساكين هم عندكم كل حين واما انا فلست عندكم في كل حين » وفاتهم ان المسيح لم يشأ ان يضع ناموساً يستمر على مر التاريخ بقوله هذا ليقضي حتماً بوجود المساكين وقيام الاملاق المقرر حتى انتهاء العالم وانما قد اجاب الرسل ولا سيما يهوذا الاسخريوطي الذي كان ينتقد بلوؤم صب المرأة الطيب على اقدام يسوع لتكريمه اذ قال : لم يكن من الافضل ان يوزع ثمن هذا الطيب على المساكين ؟ ان الانجيل برمته مع العهد الجديد ولا سيما رسالة

القديس يعقوب لمفعم تنديداً بمظالم الاغنياء الاشرار ويأمر بالتخفيف عن
المساكين اما تطويب فكرة الفقر فهووجه الى الذين يملكون كثيراً كما هو
موجه الى من يملكون القليل .

لقد فات تخيل الاشتراكيين والشيوعيين مفاد روح الانجيل الذي لم
يطوب الفقر وانما الروح الفقرية التي لا تعريها المغام والارباح ويتملكها
حب التوفير فالانجيل قد طوب الجائعين والمتعطشين للعدل وكان صارماً جد
الصرامة بحق الاغنياء الاشرار .

ولا تقوم فائدة الدين على ان نطل في عيش ضئيل بل على مضاعفة
سعادتنا منذ نطل على هذه الحياة . ولقد علمتنا التجارب والاختبارات عبر
الاجيال والسنين انه مهما فعلنا لتحسين اوضاعنا المادية فاننا لفي اشد
الافتقار الى معونة اديبة والى ما نستعاض به عما نحن معرضون له من آلام
وحرمان في حياتنا القائمة في الحياة الثانية . وانه لمن الفائدة بمكان ان ندلل
على المضار الجسيمة التي ينزلها وجود الاشتراكية بالطبقة العاملة فمروها
من الدين يضاعف احتدام النضال الاجتماعي وبحرم البائس ما يستعاض به
من بأسائه في هذه الارض ويحط حق الانسان في عظمته لانه لو كان كل
امر ينتهي بنهاية حياته لكان الانسان شديد الرغبة في الاستمتاع بجميع
لذائده ، مهما كلفه الامر ، وهذا ما اعرب عنه الاشتراكي بيير لرو
« Pierre LEROUX » بدون غفمة او حجيمة عندما قال : « قديماً كنت
أؤمن بان في السماء الهأ وان علي ان احظى بالجنة وان اخاف الجحيم وقديماً
كان علي الارض مجتمع ولما كنت من افراده فقد كان لي على الاقل
الحق الذي كان لاحد اعضائه وعلي ان اكون مطيعاً من دون ان اكون
منحطاً ولقد كان سيدي يأمرني لا باسم اثره بل بماله علي من حق
فكان مصدر سلطانه الله الذي يسمح بقيام التفاوت على الارض على رجاء

التعويض منه في السماء ، فكانت قواعدا الاخلاقية واحدة وديننا واحد وآمالنا الخالدة نفسها ، وباسم تلك القواعد وذلك الدين كانت الخدمة من نصيبي والامر من اختصاصه ولم يكن انصياعي له الا اطاعة لله وبراً بمن يتولى حمايتي باخلاصي له ، واذا ما رأيتني منحط المقام في المجتمع المدني فكنت اراني اقوم على صعيد المساواة الواحد مع غيري في الجماعة الروحية التي يسمونها الكنيسة ، ولم تكن تلك الكنيسة الا ممراً الى الكنيسة الحقيقية وصورة لها الا وهي الكنيسة السهاوية ، واذا ما رأيتني اتألم فلكي يزداد استحقاقي فاوصائي كانت في سبيل تمتعي بالسعادة الابدية اذ كان في متناولي الصلاة والاسرار والتوبة والاستغفار . ان جميع هذه قد فقدتها مذ علمتوني انه ما من جنة امامي ارجوها وانه ليس من كنيسة وان المسيح دجال فاصبحت لا ادري اذا كان ثمت اله فذلك انا اريد نصيبي من هذه الارض بعد ان ارجعتم كل شيء الى ذهب ومزبلة . اجل لقد انتزعتم مني جنتي في السماء فانا اريدها على هذه الارض ... »

وهل من ريب في ان القضاء على الايمان بالسماء يجعل الانسان متكالباً على اشباع شهواته في هذه الارض ؟ والامر الاكيد الراهن انه من المستحيل ان لا يكون في هذه الحياة آلام وحرمان وتفاوت ومحن شتى فاذا ما تملك الكفر قلب الانسان تركه في غم مستمر لا عزاء له .

واليك الصفحة التي ديجتها يراعة الكاتب الفرنسي الضليع لويس فايو « Louis VEUILLOT » في كتابه « احرار التفكير » لذكرى ابيه : جريمة المجتمع الحديث الكبرى بعلمانيته الرسمية تقوم في حرمانه العليل الوضع خير من يعول عليه في هذه الحياة والمكافأة العدل له عن متاعبه في الحياة الثالثة . ولئن استغنى الغني عن الدين فلندعه وشأنه اذ له بعض ما يتمتع به في هذه الارض على الاقل - اما هذا العامل الذي يشقى

طول ايامه ولا يستطيع الاستفادة بما يروجوه من منافع الثورة الاجتماعية - فاننا نجعله من اشد بائسي الحياة حتى من وجهة النظر الانسانية وحدها ، اذا ما اقتلعتنا جذور الدين من صدره .

وها هي ذي الكلمة الرائعة التي تذكر فيها والده : « مات ابي وله من العمر خمسون عاماً وكان عاملاً بسيطاً من دون مطمح ... وعرف في حياته الزاخرة بالمجهودات والشدائد الف ضائقة ... وفي غضون سنينة الحسين لم يهتم احد بنفسه ... وعندما اشرف على الموت واصبح على ابواب القبر تفكرت في الآلام التي عاناها والعذابات التي قاساها في حياته فتمثلت امامي جميعها وعددت المباهج التي استطاع تذوقها على رغم شأنه الوضيع وتمثل لي ذلك القلب الذي خلق حقيقة الله . وتيقنت ان الافراح البريئة والمسرات الحقة قد حرمه اياها المجتمع ! فيا لها من جريمة لا تغفر . فما كان الا ان تولاني اشراق باعث على الفضة والاسى حملني على ان لا العن العمل والفقر والتعب ولكن الظلم الاجتماعي الشائن والاحاد ، الاحاد الذي سلب وضعاء هذه الارض المكافاة التي شاءت العناية الالهية ربطها . بسوء حظهم فشعرت بانني منبوذ وبسورة غضب تملكني .

نعم لقد بدت منذ تلك الساعة اعلم كيف اقلب رأئي في هذا المجتمع وهذه المدنية وهؤلاء الحكماء الادعياء الذين انكروا الفقير بسبب انكارهم الله واهملوا طبعاً نفسه .

ولا يعني اياها السادة الا ان اوكد لكم قبل ان انهي كلمتي هذه ان محور جميع ما يسود يومنا القائم من بؤس مرده الى انكارهم النفس وما قدر لها من مصاير الخلود . فلنضرع الى العزة الالهية ونتأمل هنيئة في هذا الانسان السر المغلق والعقول المكدوعة في مجتمعاتنا العدة التي يحيل الينا انها لن تعود عن غيها تسمع الكلمة الخالدة « لا يحيا الانسان بالخبز وحده » .

اجل ليس الانسان بالحلقة الاخيرة من السلسلة الحيوانية كما اراده ان يكون جول جود « Jules GUESDE » وان سعادته وغايته لا تقومان على « سد مجموعة حاجاته سداً يزداد اكتمالاً يوماً فيوماً » فهو صاحب نفس خالدة وافقتاره الى غايته التي لا نهاية لها ما يروح يقلق باله ويقض مضجعه ، واذا ما ابينا على الانسان ان لا يكون له دائرة الا دائرته الارضية لكي لا يشرف من منفذ على اللانهاية ووقفنا بمصيره عند حافة قبره فاننا نأبى عليه الايمان بشيء غير الشيء الذي يأكله ويشربه ويشبع منه وما ذلك الا الحط من قيمته والتقليل من جدارته .

ب - الكنيسة الكاثوليكية حيال الشيوعيين

يزعم بعض الناس وينتدب بهم الزعم الى حد الاعتقاد ان الكنيسة الكاثوليكية تضرر للشيوعيين اشد ضروب الحقد وتكن لهم ابشع الوان البغضاء مع ان الامر على العكس من ذلك تماماً لان موقفها منهم قد كان دائماً موسوماً بطابع المحبة لهم ولم يصدم واحداً منهم يحاول البحث عن الحقيقة وانما يهيمها في الدرجة الاولى هداية الجماهير التي اعتورها الضلال فابتعدت عن منقذها الحقيقي .

وليس يخاف على من تتبع موقف الكنيسة تلك المقابلة التاريخية بين قداسة البابا بيوس الحادي عشر والقاصد الرسولي كاردين « Cardijn » في بروكسل وذلك عندما انتدبه الكاردينال مرسية « Mercier » للذهاب الى روما والتحدث الى البابا بشأن انشاء طائفة الشبيبة العاملة الكاثوليكية فما كان من الجبر الروماني الا ان اختلى به في مكتبه وسأله عما يريد فاجاب الاب كاردين « Cardijn » - انقاذ طائفة العمال - فالتفت اليه البابا قائلاً هاك رجل يفاتحني بشأن الفئات المختارة - فاردف البابا بكلمته الماثورة : « هفوة القرن التاسع عشر الكبرى تقوم في خسارة الكنيسة الطبقة العاملة ! »

فالامر مهم ويجدر بك ان تخصص له كل حيائك .

والبراءة الرسولية « Divini Redemptoris » ليست برمتها الا دعوة للكاتوليكين لتأدية رسالتهم حيال الشيوعيين كل في محيطه على ان يتوسلوا بالحكمة والرصانة اللاتقتين .

ومن واجب جميع الكاثوليكين تلبية دعوة رئيس كنيستهم والابتهاال الى الله ليعود الشيوعيون الى حظيرة المسيح ليم سرور ابيهم بهم .

وهاك ما كتبه في هذا الشأن الاسقف غونون GONON في مجلة « الحياة الكاثوليكية » لعددها في الرابع من تموز سنة ١٩٣٦ داعياً الكاثوليك الى عدم مناجزة الشيوعيين العداة فقال : لا تنسوا اننا محبون للبشر وان كنا نبغض الضلال فالكاتوليكيون غير الكاثوليكية التي لا غبار على تعاليمها على حين انه قد يكون من بين المتمتين اليها من غير الصالحين والشيوعية غير الشيوعيين فاذا كنا ننبذ تعاليمها فان الكثيرين من الذين يعتقونها مجهولونها ولا يدركون معناها وهم من ذوي النيات الحسنة والقلب الطيب المستقيمين كما ان بينهم ممن يتألمون »

وكتب الاسقف دوبورج « DUBOURG » في مجلة « سبت » Sept « لعددها الثالث من تموز سنة ١٩٣٦ » يقول « الشيوعيون هم ابناء الله مثلنا ونحن نحضهم محبتنا ونود خلاصهم من الضلال والشر »

وفي المجلة نفسها وفي عددها الحادي والثلاثين من تموز سنة ١٩٣٦ « كتب الكردينال سوهارد « SUHARD » ما مفاده « ليس من المستحب ان يتعاون الكاثوليكيون والشيوعيون بسبب ما يقوم بين تعليميها من اختلاف ومع ذلك يليق بنا ان نميز بين الشيوعي والشيوعية فاذا كانت الكاثوليكيون لا يتساحون بقيام اساليبها فذلك لن يخولهم ابداً ان لا يخلصوا الحب لمشايعها »

والبابا نفسه قد ضرب للكاتوليكين المثل الحي على سدة محبته الرسولية لهم ففي سنة ١٩٢٢ عندما اشتدت المجاعة في روسيا اقدم على عقد اتفاق مع حكومة السوفيات في سبيل التخفيف من بؤس شعبها ولا سيما الاطفال الذين كان الجوع يفتك بهم فتكا فنظم حملة صليبية عالمية لجمع المواد الغذائية واوفد الى روسيا بعثة مؤلفة من ثلاثة عشر كاهناً عهد اليهم القيام بتوزيع الاغذية على الجائعين » المادة ٣ من معاهدة ١٢ اذار ١٩٢٢ بين الكرسي الرسولي وحكومة السوفيات »

وقد اضطرت تلك البعثة الى استخدام ١٧٠٠ موظف روسي وما مضى سنة على وصولها حتى انتأت ٢٧٥ مطعماً شعبياً كانت تقدم الغذاء يومياً لخمسة وتسعين الف طفل وانقذت بهذا العمل وبواسطة التبرعات الكاثوليكية مئة وخمسين الف طفل على ما هو مرجح .

وفي الوقت نفسه بينما كان الكرسي الرسولي يضطلع بواجب المحبة هذا لم توقف الحكومة اضطهادها للدين ومع ذلك لم يبدل البابا موقفه .

« . . . بينما تتولى البعثة الرسولية اغداق الاحسان على سكان هذه البلاد الفسيحة التي عضها البؤس واوشكت ان تهلك جوعاً . . . ماذا نرى؟ سجن الاساقفة الكاثوليكين المشهورين والحكم عليهم بمدات طويلة بالحبس الصارم وقد اعدم احدهم بقسوة بربرية . . . فجميع هذه الاعمال لم توقفنا عن عملنا مهما بلغ بها الامر - فعلياً ان نتابع ما باشرناه منذ عدة اشهر لتخفيف الويلات واننا لن نقطع عن عملنا ما برحت البلاد مقتقرة الى المساعدة وطالما لدينا في العالم موارد نستطيع توزيعها ذاكرين كلمة الرسول هذه لا تدعوا الشر يقلقكم بل اغلبوا الشر بالخير » - الخطاب الذي القى في مجمع الكرادلة ٢٣ ايار ١٩٣٣ .

والخير الروماني لم يبدل قط موقفه هذا من الشيوعيين ففى الخامس

عشر من ايلول سنة ١٩٣٦ استقبل الكاثوليكين الاسبانيين الذين جاؤوا الى روما واعرب لهم عن حبه الشديد لاولاده الضالين وعن صلاته المستمرة لارتدادهم .

« ماذا نقول في هؤلاء الابناء الذين ما برحوا اولادنا ؟ فنحن نراهم اعز شيء علينا سواء اكان ذلك في شؤونهم ام بشخصياتهم وان قاموا باعمال وتوسلوا باساليب نكرها كل الكره لكي لا يتورعوا عن اتيان الاعمال الغاشمة الاضطهادية فنحن ، وذلك على قدر ما تسمح لهم به المسافة فيوجهون الى شخصنا عبارات المهينة كل الاهانة ويستخدمون في هذا السبيل الاساليب المنكرة فيعاملونا كما ينبغي للابن ان يعامل اياه بل كعدو يضررون له كرها خاصاً .

ان لنا ايها الاخوة الاعزاء تعاليم وعبر تبدو اسمى جداً من الطبيعة الانسانية الوضيعة وحدها لكي يقتدوا بنا ويطيعونا وهي تعاليم فيها كل الجمال والروعة للنفس المسيحية حتى نعجز عن الشك هنيئة واحدة في ما يتوجب علينا عمله : اي اننا نحبهم حباً خاصاً قوامه الشفقة والرحمة . وبما اننا نحبهم ولا نستطيع ان نفعل اكثر من ذلك فنحن نصلي لاجلهم لكي يرتدوا ويروا بعقولهم الحقيقة الناصعة وينفتح قلوبهم مجدداً للرغبة في البحث بحثاً اخوياً عن الخير الحقيقي ، فاننا نصلي لكي يرتدوا الى الآب الذي ينتظرهم لتكون عودتهم اليه من اهبج الاعياد »

وصفة القول ان البرواة « divini Redemptoris » قد ختمها الخبر الروماني بنداؤه الابوي الى اولئك الخدوعين : « لا نقوى على ان نختم هذه الرسالة من دون ان نوجه الى ابنائنا الذين اصابهم الداء الشيوعي او اوشك لننصحهم بجرارة ليصفوا الى صوت الآب الذي يحبهم كما اننا نبتهل الى الله لكي يهديهم ليقبلوا عن الطريق الملساء التي تقضي بهم الى كارثة عظيمة ويعرفوا ان المنقذ الوحيد هو سيدنا يسوع المسيح : » فانه لم يعط الناس

اسماً آخر تحت السماء ويسعهم ان ينتظروا منه الخلاص »

هذه هي الطريق المخطوطة المعالم امام واجبات الكاثوليكين ليجبوا غيرهم فعليهم ان يخلصوا المحبة للشيوعيين على رغم ما يعمله مذهبهم من بغضاء وان يبتهلوا لله لكي يهديهم الصراط المستقيم وان لا يضلوا عليهم بمخدراتهم كلما استطاعوا الى خدمتهم سميلا .

واذا اتضح للقارىء ما جئنا به من مأخذ على التعليم الاشتراكي الشيوعي ينبذ هاتين الحركتين فلأن كليهما يصدر من نقطة واحدة الا وهي مادية كارل ماركس الجدلية التاريخية لتصل اولاهما وثانيتهما الى نتيجة واحدة الا وهي الثورة وقد اختطنا منزلقاً خطراً للانسانية فلهذين السببين تأبى الكاثوليكية التعاون مع الشيوعية كما تنبذ كل نظرية لا تستند الى قيمة الانسان الحقيقية ولكنها تستصوب آراء الاشتراكية العاطفية التي تحلم بقيام التآخي بين البشر .

وبما قاله اودلر « AUDLER » في كلامه على الحضارة الاشتراكية : « يجب ان تحقق الاشتراكية رجاء الجميع والا تكون شبح البغض » على اننا نخشى جد الخشية ان تتفرد الاشتراكية العلمية بمفهومها الوهمي للانسان كما هو والدولة المقبلة وببعضائها الطبقية .

ويدور بخلدنا ان هذا الرجاء المحقق الذي يبحثون عنه في الاشتراكية العاطفية لن يجدوه حقاً في غير التعاليم التي تحمل الانسان في مقامه الحقيقي وتعترف له بمجدارته وكرامته .

ولقد صرح المسيو كايولا « CAILLA » في محاضرة له موضوعها الماركسية القاها بباريس في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٩٣٤ بما مفاده : « لم يفهم كارل ماركس الانسان المسكين ولا الحرية الانسانية التي بوشرت منذ الف سنة ولا الحرية التي استغرقت قرونا للقضاء على الرق ومن ثم

ازمانا متطاولة للقضاء على العبودية لتحرز الانتصار الحاسم في قضية الاجور، هذا الشكل الذي ما يرح ناقصاً كل النقصان في علاقات البشر انه لن يكتمل اذا لم ينم حسب كلمة المسيح : « حبوا بعضكم بعضاً » .

وما قاله سان مور SAINT-MAUR في خطاب القاه بمجلس الشيوخ الفرنسي في السادس عشر من حزيران سنة ١٩٢٦ : « اذا كان انجيلكم هو تعليم كارل ماركس او لينين كما تود طوائف اكثريتكم السياسية فباستطاعتي ان اقول لكم انكم تعرفون انجيلنا الا وهو البراءتان « Rerum Nova-rum » و « Quadragesimo anno » وما الاختلاف بيننا وبينكم الا في كون سلاحكم هو نضال الطبقات على حين ان سلاحنا الذي نسعى اليه هو اتحادها ووائها ولو شئت - ولا تحملوا كلامي محل التشاؤم - ان اعرف ما يميز سياستكم الاجتماعية عن سياستنا بصورة اعم لقلت لكم ان سياستكم هي التي تنظمون بها الانسان اما سياستنا فاننا ننسجها مع الله فاتم محاولون ان تفوزوا بخير شروط الحياة في هذه الفانية التي لا بد لنا من الانتقال منها اما نحن فلنا هدف آخر نسعى اليه وقد جعلناه نصب اعيننا لان حياتنا القائمة ليست الا تمهيداً لحياتنا الثانية ، وفي هذه النقطة يقوم الاختلاف بيننا وبينكم بمرته كما تعلمون .

وانكم لساعون في ايجاد صوفية تتقلب تتقلب سياسة الحزب الاشتراكي الفلاني او الحزب الشيوعي الفلاني اما نحن فنستمد صوفيتنا من ذلك الذي منذ الفم سنة بشر بقواعد الحياة على الجبل ونحن مدينون له بها »

ولقد المعنا الماعاً مقتضياً الى جهة النظر الكاثوليكية في المذهبين الاقتصاديين السياسيين القائمين ورائنا ان الكنيسة تنبذ كلا المذهبين لانها لا يأخذان بعين الاعتبار قيمة الانسان وجدارته ولان كليهما يحل المادة في المحل الارفع لكي لا يترك مقاماً للقوى الروحية ولا يعتد بالنفس اعتداداً لائقاً . ولان كليهما يدفع بالبشر الى التباغض فالتنافس فالتحارب .

الفصل الثالث

الاشتراكية الكاثوليكية

خيال هذين المذهبين المتطرفين الاول بيمينيته المسببة لجميع ضروب البؤس والفقر والاملاق والثاني بيساريته الداعية الى تخاصم الطبقات وتناحرها وكلاهما لا يأبه لقيمة الانسان وكرامته ولا الى مزاياه الفضلى ليعتبره اداة من ادوات الانتاج او كبيدق من بيادق الشطرنج لتتصرف به يد الاهواء والاغراض كما يعن لها لم تر الكنيسة الكاثوليكية بدءاً من التذكير بالقواعد الاخلاقية الاجتماعية التي اعلنها الانجيل فوقفت من هذين المذهبين موقف الداعي الى التقيد بالقواعد الادبية المنبثقة من تعاليم المسيح التي اتخذتها شعارها لتطالب باحلال العدل في علاقات الناس بعضهم ببعض تقادياً بما يجر اليه الظلم والطغيان والاعتساف من ويلات ومصائب وكوارث .

ورأت الكنيسة ان جميع بلايا الناس واسباب شقاؤهم وتعاستهم مردها الى ما في هذين النظامين من غلواء وشطط وابتعاد عن الناموس الابدي الخالد الا هو ناموس المحبة فقامت تنادي بالافلاع عن المادية الاحادية وتطلب من البشر العودة الى السنن الالهية جاعلة الانجيل نبواسها والخطبة على الجبل طريق هدايتها فلم تتورع عن اظهار مواطن الخلل في كلا النظامين واسدت ذويمها ارشاداتها ونصائحها بعيدة كل البعد عن مساندة واحدهما ضد الاخر واختطت لكليهما طريقاً سوياً على ضوء المبادئ الانجيلية واعلنت على رؤوس الاشهاد اسس الاشتراكية المسيحية التي سار في طليعتها الرجال

المخلصون فاختطوا في الزمن الاخير نهجها عقب الصيحة التي صاحبها المثلث
الرحمات البابا لاون الثالث عشر في براءته الشهيرة المعروفة (Rerum
Nouvarum) فكانت الحافز الاقوى في تنظيم هذه الاشتراكية .

وفي الواقع ليست الكاثوليكية الاجتماعية ديناً جديداً ولا مذهباً
مستحدثاً خاصاً ولكنها عودة الى المبدأ الجوهري الصحيح .

وبما كتبه الاسقف لاندريو (LANDRIEUX) سنة ١٩٢٠ في هذا
الشأن : « ان العقبة التي ينبغي لنا تذليلها هي التعليم السياسي والاجتماعي
الذي يؤيد افضلية حقوق الفرد على حقوق المجتمع والدولة ولنعلم
الكاثوليكيون ان المفهوم الكاثوليكي نفسه ينافي الاثرة الفردية والعزلة
ليستدعي الالتفاف والتنظيم والاتحاد في سبيل العمل الاشتراكي »

اجل ان الكاثوليكية الصحيحة حقاً هي بجوهرها اجتماعية ومن واجب
كل عضو من اعضائها ان يتحلى صراحة بهذه الروح ، وان عبارة
الكاثوليكية الاجتماعية او المسيحية وحدها كفيلة بان تفي بجميع حاجات
العصر القائم .

« ولئن تعرضنا اليوم للكلام على الكاثوليكية او المسيحية فلا يفيد
ذلك ان الكاثوليكية او المسيحية كانت غير اجتماعية ولا يسوغ لنا ابداً
ان تصور دقيقة واحدة انها كانتا غير ذلك والا انقطعنا عن ان نكون
كاثوليكية او مسيحية » برونتيار BRUNITIER

ولقد ادرك بعض رجال الكنيسة دقة الموقف في ظروفنا القائمة فاندفعوا
الى درس المعضلات الاجتماعية واطهار شكل الكاثوليكية الاجتماعي على
اعتباره الحل الوحيد لمشاكل الساعة .

واليك بعض اقوال الذين ساروا في طليعة هذه الحركة « نحن كاثوليكيون
وبوصفنا كذلك نحن اجتماعيون » « لورول LEROLLE » .

« ينبغي لنا ان لا نكتفي بموقف الدفاع الكاثوليكي وانما واجبنا يحتم علينا الانتقال الى الهجوم الاجتماعي » « بازير BAZIRE » .

ولقد مهد من كان على شاكلة هذين الرجلين الطريق امام الحركة الاجتماعية التي شجعها البابا لاون الثالث عشر . ففي سنة ١٨٨٤ تأسس اتحاد فريبورغ « Union de Fribourg » الذي عرّف اسقفها روحه بقوله : « امامنا الاشتراكيون فهم اقل خصومة لنا من ابتعادهم عن النظام المسيحي فهذه المدرسة التي تكونت سنة ١٧٨٩ و ١٨٣٠ قد بذرت بذور شكوك كثيرة في العالم ونشرت تعاليم خاطئة متطرفة حتى خدعت بها عقول بورجوازية كثيرة فمن الواجب ان نبذل جهوداً نتصر بها على انفسنا فلا ننجذب اليها، ولنتحلّ حيال هؤلاء الضالين بعزيمة القديس هيلار التي لا تني وبعزيمة القديس فرانسوا ده سال » .

والهدف الذي سعى اليه الاتحاد فريبورغ ... هو البحث عن تعليم الكنيسة الاجتماعي ولفت نظر الكاثوليكين اليه ورفع مستوى تشريع حماية العمل وبث هذه الافكار في المجالس النيابية الاوربية لوضع اسس التفاهم الدولي لحماية العمال والوحي الى المؤتمرات الكاثوليكية التي كانت لا تزال حديثة النشأة بافكار التنظيم المهيّئ الضرورية ضرورة لا مندوحة عنها وطلب تدخل الدولة لحماية الضعفاء .

وسنة ١٨٩٠ كان بمقدور الكاردينال مرميلود « MERMILLOD » ان يكتب ما مفاده : « ما كان اسرع انتشار افكارنا ! فالعالم برمته اخذ بالاهتمام للقضايا الاجتماعية ، ولئن فكرت انه عندما رفعت صوتي للمرة الاولى في كنيسة القديسة كلوتيلد في باريس سنة ١٨٦٨ لاردد بعض عبارات الانجيل واقوال كبار الخطباء المسيحيين فاذا ذكر انهم اتهموني بالاشتراكية وقالوا من الخير كل الخير ان اطرح من النافذة ، وما كانت سنة ١٨٩١ حتى

وافق البابا الذي كان حينذاك لاون الثالث عشر على اقوالى ببراءته
« Rerum Novarum » في ١٥ ايار بشأن اوضاع العمال واخذ يتابع عن
كتب اعمال الاتحاد فريبورغ .

ومنذ ذلك العهد شرع العلماء من لاهوتيين وفلاسفة وحقوقيين ومن ذوي
الاختصاص الفنيين ومن مندوبين عن اصحاب الاعمال والعمال يعالجون المسائل
الاجتماعية الدقيقة القائمة ويشبعونها درساً وتمحيصاً ويوضحونها ويبينون مبادئ
الكنيسة وتعاليمها التي اخذت تعطف عليها وتعزز هذه الحركة الميمونة التي
يحسبها العالم عليها .

التعليم الاجتماعي الكاثوليكي

١ - يستمد تعليم الكاثوليكية الاجتماعي مصدوه من الانجيل ويشتمل
عليه كتاب خاص يدعى « الادب الاجتماعي » .

٢ - للكنيسة رسالتها الاجتماعية لان السيد المسيح قد وضع اسس
حضارة جديدة حتى كانت المسيحية منذ نشأتها تختلف كل الاختلاف عن
الوثنية ، ففي القرون الوسطى كانت الجمعيات التعاونية دستور عمل صحيح .

٣ - لقد تبنت عدة منظمات عمالية ومهنية مبادئ الاجتماعية المسيحية كما
تبنت بعض الحكومات ولا سيما بعد الحربين الاخيرتين قانون العمل الكاثوليكي .

ولقد اصبح من الواجب على كل كاثوليكي ان يدرس تعليم الكنيسة
الاجتماعي وان يسعى الى افهامه سواء لان الجماعة المسيحية اجتماعية بمبادئها
كما قال الاسقف فرايل « FRAPPEL » « انها : اي الكاثوليكية مجتمع
اخوة اما المجتمع الوثني فمجتمع عبيد » .

١ - مصدر التعليم الاجتماعي

بما لا سبيل للارتياح فيه : ان السيد المسيح هو مؤسس الكاثوليكية

الاجتماعية وان مصدر تعليمها الاجتماعي هو الانجيل اما البشارة العظيمة الجديدة التي جاء بها المسيح للعالم فهي ايضاحه للبشر انهم ابناء الله وان الله هو اب جميعهم .

ولقد قيض لهذه الفكرة ان تغير وجه العالم كما يغير الخمر العجين لانه اذا كان الله ابانا جميعاً فنحن اذاً اخوة . وبأله من اخاء حقيقي ، ولئن كان الله اب البشر جميعهم فهم على رغم ما بينهم من تفاوت ظاهري لا يؤبه له متساوون جوهرياً ، وبأله من مساواة حقيقية ، واذا كانت الله اب البشر فليس بمقدور احدهم ان يستعبد غيره ، وبأله من حوية صحيحة .

واذا كان البشر قد تواضعوا على جعل التاريخ المسيحي حداً فاصلاً بين العهدين القديم والجديد فلان المسيح قد نادى بالحب ودعا الانسانية برمتها الى انتهاج ناموس الحب ، فالثورة العالمية العظمى لم تكن الثورة الفرنسية لسنة ١٧٨٩ ولا الثورة الروسية لسنة ١٩١٧ بل ثورة بيت لحم .

اجل لقد كانت الحب من اولى وصايا الشريعة الجديدة والعلامة الفارقة لتلامذة المسيح الحقيقيين فلذلك كان يقول الوثنيون في قرون المسيحية الاولى : انظروا اليهم كيف يتحابون » حتى ادهشتهم حياة الاخاء المسيحية .

وايم الحق انه لامر جديد كل الجدة رؤية السيدة الرومانية والاممة واريستوقراطي الامبراطورية العظيم والفلاح يجتمعون كلهم في دياميس روما ليصلاوا معاً ويتناولوا الخبز الواحد ويتبادلوا العطف الاخوي ، فلا غرو اذا غيرت هذه الفكرة الجديدة الاخلاق والعادات بعد ان كانت الانسانية غارقة في عهودها الوحشية لتبنى ناموس الاخذ بالثار كما يتضح ذلك مما جاء في التوراة وكتب التواريخ حتى بدت شريعة العين بالعين والسن بالسن شديدة التقدم في تطورها بالنسبة الى شريعة الاثثار الغريزية التي كانت قبلها .

وبالقياس الى تلك الانظمة التي تمشت عليها الانسانية احقاباً طويلة قبل

بحيء المسيح نستطيع ان نقدر مدى التقدم الذي تحقق على طريق سيادة نظام المحبة التي بشر بها مؤسس المسيحية وتقيد هو نفسه به .

ولقد دلل فيلسوف المسيحية بولس بوسائله في غير موضع على اتحاد المسيحيين الاول وجاء بالمقارنات الصريحة التي تبين مبلغ اتحادهم في تأخيرهم بكنيستهم « انتم لستم غرباء ولا اضياف وانما مواطنوا القديسين واعضاء اسرة الله ... كلكم ابناء الله بالايمان بيسوع المسيح ... فلا يهودي ولا فريسي « قومية » ولا عبد ولا حر « طبقة » ولا رجل ولا امرأة « جنس » .. لانه كما ان الجسد واحد وله اعضاء كثيرة وجميع اعضاء الجسد مع كونها كثيرة انما هي جسد واحد كذلك المسيح ايضاً . »

فالرسول العظيم لم يجد خيراً من الجسد الانساني ليقم الدليل على العلائق الوثيقة التي توحد البشر في المجتمع الجديد فشبه المجتمع الجديد القائم على دعائم المحبة بالجسم المتناسك في تركيب الاعضاء ودعاه الى توطيد علائق المحبة بين افراده ليحيوا حياة الاخوة الحقيقيين .

ولئن اطلعنا على ما قاله ارسطو الفيلسوف الاغريقي الكبير في كتابه « السياسة » بشأن حياة العبيد لرأينا التعليم القائل بالمحبة جديداً كل الجدة .

« لا يليق بالمواطن ان يعمل عمل الصانع والفلاح المناقض للجمال والفراغ . فمن الضروري ان يكون ثم اناس احط من غيرهم يشتغلون للطبقة الشريفة من الانسانية ، فالطبيعة نفسها قد وضعت تحت امرتهم اناساً احط منهم هم الارقاء طبيعياً فكما ان الجسد هو احط من النفس والجماد احط من الانسان فهؤلاء الارقاء هم ادوات قد جعلها الانتخاب الطبيعي في خدمة الطبقة الشريفة فالتفاوت الطبيعي هو مبدأ الاسترقاق » كتاب السياسة ١، ٢ - ٤، ١٥، ١٥٠ .

وعلى هذه الشاكلة نعلل ان بعض البشر لا حقوق لهم لان الحق لا يقوم الا بين المتساويين « الكتاب نفسه ٣-٥-١١ » فلا ارادة لهذه الفئة من الناس فساداتهم هم الذين يريدون لهم ٦ « ١-٥-٦٠ » ولا علم لهم الا بما هو نافع لسيدهم « ١-٢-٢٣ » ولا عيلة الا التي يعينها هو لهم « عرض الابناء واجهاض الامهات » حتى ولا فضيلة لانها ليست ضرورية لهم الا من ضمن حدود العمل الذي وكله اليهم سيدهم « ١-٢-٢٣ » فالعبد عاجز عن التمتع بالنعمى كحرية الارادة « ٣-٥-١١ » والعلاقة القائمة بين العبد وسيده هي علاقة العامـل بالاداة والنفس بالجسد « ٥-٢-٤ » والانسانية منقسمة الى طبقتين السادة والعبيد وللأولى الحق بالامر وعلى الثانية الطاعة « ١-٣-٨ » .

ولئن انتقلنا من اليونانيين الى روما فاننا لنجد في اقوال الزينونيين اقوالاً اشد انسانية وانما لم تصطبغ باللهجة نفسها كما لاحظ بحق ذلك الفيلسوف برغسون : « واننا لنشعر شعوراً من هذا النوع عندما نقارن تعليم الزينونيين مثلاً بالعلوم الاخلاقية المسيحية فقد كانوا يعلنون عن انفسهم انهم مواطنو العالم ويضيفون الى تصريحهم هذا ان جميعهم اخوان بصفة كونهم منبثقين من الاله ذاته . اجل لقد كادت تكون اقوالهم نفس الاقوال ولكنها لم تقل بنفس اللهجة فلم يكن لها نفس الصدى . ولقد ضرب الزينونيون امثالا رائعة في هذا الباب، واذا لم ينجحوا في ان يجروا الانسانية معهم فلكون الزينونية كانت فلسفة محضة، والفيلسوف الذي يكلف هذا الكلف بتعليم سام ويدمج نفسه به فانه ليحييه من دون شك بممارسته له ... ولكن تمت بعد عظيم عن الحماسة التي تنتشر من نفس الى نفس من دون ان تنتهي ضد الحريق^(١) .

(١) « هنري برغون الصفحة ٥٨ - Les deux sources de la morale et de la Religion alcan, Paris 1932 »

وكتب الاسقف توشه TOUCHET مستنبطاً من هذه العقائد تعليقاً في مجلة الاسبوع الاجتماعي باورليان مؤداه : « ان تعليم الكنيسة بشأن كرامة الانسان هو التعليم الذي يعرفنا بحق عظمتنا فهو منتهى التعاليم : لان البشر اخوان بدمهم لكونهم يتحدرون من اب وام لا غير وهم اخوة بنفوسهم لانه ليس لهم الا اب سماوي واحد وهم اذا ما قاموا للصلاة يقولون : « ابانا الذي في السماوات » .

والبشر اخوان بمعصيتهم وهفواتهم لان جميعهم يفتقر لاقتداء المخلص وهم اخوان بيواراتهم فكلهم قد استحم بدم المسيح وهم اخوان من حيث مصيرهم لان جميعهم مدعو الى ملكوت السماوات

وهل يكون العبد على هذه الصورة غير اخ لسيدده ؟

وهل يكون الكادح غير اخ للرأسمالي ؟

ان الحلم بالمساواة الشاملة عن طريق اقتناء الاملاك او عن طريق احراز المناصب حلم صبياني لن يتحقق . ومن الواجب ان نحمد الله على هذا التفاوت والا لامتنع التقدم الشامل وساد الضجر والسامة وكان الموت الشامل والبارى تعالى قد ضمن للبشر في النظام الاجتماعي . . . ميراثاً مشتركاً من الحقوق وان لم يرد او يستطع ان يجعل كل ابنائه متساوين سواء اكان ذلك من حيث مصايرهم ام ثرواتهم واوضاعهم واعمالهم اما ميراثهم في هذه الحقوق الاولية فقام على كونهم بشراً « الولادة والموت » اذ باستطاعة الكادح ان يقول للرأسمالي والمولى للاقطاعي والعامل لصاحب العمل : « انت بشر وانا بشر مثلك فحقوقى كانسان تعدل حقوقك كانسان وان اباك الله هو ابي ايضاً وهو الذي خلقنا على هذه الصورة » . اجل انها حقوق سامية في جلال قدرها . وبلاستطاعة ان نرجعها الى خمسة اقسام

الاول - للبشر الحق في ان يحياوا الحياة التي استمدوها من اباؤهم

وامهاتهم كوسطاء ومن الله تعالى كمبدأ اسمي وان ينمو قواهم العقلية والطبيعية والاخلاقية تنمية مشروعة

ثانياً - للبشر الحق ان يتناسلوا تناسلاً قوامه النظام الطبيعي الادبي كما يحق لهم ان ينصرفوا الى دعوة خاصة فضلى

ثالثاً - ومن حقهم ايضاً ان يعيشوا عيشة لائقة هم وعيالهم عن طريق العمل المعقول وان كانوا لم يتسن لهم ادخار رأس مال

رابعاً - ومن حقهم ايضاً ان ينالوا قسطاً من الراحة في اثناء حياتهم راحة تخولهم ان لا يستنفدوا قوتهم التي منحهم اياها الله فلا ينصرم جبل ايامهم قبل اوانه

خامساً - ومن حقهم متى ادركتهم الشيخوخة وعجزها ان يؤمنوا معيشتهم من دون ان يتوسلوا بالاستجداء وذلك اذا ما كانوا من اولى الاستقامة والاجتهاد والتنظيم لكيلا يصبحوا مرغمين على القيام بالعمل الذي عجزوا عن اتيانه

ولا يستطيع مكابر مهما بلغت به الجرأة انكار هذه الحقوق وجعلها موضع بحث ومناقشة فكل من يغمض عنها العين ليس الا اعمى لان الطبيعة او بالاحرى مبدعها قد نقشتها بحروف لا تمحى في قرارة كل ضمير انساني منذ الساعة التي اصبح بمقدورنا ان نميزها، واقترتها الكنيسة وجعلت من جميعها حقوقاً مشروعة « Semaine Sociale Orléans 1905P71 »

٢ - العلم الاخلاقي الاجتماعي

لقد عمدت الكنيسة مع فلاسفتها ولاهوتها وعلمائها الاجتماعيين الى درس ناموس المحبة الجديد وعملت قروناً عديدة على ايضاحه وحددت تحديداً دقيقاً وباعتناء شديد الصورة التي ينبغي ان تكون عليها علاقات الانسان

الاخلاقية بغيره وذلك فيما يختص بامور الحياة العائلية والاقتصادية والسياسية ولم تتردد بصفة كونها القيمة على القواعد الاخلاقية عن ان توضح بتدقيق واجبات الانسان بصفة كونه كائناً اجتماعياً اي بصفة كونه عضو جماعة طبيعية كالعيلة والدولة وعضو جماعة استلزمته حياته الاجتماعية كانضمامه الى الجمعيات على اختلاف انواعها ولا سيما المهنية منها

ويشير التعليم المسيحي في باب موجبات العدل ومحبة القريب الى هذه المبادئ الاولى اما كتب اللاهوت الادبي فتشتمل على فصول برمتها تعالج فيها قضية العدل والعقود «المقاولات»، وثمت تفاصيل مهمة تعالجها كتب الاقتصاد الاجتماعي المستمدة من المبادئ المسيحية^(١)

والامر الذي لا سبيل للشك فيه هو ان العلم الاخلاقي الاجتماعي لا بد له من ان يماشي اوضاع المجتمع الراهنة لذلك لم يحجم رؤوساء الكنيسة في كل برهة عن اصدار براءات ليست بالواقع الا من وحي الانجيل وتنطبق على اوضاع الزمان القائم .

وفي هذا الصدد لا نرى مندوحة عن الاشارة الى براءتين من اهم هذه الرسائل الرعائية - على كل كاثوليكي - وحتى على كل عالم اجتماعي ان يطلع عليها الا هما براءة البابا ليون الثالث عشر «Rerum Novarum» التي صدرت سنة ١٨٩١ وحددت شروط العامل وبراءة البابا بيوس الحادي عشر حول النظام الاجتماعي المسيحي وذلك بمناسبة الاحتفال باتقضاء اربعين سنة على سلفه البابا ليون الثالث عشر وقد صدرت سنة ١٩٣١

فلقد وصف البابا ليون الثالث عشر في براءته المشار اليها حالة العامل البائعة على الاسى من جراء النظام الاقتصادي الحر ومن ثم شجب الاشتراكية واعتبرها علاجاً ظالماً للعمال ومضراً بهم قائلاً عنها انها مفسدة

1) Précis de la doctrine sociale catholique Spes

لطبيعة علائق العيلة والدولة بالنسبة الى الملكية لانها تنكر الملكية الخاصة وهي من الحق الطبيعي فلذلك لن تكون نتائجها الا سيئة على المجتمع الذي تنظمه . فعلياً ان نطلب العلاجات الناجمة من الكنيسة والدولة والجمعيات المهنية اما الكنيسة فتعترف بقيام التفاوت الاجتماعي ومن ثم بالالام في هذه الحياة وتعلن شرف الفقر ومسؤولية الثروة وتدعو الى العدل والاخاء المسيحيين .

والكنيسة عن طريق بعثها للقوة في النفوس تساهم في تجديد المجتمع وحتى في تخفيف الاوصاب الزمنية فعلى الدولة ان تحمي المصلحة العامة ومصلحة الطبقة العاملة والملكية الخاصة واذا اقتضى الامر ان تحمي حرية العمل وتسهر على ان لا يكون الضعفاء « الاطفال والنساء » موضوع الاستغلال والاستثمار وان يكون للعامل اجرة عدل . ومن الواجب ايجاد جمعيات مهنية لتحسين الحالة الاجتماعية وتنظيم الحرفة فذلك حق طبيعي ملائم كل الملائمة .

وتصدى البابا بيوس الحادي عشر في رسالته الرعائية « Quadragesimo Anno » الى بسط النتائج التي احرزها البشر بعد انقضاء اربعين سنة على براءة سلفه ال « Rerum novarum » التي أطلق عليها اسم « ميثاق العمال العظيم » ولقد كان لتطبيق تعليم الكنيسة الاجتماعي بايضاحه عملياً حلول المعضلات الخطيرة وتوجيهها نتائج محمودة فيخرجت الدولة عن تحفظها الذي كان يفرضه عليها النظام الاقتصادي الحر وهبت لمساعدة الطبقات العاملة بانتهاج سياسة اجتماعية صريحة فتأسست جمعيات عديدة للعمال واصحاب الاعمال .

واستأنف بيوس الحادي عشر فيما يتعلق بالقضية الاقتصادية الاجتماعية تعليم الكنيسة استئنافاً يجعله اشد انطباقاً على مستلزمات العصر فدعم بتعليمه الحق في الملكية الخاصة ورأس المال والعمل وتحسين اوضاع الكادحين

واصلاح النظام الاقتصادي ، ومن ثم اشار الى التطورات الجوهرية التي طرأت على النظام الاقتصادي منذ لاون الثالث عشر وكان هذا القسم من براءته اشد جدة وقوة ، وبما قاله في هذا الباب ان المنهج الرأسمالي وان لم يكن فاسداً بذاته فقد اعتراه الفساد كل الفساد بايجاده التنافس الحر وديكتاتورية اقتصادية حقيقية اما الاشتراكية وهي الحزب الاشد اعتدالاً فقد استبقتها الشيوعية التي اصبحت حزب العنف فباتت الاشتراكية اقل تصلباً فيما يتعلق بنضال الطبقات والغاء الملكية بيد ان مفهومها للمجتمع وميزة الانسان الاجتماعية ما برح مغايراً كل المغايرة للحقيقة المسيحية ولذلك لا سبيل لايجاد التفاهم معها حتى ظلت العبارتان : كاثوليكي واشتراكي عبارتين متناقضتين . اما الخلل الاعظم في النظام الاقتصادي القائم فهو كونه قد حطم النفوس فمن الواجب ان يتحد الجميع لاستئناف اصلاح الاخلاق .

ومجرد النظر في تحليل هاتين الرسالتين يحملنا على التفكير في اهمية قيمة اجوبتها الصحيحة على احدث المشكلات القائمة وما يرافقها من الام وبؤس . ولم تغب هذه الاهمية عن نظر بعض رجالات الدول فاليك ما قاله المسيو هايمان وزير الصناعة والعمل البلجيكي في ١٤ ايار لسنة ١٩٣١ بصدد البراءة الرسولية « Rerum novarum » « ان الصرخة التي وجهت الينا منذ اربعين سنة قد اسفرت عن ايلاد عالم جديد ... فلو كان استمع الذين من واجبههم الاصغاء الى كلمة البابا والى تعليم براءته لكانت انقذت العالم بومته ولابتعدوا عن استحقاق توبيخ الكتاب لهم : « لهم اذان ولكنهم لا يريدون ان يسمعوا » اما النفوس فلا تزال بانحطاط كما كانت منذ نصف قرن ... لانها « لا تعرف ان تعليم الكنيسة بوسعه ان ينقذ المجتمع » .

ولدى صدور البراءة Quadragesimo anno رحب بها الزعيم الاشتراكي البورت توماس « Albert THOMAS » مدير مكتب العمل الدولي في جنيف

بالعبارة التالية : « اني اود التذكير بالدور العظيم الذي دعيت الكنيسة الى تمثيله في قضية الغاء الرق وتحرير العمال تحريراً مستمراً يوماً فيوماً في اثناء قيام اشكال المنظمات الصناعية المختلفة .

واني لاجراً على ان اقول ان تعليمكم قد اخذ يزداد رسوخه منذ نصف قرن فهل يسوغ لي ذلك ؟

وهل اجسر ان اقول ان فكرة البراءة الجديدة قد زودتنا بمعونة كبرى في بذل الجهود الذي نثار عليه في سبيل اتحاد العمال ؟ ...

واني لحريص كل الحرص على التصريح من دون تردد ، بالقيمة الكبرى التي اعلقها على هذه الوثيقة التي كانت موضوع انتقادات عديدة أكثر من جميع الوثائق المعروفة وذلك من احدى النواحي ولكنها تشمل من الناحية الاخرى على كيفية التشييد والفطنة وكل ضروب الاحتياط الضرورية »

وعندما خطب المسيو فانزيلاند « VANZEELAND » سنة ١٩٣٦ وكان انذاك رئيساً للوزارة البلجيكية في اجتماع عقده اتحاد ارباب الاعمال الكاثوليكين قال : « اني لارجع دائماً كما ترجعون - الى البراءتين الاقتصاديتين الاجتماعيتين العظيمتين لاستمد منها السبيل السوي ولم امتلك عن ان تستولي علي الدهشة لما اراه فيها من عمق وجراءة ودقة انطبقت سلفاً على واقع المضاعب الراهنة الآن »

ب - مبادئ تعليم الكنيسة الاجتماعي الرئيسية

بما لاسبيل لاغفال النظر عنه هو ان للكنيسة الكاثوليكية علماً اخلاقياً وسياسياً ليسا كغيرهما فهما لا يتحيزان لمنهج اجتماعي ولا ينبذان اي نظام سياسي كان بل يرحبان بكل المناهج على شرط احترامها للعدل واستلزامها للمحبة . فضلاً عن ذلك فان اهتمام الكنيسة الرئيسي حتى في القضية الاجتماعية لا يبرح ابداً ان يكون

الانصراف الى انقاذ النفوس .

وتشجب الكنيسة الظلم الاجتماعي والذين يستغلونه لانه يلقي بالذين يكابدون مرارته في احضان البغضاء وايدي العنف والاعتساف ويمنع المستثمر « بكسر الميم » والمستثمر « بفتح الميم » بلوغ غايتهما القائمة في تنمية كمال الشخص الانساني كمالاً تدرجياً .

وتعليم الكنيسة يطالب بان تقوم مقتضيات العدل وذلك حيال المذاهب الاقتصادية الحرة : « يجب ان نجعل الموجبات المنبثقة من العدل قبيل الموجبات الاخرى . . . ولتأش واجبات ارباب الاعمال وحقوقهم واجبات العمال وحقوقهم كل الماشاة » لاون الثالث عشر « *Rerum novarum* » وعند رؤيتنا هذه الجمهرة من المملكتين يضئهم البؤس بسبب امور ليسوا مسؤولين عنها والى جانبهم هذه الكتلة من الاثرياء المستسلمين الى ملامهم يبدرون الاموال الطائلة على اشياء تافهة من دون ان يفكروا في غيرهم لا نستطيع ان نمنع النفس التأكيد - والغصة قمنا - ان احترام العدل ما يرح ناقصاً فحسب بل ان وصية المحبة ما فتئت ايضاً عرضه للخطر « بيوس الحادي عشر » « *Divini Redemptoris* »

وتعليم الكنيسة يقرر حدود حرية الحق بالملكية الخاصة وبالتنافس الذي قرره ناموس العرض والطلب ويعين موجبات العدل التي تقع على عاتق ارباب الاعمال من جهة والعمال من جهة ثانية ويعترف للدولة بحق التدخل على شرط ان يكون تدخلا معقولاً رائده صيانة المصلحة العامة وللعمال بحقوقهم في الانضمام الى النقابة التي يختارونها وحتى بحقوقهم في اعلان الاضرابات في بعض الحالات ويطالب باقرار اجرة عدل وهو لا يسلم ابداً بالاعمال الاقتصادية التي تنافي المبادئ الاخلاقية ويستصوب ايجاد برنامج اصلاحات اجتماعية كامل تقضي بها افضلية الشخص الانسانية ، وكل هذه الامور تقوم على طرفي نقيض من مبادئ المذهب الاقتصادي الحر .

وتؤيد الكاثوليكية الاجتماعية حيال الاشتراكية والشيوعية فكرة المحبة

والتعاون « الضلال الرئيسي قائم في الاعتقاد وان الطبقتين « ارباب العمل والعمال » هما عدوتان بالطبع احدهما للآخرى . . . ان الامر على العكس فالطبيعة قد اهتمت لينسجما معاً ويظلا على تفاهم تام فكل منهما يفتقر الى الاخرى افتقاراً ملحاً ولا يمكن ايجاد رأس مال من دون عمل ولا عمل من دون رأس مال . . . وما التصافي العادي الاشياء قليل جد القلة اذا ما اطعنا التعاليم المسيحية فالاتحاد يتحقق في المحبة الاخوية « ليون الثالث عشر » *Rerum novarum* . وثبت علاج اشد جدوى يبحث الداء القائم مباشرة الا وهو تعليم المحبة ، ونحن نريد بها المحبة المسيحية « الثابتة الصلاح » التي تعرف ان تفادي عن كل انتماء سائن وكل تباه ، هذه المحبة التي - منذ مطلع النصرانية - قد جلبت الى المسيح اشد الفقراء فقراً والارقاء عبودية واننا لنشكر جميع الذين بذلوا النفس ووقفوها على اعمال الرحمة الزمنية والروحية من عظمات القديس منصور حتى منظمات المصلحة الاجتماعية التي تأسست حديثاً فعلى قدر ما يستشعر العمال والفقراء نخاسن روح المحبة التي تنعشها فضيلة المسيح يقلعون عن حكمهم الخاطيء ، وهو ان المسيحية فقدت تأثيرها وان الكنيسة متحيزة الى جانب الذين يستثمرون العمل « بيوس الحادي عشر » *Divini Redemptoris*

وان تعليم الكنيسة الاجتماعي لعلى طرفي تقيض من مبدا تنازع الطبقات موقد الحروب الاهلية المستمرة ليحاول البحث عن اقامة التآزر بين مختلف عناصر الانتاج اي بين رأس المال والعمل . للحفاظ على الحق المشروع في الملكية والتوارث كعنصري تقدم اجتماعي . اما الكاثوليكية فتقول بالافضلية الروحية وبجياة ثانية وبضرورة الدين لاملء فراغ النفس من دون ان تهمل مصالح الانسان الزمنية ، وتريد العدل بالمحبة والسلام لا الثورة الدامية ، وجميع هذه الامور تنافي مبادئ الشيوعية والاشتراكية .

الملكية الخاصة مشروعة - ان بعض ضروب الملكية الخاصة ضروري للانسان اولا لتأمين حياته الشخصية تأميناً صحيحاً وثانياً ليقوى على انشاء

عيلة حقيقة وثالثاً في سبيل تسهيل طريق التقدم .

والكاثوليكي بالاستناد الى عقيدة المعصية الاولى يستطيع التأكيد ان الحق في الملكية الخاصة - في بعض اشكاله يمكنه ان يتطور - ولكنه لا مندوحة عن وجوده بالضرورة ليجبر الانسان على التوفير والعمل : اما الشيوعية والاستراكية فلا تقيمان وزناً لضعف الانسان ولا تعتقدان كل الاعتقاد ان الانسان مدفوع بحكم طبيعته الى التكسل والتبذير . اما الملكية التي هي حق واقعي فليست حقاً مطلقاً اذ لها وظيفة اجتماعية وخاصة قدسية مزدوجة : فرديه واجتماعية

« ينبغي لنا ان نخترس . . . من ضلال مزدوج : من الفردية التي تنكر او تقلل جد التقليل شكل الملكية الاجتماعي والعمومي . . . ومن الاستراكية التي تنكر او تقلل جد التقليل شكل الملكية الفردية »
« الكاردينال فرديه » (الفقرة ٣٧) (Le Cardinal Verdier N° 37)

وقضارى القول : لا يحق لاي صاحب ملك « ملاك » كان ان يحتكر على نفقة المجتمع كمية كبيرة من المنتجات وانما من واجبه الاهتمام بالاعباء الاجتماعية التي تقع عاتقه وعليه ان يساعد المحتاجين باسم المحبة وحتى ان يعين من كانوا في ضرورة قصوى باسم العدل »

« ومن واجب الدولة ان تجعل الملكية متفقة مع المصلحة العامة » كما لها الحق ايضاً في سن تشريع اجتماعي » « الكاردينال فرديه » (الفقرة ٣٨)
وتقول الكنيسة ذات الاطلاع الكبير على الشؤون الانسانية ان الواجب يدعونا لكي لا نفعل على حسن ارادة الافراد في سبيل اقرار الاصلاحات الضرورية وانما ينبغي للدولة ان تمد يد المساعدة لخدمة المصلحة العامة « وهذا ما لا يتفق ابداً مع النظام الاقتصادي الحر » ولكن على شرط ان لا تتجاوز الدولة في تدخلها حدود الاعتدال اي ان من واجبها

ان لا تجعل نفسها بدلا من صاحب الملك لتحل « محله وهذا بما يناقض كل المناقضة الاشتراكية »

ومما جاء في رسالة البايا لاون الثالث عشر الرعائية في هذا الشأن « *Rerum novarum* » « يقضي الانصاف على الدولة بان تهتم للعمال وتتخذ الاجراءات التي تجعلهم يتناولون بواسطتها الفوائد التي يهيئونها للمجتمع كالمسكن واللباس ويتمكنوا من ان يعيشوا باقل ما يمكن من المتاعب والحرمات، وعليها ان تعزز عن بعد او عن قرب كل ما يبدو انه من شأنه انه يحسن مصيرهم . . . والسبب الذي يبرر تدخل القوانين هو الذي يعين لها حدودها »

وتعليم الكنيسة لا ينكر الحق في التخلي عن الممتلكات بطريق الوارثة كما لا ينكر ايضاً مشروعية رأس المال وذلك « عندما تكون هذه الاملاك وليدة وسائل لا التواء فيها ولا زيفان » .

ويكون رأس المال غير مشروع - اولاً اذا كان تحقيقه عن طريق انتهاز اساليب ملتوية وثانياً اذا كان ناجماً عن سبيل توزيع المنتجات توزيعاً لا انصاف فيه . . . وعندما يلتهم مجموعة الانتاج تقريباً غير تارك للعمال الا النذر اليسير الذي يكاد لا يكفيهم لاسترداد قواهم والحفاظ عليها فالتفاوت في توزيع المنتجات على هذه الشاكلة لن يكون ظلماً فحسب ولكنه يفضي الى ايجاد تباين باعث على الاسف بين المواطنين ليشير استمزازهم ويعد الثورة وثالثاً عندما يتعاطف تعاضلاً يجعله ان يكون قوة تنشئ دولة ضمن الدولة ورابعاً عندما يكون في الدولة ضرباً من الدولة اسمى منها عن طريق نموّه غوّاً مطرداً لتفرض سطوته التي لا قياس لها اضطرابات مالية خطيرة لا يستطيع الدول ان تتجاشى عنها ولا ان تنجو من الوقوع تحت نيرها مما يفضي بها الى انتهاز خطط تنافي المصلحة العامة

او العدل ، فانه وان كان رأس المال مشروعاً بنفسه فالنظام الرأسمالي قد يكون غير مشروع اي فاسد» «الكرديثال فردية» (الفقرة ٤١) .

ومما توصي به الكنيسة الفقراء والاغنياء على السواء هو التجرد عن التعلق بالخيرات الارضية .

« وفي مثل هذا المقام نريد ان نذكركم ايها الاخوة المحترمون تذكيراً خاصاً بتعليمين من تعاليم سيدنا يسوع المسيح ينطبقان بخاصة على اوضاع البشر في الحالة القائمة : اولهما التجرد عن التعلق بخيرات الارض وثانيهما شريعة المحبة : « طوبى للمساكين بالروح » هذه هي الكلمات الاولى التي خرجت من شفتي الاله المعلم في خطبته على الجبل . اجل ان هذا الدرس لضروري في يومنا الحالي اكثر منه في اي وقت كان اي في عصرنا المادي المتهالك على المغام والاستمتاع بالشهوات الارضية . فعلى المسيحيين جميعاً اغنياء كانوا ام فقراء ان يلتفتوا دائماً الى السماء وان لا ينسوا ابداً « ان لا مدينة لنا ثابتة في هذه الارض ولكننا نسعى الى المدينة الآتية » ومن واجب الاغنياء ان لا يجعولوا سعادتهم باكتناز خيرات الارض ولا ان يوقفوا فضلى مجهوداتهم على اقتناصها وانما ليحسبوا انفسهم انهم وكلاء عليها فقط ولا بد لهم من ان يقدموا حساباً عنها للمعلم الاسمى فليستخدموا غناهم كوسيلة ثمينة وضعها الخالق في متناولهم ليعملوا الخير ولا يترددوا عن توزيع فضلاتهم على الفقراء كما يعلمنا الانجيل والا انطبق عليهم وعلى ثرواتهم حكم الرسول يعقوب الصارم « هلموا الان ايها الاغنياء ابكوا وانحبوا على الشقاوات التي تأتي عليكم ، ان اموالكم قد فسدت وثيابكم اكلها العث ، ذهبكم وفضتكم قد صدأ وصدأهما سيشهد عليكم ويأكل لحومكم كالنار فقد ادخرتم الكنز للايام الاخيرة » اما الفقراء وان سعوا بحسب ناموس المحبة وراء ما يتداركون به مستلزماتهم الحيوية الضرورية وحاولوا

تحسين مصيرهم فعليهم ان يظلوا « مساكن بالروح » وان يجعلوا الخيرات الروحية فوق الخيرات الارضية والتمتع بها ولتذكروا دائماً انه لن يستطيع احد ان يزيل من هذا العالم البؤس والالام والشدائد ولن يقوى انسان على التخلص منها وان كان ممن الذين يبذلون انفسهم راتعون في مجبوحة السعادة . فيجب على كل ان يتحلى بالصبر هذا الصبر المسيحي الذي يشدد القلب بالوعود الالهية بالسعادة الخالدة ولنزد مع القديس يعقوب « فاتم ايها الاخوة تأنوا الى مجيء الرب . ها ان الحارث ينتظر ثمر الارض الثمين متأنياً عليه حتى يصيبه المطر وسميه ووليه فتأنوا انتم ايضاً وثبتوا قلوبكم فان مجيء الرب قد اقترب » . وعلى هذه الصورة يتم وعد سيدنا يسوع المسيح المعزي لنا « طوبى للمساكين » .

ولست هذه التعزية برقاً خلباً ولا وعداً عرقوبياً على شاكلة وعد الشيوعيين بل هي اقوال الحياة والحقيقة العميقة التي تتحقق في هذه الارض ومن ثم في الحياة الابدية ورجاء المملكة السماوية التي تخص الفقراء « لان ملكوت السماء لكم » . ولقد قاله السيد المسيح ما اكثر الفقراء الذين ينعمون بالسعادة بينما يبحث الاغنياء عنها في ثرواتهم وهم دائماً في قلق « بيوس الحادي عشر » « Divini Redemptoris, 44, 45 »

والامر الذي لا ريب فيه هو انه من واجب صاحب العمل ان يؤمن لمستخدمه او لعامله اجرة عدلاً : اعني بذلك « الاجرة التي تتكافأ من جهة مع النتائج والارباح التي ساهم في ايجادها عمله ومن الثانية اجرة كافية تحوله لتحقيق اهداف « العمل » الخاصة » (الكاردينال فريدي رقم ٤٥) وهذه هي الاهداف المشار اليها .

١ - تأمين معيشة العامل ومعيشة عيلته بصورة لا تقه « الاجرة الحيوية بجدها الاقصى والاجرة العملية » « من الواجب ان لا يدخر اي مجهود كان

في سبيل تأمين اجرة مرتفعة وكافية لاب العيلة لكي يستطيع ان يقوم بحمل اعبائه المنزلية المعتادة» « بيوس الحادي عشر Quadragesimo anno »
 ب - تأمين امكانية تحقيق وفر يضمن للعامل مستقبله ويسمح له بان يصبح صاحب ملك خاص .

ج - تحقيق صيانة كرامته الحقيقية كإنسان وكمسيحي في جميع اشكال عمله « الكاردينال فريديه رقم ٤٤ » ويؤكد البابا جازماً بقوله : « لكن العدل الاجتماعي يطلب ان يقوى العمال على تأمين معيشتهم ومعيشة عيالهم باجرة لائقة ومن الواجب ان نجعلهم في وضع يحولهم ان يحرزوا رأس مال بسيط يتفادون بواسطته املاقاً عاماً هو كارثة بالحقيقة ولتقدم على مساعدتهم ببرنامج ضروب ضمان عامة او خاصة يكون واقعياً لهم في زمن الشيخوخة والمرض او البطالة وقصارى القول اننا نؤكد تصريحنا الذي جننا به في براءتنا « Quadragesimo anno » وهو ان الشكل الاقتصادي والاجتماعي يبلغ هدفه ويكون تأليفه سليماً متى حقق لجميع اعضائه ولكل فرد منهم كل الفوائد التي يسع موارد الطبيعة والصناعة والتنظيم الاجتماعي الصحيح ان يضعها في متناول ايديهم ، ومن الواجب ان تكون هذه الفوائد على غاية الوفرة لتؤمن مستلزمات حياة لائقة ولترفع الانسانية الى مستوى ما من الرفاهية والثقافة على شرط ان يستخدموها استخداماً حكيماً فلا تقوم عقبة في وجه الفضيلة وانما على العكس من ذلك تسهل ممارستها « بيوس الحادي عشر « Divini Redemptoris » وما قاله الكاردينال فريديه « ليس عمل الانسان قوة مادية محضة ولا هو بضاعة بل هو فعل انساني » (رقم ٤٣)

ومن الواجب ان يحدد عقد العمل معدل الاجرة وكيفيته ، اما في سبيل مساعدة العمال واصحاب الاعمال وتنسيق علاقاتهم المتبادلة بعضهم ببعض فمن الواجب ايجاد منظمة مهنية بشرط ان تقوم على فكرة التفاهم

والتأزر عن اقتناع منا بأنه لن يكون رأس مال من دون عمل ولا عمل من دون رأس مال « ولما كان لا يتفق غالباً في قضية الاجور ان يقوى كل واحد على التقيد بالعدل ما لم يتفاهم الجميع على ممارسته بواسطة منظمات تربط احداها بالآخرى من اصحاب الاستخدام تفادياً عن منافسة لا تتفق والعدل الواجب نحو العمال كان على الملتزمين وارباب الاعمال ان ينهضوا بهذه المنظمات الضرورية ويدعموها فهي التي ستصبح المقياس الذي يستطيع بواسطة احقاق العدل . ولتذكر العمال واجباتهم على قاعدة المحبة والعدل حيال الذين يستخدمونهم ويقتنعوا بها كل الاقتناع اذ باحترامها يستطيعون ان يصونوا مصالحهم الخاصة صيانة فضلى .

ولقد اشرنا في براءتنا السابقة « Quadragesimo anno » الى انه لو اخذنا بعين الاعتبار مجموعة الحياة الاقتصادية لكان من المستحيل ان نجعل العدل يسيطر في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية لياثي المحبة بغير واسطه هيئة من المنظمات المهنية يتأسك بعضها ببعض على اسس مسيحية وطيدة تنطبق على وضع كل بلاد وتلائم ظروفها اي بواسطة ما كانوا يسمونه بالمنظمة التعاونية « بيوس الحادي عشر 53, 54 Divinis Reeemptoris » .

وتتألف هذه المنظمة المهنية :

اولاً - بواسطة النقابات

ثانياً - بواسطة تنظيم المهنة

ثالثاً - عن طريق تنظيم المهن بعضها مع بعض

رابعاً - عن طريق منظمة امية

النقابات - هي جماعات مؤلفة من رجال المهن مهمتها دراسة ما يتعلق بالحرفة وتنظيمه : كالاجرة وشروط العمل والتعليم المهني والتدريب الحرفي والاضرابات .

« لا شك ان للعمال الحق ان ينضموا الى جمعيات في سبيل مصالحهم
الفضلى وهذه الجمعيات لا تنافي الطبيعة اما الكنيسة فتعطف عليها « لاون
الثالث عشر 1895 Longinqua Oceani »

وبالاستطاعة ايجاز تعليم الكنيسة بشأن النقابات على الصورة التالية :

١ - لا تعترف الكنيسة بحق ارباب الاعمال والعمال في انشاء جمعيات
نقابية سواء أكانت جمعيات مستقلة بعضها عن بعض ام مشتركة معاً فحسب
بل تؤكد هذا الحق لأنها ترى فيها الوسيلة الفعالة لحل القضية الاجتماعية .

٢ - تعتبر الكنيسة ان انشاء الجمعيات النقابية على هذه الصورة هو
ضرورة ادبية .

٣ - ان الكنيسة تحث الناس على انشاء جمعيات نقابية .

٤ - ترغب الكنيسة في ان تنشأ الجمعيات النقابية وتنظم على مبادئ
الدين المسيحي وقواعده الادبية .

٥ - ترغب الكنيسة في ان تكون الجمعيات النقابية ادوات وثام وسلام
ونذلك توعد بان تنشأ لجان مختلطة تكون كواسطة لاتحاد النقابات بعضها
مع بعض .

٦ - تقضل الكنيسة ان تكون النقابات التي يؤلفها الكاثوليكيون من
الكاثوليكين انفسهم ولا تتجاهل ابدأ ان تمت ضرورات تقضي بتأليفها على
غير هذه الصورة .

٧ - تسدي الكنيسة نصائحها بان يتحد جميع الكاثوليكين تشدهم
اواصر المحبة المسيحية في سبيل اتيان عمل مشترك ...

واليك الاسس التي اشار اليها الكاردينال موران MAURIN في اسدائه
نصائحها الى عمال الرون واللوار وعملها في حزيران سنة ١٩٣٦ بشأن
انضمامهم الى النقابات العمالية :

١ - لا يجوز الانتماء الى نقابة اشتراكية او شيوعية .

٢ - لا تستصوب الكنيسة الانتماء الى النقابات التي اطلق عليها اسم النقابات المهنية ولكنها ترغب في الانتماء الى النقابات المسيحية .

« لا يقوى العامل المسيحي ضميراً على الانتماء الى النقابات الاشتراكية والشيوعية ، اما اذا تساءلنا عن النقابات المسماة بالمهنية التي تنشأ الان وهي لا تبث اي شعور عدائي للكنيسة والدين وعما يكون موقفه حيالها ؟ فاقول ان هذه النقابات غير مستنكرة وليس بالامكان استنكارها ولذلك لا يخطر الانتماء اليها : وبما اننا نتوجه بكلامنا الى عمال مسيحيين فاننا نخضع بحرارة على تفضيل النقابات التي هدفها الدفاع عن المهنة وهي تهتم بالوقت نفسه للامور الدينية والاخلاقية كما تأمر الشريعة ، فهذه هي التوصيات التي ما انفك الاحبار الرومانيون عن الایعاز بها : ولقد قال البابا لاون الثالث عشر « خير للكاتوليكين ان ينضموا الى الكاثوليكين » وقال البابا بيوس العاشر : « ان الجمعيات العمالية التي نشأت واتخذت اساساً رئيسياً لها الايمان الكاثوليكي وتتبع صراحة توجيه الكنيسة وهدفها تهية المنافع الزمنية لاجسامها فهذه تستحق بدون تحفظ التأييد وينبغي ان ننظر اليها كخير جميع الوسائل لتأمين الفوائد الحقيقية الثابتة للمتممين اليها » .

ولقد استخدم بنديكتوس الخامس عشر وبيوس الحادي عشر اللغة نفسها واوصيا بالنقابات المسيحية على الاخص .

اجل ان الكنيسة لا تؤيد النقابات التي اطلق عليها اسم النقابات المحايدة والمستقلة ولا تجرأ على القول انها تمت بصلة الى التعليم المسيحي ولكنها تعلن ان النقابات المسيحية لا حيف عليها اذا ما تفاهت في بعض الظروف مع غيرها من النقابات .

« اما فيما يتعلق بقيام تفاهم بين النقابات اي المسيحية والمحايدة وحتى

الاشتراكية منها في سبيل الدفاع عن المصالح المشروعة» فلنذكر ان تفاهماً على هذه الصورة لا يجوز قيامه الا في بعض الحالات الخاصة : اي انه اذا كانت القضية التي يراد الدفاع عنها قضية عادلة وممع ذلك فيشترط ان يكون تفاهماً موقوتاً على ان تتخذ جميع الاحتياطات للتفادي عن مثل هذا التقارب « رسالة المجتمع المقدس الى الاسقف لينار » « Liénart »

والاعتصاب الذي نعده كالحرب او شراً منها والامساك عن العمل او البطالة المقصودة وهو جرح شديد الخطر كما قال البابا لاون الثالث عشر : « ان هذا الامساك عن العمل « البطالة » لا يتناول ارباب الاعمال والعمال وحدهم ولكنه يشل التجارة ويضر بمصالح المجتمع العامة ويتحول بسهولة الى اعمال العنف والمشاغبات ويهدد السلامة » « Rerum novarum » قد يكون مشروعاً في بعض الشروط التي نص عليها منذ امد بعيد الكاثوليكيون الاشتراكيون .
واليك هذه الشروط :

- ١ - اذا كان طابع الاعتصاب طابعاً مهنياً فقط .
 - ٢ - اذا استخدم الاعتصاب كوسيلة نهائية بعد استنفاد جميع الطرق المستخدمة لاحقاق الاتفاق .
 - ٣ - اذا ابتعد عن اللجوء الى اعمال العنف حيال الاشخاص وكل ما عيس الملكية .
 - ٤ - اذا كانت المطالب عادله .
- ان هذه الشروط هي التي تسوغ اللجوء الى اعلان الاعتصاب وذلك بصفة كونه السلاح الوحيد الذي في متناول العمال .
- وقد قال الكاردينال ماينغ MANNING في هذا الشأن لا يجوز التوسل باعمال العنف والتخريب فالاعتصاب غير مشروع اذا ارتدى طابعاً سياسياً

واعلنه اناس لا ينتمون الى المهنة او اذا اعلن من دون التوسل بمحاولات للاتفاق اي ان يقوم مندوبو العمال بتقديم مطالب عادلة بقصد الاتفاق عليها عن طريق تحكيم اناس من ذوي الكفاءة او اذا صحبته اعمال العنف كاحتلال المصانع والتعدي على حرية العمل او اذا كانت المطالب غير عادلة . ومن خصائص النقابات المسيحية - وان كانت لا تقل تصلباً عن غيرها في المطالبة بحقوق العمال - ان تسعى دائماً الى ايجاد قاعدة للتفاهم مع اصحاب الاعمال في سبيل ترقية المهنة .

ولئن شاء البشر ان يتفادوا عن منازعاتهم على قدر المستطاع فمن الواجب ان يعملوا منظمين تنظيمياً كاملاً من الناحية المهنية . او عن طريق اتحاد النقابات او من الناحية الوطنية او الدولية اي : انه من الواجب تحسين التشريع الاجتماعي .

وليس من تعليم تام كامل ينهض بالتشريع الاجتماعي خير من تعليم الكنيسة التي حددت العلائق الاجتماعية الاخلاقية برومتها من الناحية الروحية فلم تنحز لا الى جانب ارباب الاعمال ولا الى جانب العمال لتتكر مساوي النظامين الرأسمالي والاشتراكي الشيوعي معاً .

وفي سبيل الاتيان بالحجة التي لا تدحض على عدم تحيز الكنيسة الى جانب دون آخر يكفي ان نلقي نظرة مثلاً عما يفهم به الرأسمالي والاشتراكي الاجرة العدل . فالاول يعتبرها الاجرة التي يعرضها صاحب العمل على العامل ويرضى بها هذا الاخير والثاني الاجرة المفروضة فرضاً على رب العمل ليدفعها الى عامله اما الكاثوليكي الاجتماعي فلا يعتبر الاجرة عدلاً الا متى خولت العامل صاحب الوجدان تأمين حياته وحياة عيلته .

ويسعنا ان نسرد امثالا عدة على هذه الامور مثلاً : بصدد الملكية

ورأس المال المشروعين ودور النقابات والاعتصاب المشروع وتقدير قيمة الاجور والتفاوت الاجتماعي وعلاقات العمل برأس المال ... ففي جميع هذه الشؤون يقف الكاثوليكيون الاجتماعيون موقف الاعتدال ويأخذون بعين الاعتبار الحد الاوسط مستندين في كل منها الى القواعد الاخلاقية لاصدار احتكاماتهم ، لان الكاثوليكية الاجتماعية تقول بافضلية المصلحة العامة على الخاصة ومصلحة الاكثرية على المنافع الطبقية « الانانية » وبافضلية الانسان على المادة والروح على الامور الزمنية .

وفي القسم الثالث من براءة البابا بيوس الحادي عشر المسماة « Divini Redemptoris » نرى الحدود التي وضعها لاساس النظام الاجتماعي الروحية ودعاها مفهوم « المدينة الانسانية » الصحيح : « للانسان نفس روحية خالدة فهو شخص زوده الباري ترويداً عجبياً بنفس وجسد وهو حقاً عالم صغير كما كان يقول القدماء وهو لوحده اثنان بكثير من الكون الفسيفسائي وليس له في هذه الحياة وفي الاخرى الا غاية واحدة هي الله وقد رفع بالنعمة المبررة ليكون خليقاً بابن الله وادمج بمملكة الله بالكنيسة جسم المسيح ولهذا قد مهره الخالق بامتيازات عدة مختلفة : كالخلق في الحياة وفي سلامة الجسد وبالوسائل الضرورية لقوام معيشته والسعي الى غايته الاخيرة بالطريق التي خطها الله له وبالخلق في انشاء الجمعيات والملكية واستخدامها . وبما ان الزواج والحق في ممارسته هما من منشأ الهي فان انشأ العيلة وميزاتها الاساسية قد حددها الخالق نفسه وقررها لا الارادة الانسانية ولا الوقائع الاقتصادية .

ولقد تبسطنا باسهاب في براءتنا السابقة بشأن الزواج المسيحي في كل هذه الامور « ان المجتمع هو الوسيلة الطبيعية التي يستطيع المرء ان يستخدمها ومن واجبه استخدامها في سبيل الوصول الى غايته لانه قد خلق للانسان ولم يخلق الانسان له ولا يفيد هذا مطلقاً ان المجتمع يخضع

لمصلحة الفرد الانانية كما يفهم بذلك النظام الاقتصادي الحر بيد ان التعاون المتبادل مع المجتمع بواسطة الاتحاد به فيجعل تحقيق الغبطة الحقيقية على الارض ممكناً للجميع وهذا ما يفيد ايضاً ان جميع المؤهبات الفردية والاجتماعية التي وهبتها الطبيعة للانسان تنمو فيه وهي مؤهبات تفوق الفائدة الآتية المباشر وتعكس كمال الله على المجتمع - وانه لمن مستحيل على الانسان لو ظل فريداً ان يحقق ذلك فهدف المجتمع الذي امر به الانسان هو الوصول الى هذا التحليل الاخير حتى اذا ما ادرك انعكاس الكمالات الالهية ارتفع بحمده وعبادته الى خالقه، فالموهوب العقل والارادة، والحر اديباً هو هو الشخص الانساني وحده وليست الامة بذاتها . وكما ان الانسان لا يستطيع التهرب من الموجبات التي تربطه بالمجتمع المدني بحسب مشيئة الله وكما ان لمثلي السلطة الحق في ان يكرهه على انجاز موجباته اذا ما رفض التقيد بها من دون سبب مشروع فكذلك لا يقوى على حرمان المرء حقوقه الشخصية التي منحه اياها الخالق - وقد امرنا الى اهمها فيما سبق من كلامنا - ولا يستطيع مبدئياً ان يجعل ممارستها متمتعة عليه ، الخلاصة انه لا يخرج عن نطاق المعقول ولا عن مستلزماته ان تكون جميع الشؤون الارضية منسقة مع الشخص الانساني تنسيقاً يرجع بواسطته الى خالقه ، فان ما كتبه رسول الوثنيين الى اهل كورنثس بشأن قضية الخلاص ينطبق حقيقة على الانسان والشخص الانساني : « كل شيء لكم وانتم للمسيح والمسيح لله » اما الشيوعية التي تقلب تنظيم العلاقات بين البشر والمجتمع رأساً على عقب فتفقّر الشخص الانساني اما العقل والوحي فهي الذرى التي ترفعه اليها « من الفقرة ٢٧ - ٣٠ »

أفلا نرى في انتهاج النظام الاقتصادي الاجتماعي هذا المنهج ؟ ما يظهر حق العمل وجدارته والاخاء الانساني وضرورة التعاون والدور الذي يعود الى الدولة في صيانة المصالح العامة واحترام الكرامة الانسانية وما يتضح مفهوماً للمجتمع متناسقاً متساوياً الدرجات والتنظيم

وبما جاء في الفقرتين الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين في البراءة المسماة « Divini Redemptoris » « لا تقوم وسائل انقاذ العالم الحالي من الدمار الذي القاه فيه النظام الرأسمالي الحر المنافي للقواعد الاخلاقية » على نضال الطبقات ولا على الارهاب كما لا تقوم مطلقاً على تصرف ساطة الدولة تصرفاً اوتوقراطياً ملتوياً وانما على اصلاح النظام الاقتصادي اصلاحاً مستوحياً من الانصاف الاجتماعي وشعور المحبة المسيحية .

ولقد اوضحنا الكيفية التي ينبغي ان يقوم عليها الازدهار الصحيح على اساس ومبادئ التعاون الحقيقي الذي يحترم تساوق الدرجات الاجتماعية الضرورية وكيف ينبغي لكل الجمعيات التعاونية ان تنتظم في اتحاد منسجم مستلهم من مصلحة المجتمع العامة . وان مهمة السلطة المدنية الرئيسية الصحيحة كل الصحة تقوم على ترقية هذا الانسجام ترقية عملية وتنسيق كل القوى الاجتماعية .

وفي سبيل تحقيق هذا التعاون العضوي وهذا الانسجام السلمي يطالب التعليم الكاثوليكي بالخاف بان يكون للدولة جدارة محامي الحقوق الالهية والانسانية اليقظ وسلطته اللذان تكلمت غالباً الكتب المقدسة وآباء الكنيسة عليها .

وانه من الخطا ان يكون لجميع الناس الحقوق نفسها في المجتمع المدني وان لا يكون فيه تسلسل درجات مشروع ، وحسبنا التذكير ببراءاتي لاون الثالث عشر المشار اليها انفاً ولا سيما ببراءته المتعلقة بسلطة الدولة التي تعالج كيفية الدولة المسيحية . فان هاتين البراءتين تبسطان بوضوح امام الكاثوليكي مبادئ العقل والايمان وتبين ما فيها من قوة تجعله حذراً من الضلال ومن خطر مفهوم الدولة البولشفي . وان اغتصاب الحقوق واستعباد الانسان وانكار مبدأ الدولة الاسمي وسلطتها وسوء استخدام الساطة واحلال الارهاب الاجماعي الخفيف محلها لامور تنافي كل المنافاة القواعد الاخلاقية

الطبيعية ومشيمة الخالق فالجتميع المدني والشخص الانساني مستمد منشأها من الله وقد اتسقا معه على التبادل ولذلك لا يستطيع احدهما الاستغناء عن موجباته حيال الآخر ولا ان ينكرها او يقللها . ولقد نظم الباري هذه العلاقات المتبادلة في خطوطها الجوهرية فعندما تقرض الشيوعية برنامج حزب سياسي مصدره الاعتباط الانساني وقد افعمه البغض بدلاً من الشريعة الالهية والمحبة فانها ترتكب عملاً اغصابياً ظالماً .

« ليست القضية الاجتماعية في نظرنا قضية اقتصادية » قضية النقود « ولا قضية سياسية » قضية تنظيم وقوة وانما هي قبل اي امر آخر كان قضية انسانية فلذلك هي قضية اخلاقية - « ان القضية المثارة من طبيعتها يستحيل ايجاد حل لها يكون حلاً مجدياً من دون العودة الى الكنيسة والايان على الاقل . . . فالانجيل هو القانون الوحيد المشتمل على مبادئ العدل الحقيقي للمؤمنين بها وعلى قواعد تبادل المحبة التي يجب ان توحد جميع البشر كأبناء اب واحد واعضاء اسرة واحدة . . . فعليه تقوم مهمة الكنيسة على ان تبشر العالم كله اجمع بهذه المبادئ والتعاليم وتنشرها فيه »
« ليون الثالث عشر Perum novarum »

اجل ان الكنيسة لتعطف على الشعب عطف الام على بنيتها .
« ولقد كانت الشعب دائماً عزيزاً على الكنيسة التي هي امه : فالعامل الذي يتألم لانه قد اهل او لكونه قد ارهق من الواجب ان يحاط بضروب العناية المستمرة المفعمة بالعطف لكي ينهض من المازق الحرج الذي صار الية ويخرج منه بدون ان يلجأ الى اعمال العنف ساعياً لتقلب النظام الاجماعي » « لاون الثالث عشر Rerum novarum »

الخرصة

يقوم بين النظامين اللذين اشرنا اليهما صراط سوي سليم العواقب مضمون النتائج بمقدور الناس ان يسلكوه ليجنبوا الانسانية اجحاف النظام الاقتصادي الحر وشوايب النظام الاشتراكي الشيوعي العلمي .

وليس من ريب في ان النظام الحر اصبح غير صالح لتسيير البشرية بموجبه بسبب تكاليه عن تكديس المادة وامتثانه الكرامة الانسانية واعتباره النقود فوق كل شيء . اما النظام الاشتراكي الشيوعي فنزاع الى تحطيم كل ما هو قائم تحطيماً لا مبرر له غير النظريات الواهية اما النظامان فقد اتسم كلاهما بطابع صوفية القوة الاول : قوة النقود والثاني القوة العددية متشبعين بالاثرة الجشعة اثره الذين يقبضون على اوفر الغنائم واثرة البغضاء بغضاء الذين حل الاملاق بساحتهم وعضتهم البأساً بانباها الحادة .

وبين هذين المذهبين الاقتصاديين اللذين يتجاذبان العالم برومته ليزجا به في اتون حرب ضروس لا تبقي ولا تذر يقوم مذهب امثل او طريق اسلم عاقبة وهو الحد الوسط بين الرجعى والثورة لانه يناهض جموح النظام الاقتصادي الحر ويشجب مبدأ نضال الطبقات الثوري .

ولقد دلل هذا النظام على انه من خير المذاهب الانشائية اذا ما اشتدت الضائقات الاقتصادية واخذت بتلايب البشر لانه يصف انجع العلاجات المعقولة ولا يستبق الطبيعة ليسير بوعي وتؤدة ويحقق اوسع الاصلاحات الممكنة من دون ان يتخطى سنن الارتقاء والتطور .

واصحاب هذا المذهب لا يستندون الى احلام واهمة ولا يخدعهم سراب النظريات الغامضة ويعلمون الناس ما يسع الناس ان ينتظروا من انسانية ثقلت كواهلها المعصية ولا يصدقون ان الجنة في هذه الارض ويؤمنون بقوة الخيرة الانجيلية خيرة الخلاص التي اوجدها المسيح في العالم فلا ينحازون الى اساليب المجتمع الراهنة الزائفة بل يحاولون ان يعيشوا في صدره روح العدل والمحبة فيجعلوه بذلك اشد صلاحاً لسكنى الناس .

ولست اعني بهذا المذهب الوسط الا التعاليم الاجتماعية التي اعلنتها السدة الرسولية وطلبت من كل العالم ان يتمشى عليها لان موقفها قد انبثق من تعاليم الانجيل ليدعو البشر اصحاب النيات الحسنة الى السير في طريق التقدم الاجتماعي الحقيقي ويحذرهم من غشم المذهب الاقتصادي الحر المتطرف في تكالبه على المادة ليحلها في المكان الارفع ومن تطرف المذهب الاشتراكي الشيوعي الذي يريد تحطيم الماضي بمرته تحطيماً لا هواده فيه من دون ان يأخذ بعين الاعتبار مستلزمات سنن التطور .

والتعاليم الاجتماعية التي تستند الى العدل والمحبة مستمدة بمرمتها من الخطبة على الجبل ، تلك الخطبة التي جعلت الانسان في مقامه الحقيقي .

ولقد حرصت الكنيسة الرومانية ، الحرص كل الحرص على ان يسير الناس المخلصون ولا سيما الكاثوليك منهم في طليعة الداعين الى انتهاز سبيل التقدم الاجتماعي الحقيقي :

« من واجب الكاثوليك ان يتخذوا المبادرة بنظر صائب وشجاعة ووفقاً للتعليم الذي عرضناه في برآءاتنا بمباشرتهم ضروب التقدم الاجتماعي الحقيقية وان يبدوا مدافعين صبورين ويسدوا ناصحهم للضعفاء والمحرومين فيقوموا في الطليعة بين الذين صفت نياتهم ، حرصاً على ان تسود مبادئ العدل

والحضارة المسيحية الخالدة في كل مكان وضد اعداء كل نظام
(٦ كانون الثاني ١٨٩٦)

والامر الذي لا يأتيه الباطل هو ان من انتهج هذه الاشتراكية المتزنة
لا بد له من ان يتعطش تعطشاً صحيحاً ليفكر على شاكلة امبير
« Ampère » الذي كان يقول : « لو فزت بكل ما ارغب فيه بهذا العالم
لاكون سعيداً ، لكنني اشعر بانني ما بروت افتقر الى كل شيء : الا
وهو سعادة غيري .

اجل ان سلامة المجتمع لا تستطيع ان تقوم الا على القاعدة المستمدة
من المحبة التي لا تميز شخصاً عن اخر بل تعتبر جميع البشر اخواناً لا
تخط جدارتهم كبشر بعضهم عن بعض .

ولئن انتقدنا الانظمة القائمة واصحاب المذاهب الاجتماعية ومعلميها فالتنا
لنحرص على القول باننا لم ننتقد الاشخاص ولم نشاء ان نخط من شأنهم
بل اردنا ان نبين ما في الاساليب المتبعة وما في المبادئ القائمة من زيف
والتواء اذ ليس غرضنا ان نتخذ موقف الحامي لعدد اخطاء ارباب الاعمال
والعمال ولا تحيز اصحاب النظم الاقتصادية من حر واشتراكي وغيرهما بل
اردنا فقط الاشارة الى المساوي لنصف لها العلاجات الناجعة فنقدع بعهد
ذلك الحرية لكل منهم فيعود الى فحص ضميره .

ولقد كان جل عملنا قائماً على الاشارة الى العلاجات الضرورية للحالة
الراهنة التي يكابد البشر مغباتها .

اجل اننا لم نفكر قط في توجيه اللوم الى الطبقات البائسة المتألدة
لنجعلها مسؤولة عن الامها ولا ابتغينا تقديم خدمة لذوي القلوب المثجيرة
الذين يظنون انهم غير مسؤولين عن مساعدة الفقير عندما اوضحنا اخطأهم !

ولا نخالنا نرتكب امراً اذا ما اشرنا الى عدم مبالاة هؤلاء
الراسمالين بحاجات عمالهم الادبية والى جشع ارباب الصناعة الذين رفضوا
على عمالهم حقوقهم الطبيعية التي تخولهم الخروج من وضعهم الآلي البائس .
ولئن كان ثمة امر يستوجب الشجب فاعمال بعض ذوي المصانع الذين
يساعدون على انتشار الرذيلة والفساد في مصانعهم مساعدة تمنع العامل
ادخار بعض الوفر من اجرتة وتقضي به الى عدم الاعتدال في سلوكه على
اعتقاد منهم انه اذا ما استسلم الى اتباع ملذاته كان اسلس قياداً لهم وبات
تحت سيطرتهم المطلقة فلا يخالف لهم امراً !

ومما قاله الاديب الكبير فيلرمه « Villermé » في هذا الصدد : « اما
الذي نسينا الاشارة اليه الآن فليست اخطأ الرجال الشخصية التي لا تقوى
على شيء حيالها بل عجز الانظمة عن صيانة الاخلاق وعن منع تسري
الفساد تسرياً مفضياً الى افقار الطبقات العاملة ، ووقوف السلطات العامة
مكتوفة الايدي تقريباً فلا تقدم على تعليم العمال او بالاحرى لا تقدم
على اغنائهم » « Ozanam, Mélanges, T. I. p. 250 » .

ولئن ذكرنا في هذا الباب امراً جديراً بلفت النظر فلا مندوحة لنا
عن الاشارة الى ما جاء في خطاب فرانسوا سان مور François
Saint-Maure الذي القاه بمجلس شيوخ فرنسا في السادس عشر من حزيران
سنة ١٩٣٦ :

« هناك رأسمالية لا بد لنا من شجبها وهي الرأسمالية المغفلة الطفيلية المضاربة
التي لا تأخذ بعين الاعتبار الا ميزانيتها فقط ولا تنظر الى وظيفة العامل الا بمثابة
رقم على حين ان وراء هذه الوظائف رجالا يشقون ويجاهدون في سبيل اعاشة
عيالهم بواسطة ما يتناولونه من اجرة هي غالباً موزعة بكل شح عليهم .

فان الرأسمالية التي تستولي عليها الاوليفارشية لكي لا تكون مسؤولة هي الشكل الاقتصادي اللا انساني ، واعني بذلك انها الرأسمالية التي لا تهتم اهتماماً كافياً بالانسان ...

وهناك رأسمالية اخرى هي الرأسمالية الصحيحة الشريفة المنتجة اي رأسمالية الرجل الذي يعمل بموارده او بالموارد التي عهد بها اليه الذين اولوه ثقتهم ويجد وينتج لا في سبيل نفسه فقط ولكن في سبيل جميع الذين يوزرونه من العمال ويشركهم بانتاجه ...

فالرأسمالية الاولى هي التي اطلقوا عليها اليوم الاسم العلمي « فيرم » اي صندوق الاستغلال والثانية هي التي يسمونها رأسمالية « صاحب العمل » (Patron)

والامر الراهن الاكيد هو ان اباحة المنافسة وفتح باب التزاحم على مصراعيه قد افضى الى انكماش الصناعة عن التوسيع على عمالها ، توسيعا تقضي به الاوضاع الحيوية المعاشية .

وحيال هذه المصاعب التي حتمتها الانظمة الاقتصادية العالمية القائمة كان لا بد للاجتماعية الرومانية من ان تستمد من تعاليم الانجيل الحلول الصحيحة التي تحفظ للانسان كرامته وتؤمن له حقوقه الطبيعية ، تأمينا لو اطلع عليه الكثيرون من معتنقي المبادئ الثورية لرجعوا عن اعتقادهم ولا عتوتهم الدهشة عندما يرون في البراءات الرسولية العلاجات التي يبحثون عنها لدى المفكرين البعيدين عن الواقع .

وحسبنا في هذا الباب الاشارة الى الاصلاحات الجوهرية التي تبنتها الحكومات الراقية وقد استمدتها من التعليم الاجتماعي الذي نادت به الكنيسة الرومانية :

وبفضل تبني الحكومة البورغوازية مثلاً نظاماً اقتصادياً ينطبق بحذافيره على ما اعلنته البراءات الاجتماعية الرسولية تمكنت من ان تجنب بلادها ويلات حروبين .

وبفضل تبني الدولة الارجنتينية انظمة العمل التي اوضحتها براءات الاجبار الرومانيين استطاع الجنرال بيرون ان يؤمن رفاهية عمال بلاده وان يجعل انسجاماً بين الانتاج والاستهلاك :

وهاك أهم النقاط التي جاءت في شرعة حقوق العامل الارجنتيني وكلها لا تختلف في شيء عما حددته التعاليم الاجتماعية الكاثوليكية .

١ - العمل الذريعة التي لا بد منها لتأمين الضرورات الروحية والمادية للفرد والجماعة فعلى المجتمع ان يحفظ حق العمل ويؤمن لكل ذي عوز عملاً .

٢ - اجرة العامل ينبغي تسد حاجاته المعنوية والمادية بالتناسب مع انتاجه وجهده .

٣ - اقل ما ينبغي للعمال ان يفوزوا به هو مأواهم وغداؤهم الكافي مع عيالتهم من دون عناء ... الخ

والمبادئ التي اعلنها البابا لاون الثالث عشر في براءته (Rerum Novarum) هي المبادئ التي تبنتها الدول التي وقعت معاهدة الصلح الاولى سنة ١٩١٩ .

كاحترام الشخص الانساني ، والحق في المشاركة ، والاجرة العدل وساعات العمل الثافي، وعطلة يوم الاحد وعمل الاطفال ، وقرار التفقيش على العمل .

وها هي ذي الولايات المتحدة الاميركية ذات اكبر صناعة عالمية قد اقرت في شرعتها حقوق العامل بالاستناد الى التعاليم الاجتماعية التي حددتها البراءات الرسولية :

والدولة البريطانية في انتهاجها طريقة ارغام المعامل على دفع المعاشات التقاعدية لعمالها وتأمين المعالجات الطبية ... الخ لم تخرج عن تبني التعاليم التي ما فتىء الاحبار الرومانيون يواصلون الدعوة لها .

وعلى شاكلة جميع الدول العظمى كانت الامة الفرنسية في طليعة الامم

التي عملت على اقرار تشريع الانصاف الاجتماعي .

ولا بد لنا في هذا الصدد من التمييز بين الذين انخدعوا بالظواهر البراقة وهم من ذوي النيات الحسنة وبين الضلال نفسه ، فقد اتفق لي شخصياً ان قابلت كاهناً القى رياضة روحية في احدى القرى اللبنانية ابناؤها جميعاً من معتنقي المذهب الشيوعي ، فتناول في عظاته الشؤون الاجتماعية وكان اذا ما خرج من الكنيسة يلتف اولئك الرجال حوله ويناقشونه اقواله حتى اذا ما فرغ من اعطاء رياضته ووضح لهم تعاليم الكنيسة الاجتماعية الداعية الى اشراك العامل برأس مال صاحب العمل اقلع منهم تسعون بالمئة عن اعتقاداتهم السابقة .

اجل ان رئيس الكنيسة الرومانية ليس ذلك الرجل الذي اعتصم ببروجه العاجي في الفاتيكان لينصرف الى الصلاة واهداء بركة الرسولية للحجاج ولا هو ذلك الفيلسوف الذي يعيش في عزلة عن العالم ليعلمن من وقت الى آخر مبادئ اخلاقية غامضة لا تأثير مباشر لها على منازعات البشر الاجتماعية فهو بصفة كونه رئيساً روحياً يعيش في قلب الحياة العصرية ويشعر شعوراً قوياً بما ينتاب عالمنا الحالي من غصص . ليشرف من عل ويتجرد تام وبعطف ابوي على اوصاب البشر ويضع لهم حلولاً لمعضلاتهم رائدها الخير العام .

وفي هذا الصدد قال الاسقف جرمان Germain : « لم يشاء البابا لاون الثالث عشر العظيم ان يقبع الدين في معبد مغلق من دون نظر او عمل : فقد ايد حق الكنيسة بالتدخل في النزاع بين رأس المال والعمل : اي القضية الادبية او « الدينية » . والذي ينعم النظر في براءة البابا بيوس الحادي عشر Quadragesimo Anno يرى فيه رجل العصر الذي يلم اكثر من اي انسان اخر كان بالقضية الاجتماعية القائمة ليعالجها بوضوح وبمنظر صائب ويصف لها انجع العلاجات واصلها واجداها وكلها علاجات تشكل

الاركان الاساسية في البنيان الاجتماعي .

وهاك ما كتبه مجلة بوبولاير Populaire في عددها للخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩٣١ : « ان الجبر الاعظم لا يغيب عنه شيء من تطورات العالم الحالي فهو ادرى الناس بالشكل الاجتماعي الذي شيده المجتمع الراسمالي .

وجاء في البراءة « Divini Redemptoris » : « في سبيل اقرار السلام العالمي الذي اوجدنا خطوطه الكبرى باستخدام العلاجات التي وصفناها باختصار ان المسؤولين هم الكهنة والرسل والعملة الانجيليون الذين عينهم السيد المسيح . وبالدرجة الاولى الكهنة ... فنحن نذكر بصورة خاصة بالتحضيض الذي حضه سلفنا وردده غالباً البابا لاون الثالث عشر بالذهاب الى العامل فنحن نتبنى هذا التحضيض وتنميه : « اذهبوا الى العامل وبخاصة الى العامل الفقير او الى الفقير متبعين في ذلك تعليم المسيح والكنيسة . فالفقراء هم اشد الناس عرضة للوقوع في فخاخ مثيري الاضطراب ليستغلوا اوضاعهم البائسة ويحملوهم على ان يستولوا بالقوة على ما يظنون ان القدر قد اباه ظلماً عليهم » .

ولقد بلغ اهتمام الكنيسة لامر العمال والترويج عنهم مبلغاً حملها على ايجاد مرسلين خاصين للعمل انتشروا في كثير من الرعايا الاوربية وعقبتهم من مهامهم الوعائية ليقفوا النفس على الاهتمام بالامور الاجتماعية ويتثقفوا ثقافة تنطبق على اختصاصهم هذا :

« لا يستطيع المجمع المقدس الا امتداح اساقفة المنطقة الشالية لانهم عهدوا الى كهنة اكفاء غيورين امر مساعدة قادة النقابات واعضاء روحياً في الشؤون التي تشتمل على المبادئ الاخلاقية :

وهو يوّد ان يعين الاساقفة من المناطق الاخرى كهنة « مرسلي عمل »

يوقون الشعوب من الاستسلام الى التهاميل ومن مضار الخطر الاستراكي الشيوعي وذلك تدليلا على ما تكنه الكنيسة من عطف على ما يحف بالعمال من آلام^(١).

ومنذ اكثر من قرن اي في سنة ١٨٣٢ لفت اوزنام «OZANAM» النظر الى هذا الامر اذ قال :

« من واجب المؤمنين ان يستشعروا المعنى الاجتماعي فلا يقبعوا في مفاهيمهم الانانية سواء أكان ذلك من حيث الدين ام من حيث المجتمع . وقال الاسقف جيبية « Gibier » « باستطاعتنا ان يكون لدينا مفهوم مزدوج للانسان : المفهوم الفردي والمفهوم التضامني :

هذا رجل فقير يعيش معيشة اشبه بالبؤس منها بالحياة وهو بحاجة ماسة الى المساعدة فاذا ما استوحيت المفهوم الفردي فانا اكتفي بان اقدم له الخبز واللباس والمسكن واذا ما استندت الى المفهوم التضامني فاعمد الى انعاش محيطه العيلى والمهني واحاول ان اجعل عمله دائما واجرته مرتفعة واساعده على الخروج من مأزق فقره وعلى ان يتحسن وضعه وذلك من جراء نفوذي في المجتمع الذي هو احد اعضائه .

والذي يستوجهه منا الصدق هو الاعتراف بان ثمة كثيرين ولا سيما في بلادنا ممن لم يقوموا باداء واجبهم بعد ليقبعوا في مسيحية سطحية انكماشية شعائرية .

ولقد اتفق في بعض الاوساط ان قلب بعضهم شفتيه لهذا التعليم الاجتماعي وناهضوا الذين جرأوا على المجاهرة به وشنوها عليهم حربا شعواء مما حمل البابا على توجيه لومه العنيف اليهم .

1) Lettre de la Sacrée Congrégation du Concile au Cardinal Liénart
3 juin 1929.

« ... نحن نتوجه خاصة اليكم يا ارباب الاعمال واولي الصناعة ذوي المهمة الصعبة غالباً لانكم تحملون ارث اوزار نظام اقتصادي ثقیل كانت له مضاره عبر اجيال عدة : ففكروا في مسؤولياتكم ،

ومن نكد الحظ : ان بعض الاوساط الكاثوليكية قد ساهمت حقاً في زعزعة ثقة العمال بدين يسوع المسيح لانهم لم يريدوا الفهم ان المحبة المسيحية تقتضيهم الاعتراف ببعض حقوق العامل مع ان الكنيسة قد اعترفت لهم بها صراحة .

« وماذا ينبغي لنا ان نفكر في مناورات بعض ارباب العمل الكاثوليكين الذين نجحوا ببعض الاماكن لمنع قراءة براءتنا Quadra- gesimo Anno في كنائسهم الرعائية ؟

وما القول في اولئك الصناعيين الكاثوليكين الذين ما فتشوا حتى الان يبدون عداؤهم لحركة عمالية قد اوصينا بها نحن ؟

ان الباعت على الاسى هو اساءتهم احياناً استخدام حق الملكية الذي اعترفت به الكنيسة لكي يجرموا العامل اجرته العدل والحقوق العائدة اليه (بيوس الحادي عشر) (Divini Redemptoris N. 50) .

فهل يغيب عنا بعد مبلغ الألم الذي جزّ قلب البابا ليعت ببراءة رسمية يشجب فيها مواقف بعض ابنائه ؟

ولقد حث بدعوة الجميع على مضاعفة الجد في العمل الكاثوليكي هذا بالمستقبل في براءته « Divini Redemptoris » .

« بعد ندائنا هذا للاكليركين نوجه دعوتنا الى اولادنا الاعزاء العلمانيين المجاهدين في صفوف هذا العمل الكاثوليكي العالي علينا جداً والذي دعواناه في غير موضع « مساعدة العناية الخاصة » لعمل الكنيسة في هذه الظروف

العصية .

ان العمل الكاثوليكي هو رسالة اجتماعية ايضاً لانه يرمي الى نشر ملكوت يسوع المسيح ليس بين الافراد فقط بل في العيال والمجتمع ، وعليه ان يعنى اولا وخاصة بتثقيف اعضائه واعدادهم لمعارك السيد المسيح المقدسة ويستخدم- في سبيل هذا التثقيف الضروري الملح اكثر من اي وقت كان ليؤثر مباشرة تأثيراً فعالاً ، اندية دراسات الاسبوع الاجتماعي والقضاء المحاضرات المنظمة واستخدام كل المشروعات المشابهة التي من شأنها تعريف الحل المسيحي للمعضلات الاجتماعية .

« ان جميع مجاهدي العمل الكاثوليكي الذين تأهبوا وتدريبوا على هذه الصورة تأهباً حسناً سيكونون من الرسل الاولين بين رفاقهم في العمل ويصبحون خير معوان للكاهن في حمل نبؤاس الحقيقة ليخففوا ضروب البؤس المادية والروحية في مناطق عدة تشربت افكاراً خاطئة ضد الاكليريكيين واعتورها حمول باعث على الغم جعلها تنحرف عن عمل خدام الله فالتأزر على هذه الصورة برعاية كهنة مجريين تجريباً خصوصياً بهذه المساعدة الدينية للطبقة العاملة الغالية على قلبنا هو بمثابة وسيلة من انجح الوسائل لوقاية هؤلاء الابناء المحبوبين من فخاخ الشيوعية .

« وما عدا هذه الرسالة الفردية الحفية غالباً ثمة دور العمل الكاثوليكي المفيد كل الفائدة والشديد الفعالية في نشر المبادئ المنبعثة من البراءات الحبرية انتشاراً واسعاً بواسطة الكلام او القلم لتستخدم في سبيل انشاء نظام اجتماعي مسيحي فنحن الآن في ثنية من اعظم ثنيتات التاريخ خطورة . اذ هناك ضرب من الرأسمالية قد افلس ولسنا نحن الكاثوليكيين ممن سيكون عليه بعد ان جعلت هذه الرأسمالية نفسها علمانية الى اقصى حدود العلمانية ووثنية من الوجهة الاجتماعية .

ومن المهم ان نقتنع باننا لا نقوم امام اهتزازة بسيطة من اهزازات
الثقل البرلماني فنحن امام عرض مرضي - ليس الاول والوحيد - ليندونا
بتبدل واحد من تبدلات المجتمع التي نسميها باسمها : الا وهي الثورة .
افتكون هذه الثورة الطالعة ثورة سامية ومفيدة ؟ ام على العكس عنيفة
هدامة ؟ . . .

نعم من واجبي ان اقول هذا القول لانني اتوخي الصدق في اعلانات
الحقيقة ، لان ثمة مبادئ لا نستطيع المهادنة بامرها لانها تتصل بالحقوق المقدسة
في نظرنا : حقوق الشخص الانساني والعملة والوطن والله وهي في اعتقادنا
مبادئ لا تتواءم مع النظام الاجتماعي القائم الذي بدأت تعتريه سمات
الموت لانه تجاهل هذه المبادئ السامية وتجاوز عليها .

« فنظامنا الاجتماعي الذي يبدو لنا بمثابة معقل علينا ان نذافع عنه
بكل مقدورنا وبعرق القربة هو نظام من سوء الحظ موسوم بالظلم والجشع
ليترآى لنا كأنه القوضى التي لا بد لنا من اصلاحها . . . »

من خطاب القاہ في الندوة النيابية الفرنسية غرافنايزون Le Cour
« Grandmasion وهل نظام الرأسمال والاجور نظام الحق المطلق الذي
لا يجوز مسه ؟

« ما من احد من رجال الكنيسة يدعم هذا النظام فالبلديعية الاساسية
هي ان الانسانية لا بد لها من ان تعيش وفي سبيل الوصول الى هذه
الغاية من الواجب توزيع الثروة توزيعاً ملائماً اما تنظيم الرأسمالية لتوزيع
الاجور والثروة فلم يثمر ثمرأً صحيحاً ولا يبدو لنا ان توزيع الشيوعية
لها سيكون افضل من توزيع الرأسمالية بل على العكس .

وما من سبب يبرر عدم ادخال تطورات على النظام الرأسمالي ليجعله
قائماً على خدمة الجمهور اما الرأسمالية البسيطة التي يديرها افراد فليست

بالرأسمالية التي احتفظ فيها بعضهم بامتيازات مجففة على نفقة الضعفاء الذين سحقهم سحقاً فالأولى بالاستطاعة الاحتفاظ بها في الاقتصاديات العالمية اما الثانية فمن الواجب ان تندثر والا اندثرت معها الانسانية « ان العالم الاقتصادي الاجتماعي قد انتابه داء عضال فلا تؤدي الاشتراكية التي تزعم انها واجدة للجميع مستوى واحداً ولا الرأسمالية الحرة الا الى الاجهاز عليه ، ولا يستطيع اعادته الى الاستواء على محوره الا تعليم رأسمالية معقول سمح عادل نزيه .

فعلى الرأسمالية ان تتذكر كل طبقات المجتمع فتوزع الثروات توزيعاً رائده الانصاف اما وظيفة الدولة فتقوم على ان تقرض ذلك فرضاً عليها بيد انها تظل عاجزة عن اداء هذه المهمة ما لم تضع قوانين اجتماعية تستند اليها كما تستند الرافعة الى نقطة ارتكازها في انهاض الاثقال ،

وان القرن العشرين الذي كانت الحرب مستهلة فسيصبح له ميزاته ، التي تجعل بمقدورنا التأكيد انه قرن جديد عليه ان يكون اشد اجتماعياً واقل صناعة والا غداً قرناً ثورياً شيوعياً « Le Cardinal Villeneuve, arche-
vêque de Quebec Conférence à la Chambre de Commerce de Quebec. »

ولقد اصبح من الواجب ان يفكر ذوو للنيات الحسنة تفكيراً جدياً في امر جبه المستقبل وفي النظام الجديد الذي يتوخى الانصاف الاجتماعي ليقم اركانه على الجدارة الانسانية واسسه على قواعد العدل السامية التي اعلنها الانجيل لان مفهوم الحياة الموضوعي هو مفهوم ادبي يشتمل على كل واقعها وعلى نشاط الانسانية فلا يقوى اي عمل كان على التملص من الازعان للقواعد الاخلاقية ولا يستطيع نظام من الانظمة حرمان الامة قيمتها بالنسبة الى وظائفها كغايات ادبية ، لان للحياة التي لا بد من قضائها في عالم يرتكز على نواميس الروح الادبية غاية دينية خطيرة ،

ومن المستحيل ان نعتبر الانسان من دون النظر الى الناموس الاسمي وارتباطه به بارادته الموضوعية التي تسمو بالفرد وترفعه الى مقام عضو شاعر من اعضاء مجتمع فكري .

اما من حيث المفهوم التاريخي الذي لا يكون الانسان بموجبه غير ما هو عليه بالنظر الى الجهاز الروحي الذي يساهم فيه اجتماعياً كالعملية والامة فانه لمشترك من هذه الناحية مع جميع افراد الامم الاخرى ومن ذلك كانت القيمة الرفيعة للتقاليد في الذاكرات واللغة والاخلاق ونواميس الحياة الاجتماعية فاذا ما تجرد الانسان عن التاريخ بات امراً غير مذكور لانه من المستحيل الركوث الى الوعود الخلابة الواهمة المستندة الى الانانية العاشقة والقائمة على اساس مادي محض .

وانه لمن المستحيل الاعتقاد ان السعادة بوسعها ان تكون في هذه الارض كما تزعم نظريات القرن الثامن عشر الاقتصادية كما انه من المستحيل التسليم بالمفاهيم التي لم يحققها الاختبار والقائلة لا بد للانسانية من ان تبلغ كمالها ، لان مثل هذه التعاليم لعلى طرفي نقيض مع التاريخ ولان الحياة هي حركة مستمرة الى الامام .

اجل من الواجب ايجاد تعليم واقعي يحل عملياً المضلات التي يفرضها التاريخ وقد اوجد الانجيل لها حلها منذ البدء فلذلك ولجت الكنيسة البيوت من ابوابها في اتباع مجرى الوقائع لتجعل النفس تسيطر على القوى العاملة .

وفي سبيل التدليل على سرعة تطور الشؤون الاقتصادية التي يسكبها العمال مرير مغبتها لا ارى لى مندوحة عن الاماع الى ذلك الاستشهاد الذي اورده المحامي فيكتور ديليجان «Victor DILIGENT» في محاضراته التي القاها في ندوة الاسبوع الاجتماعي عام ١٩٢٥ قال :

« لقد زارني منذ يضة اسابيع رجل من كبار الاثرياء البورجوازيين
اذا كانت الالسنه تلغظ باقتواب الامسية العظمى لغطاً قوياً وكانت تبدو
عليه سمات الاضطراب وقال لي :

- لقد جئتك يا سيدي لتسديني نصائحك لاكتب وصيتي .
فأجبهه .

-- اراك ممتليء الصحة يا سيدي اما كتابه وصيتك فمن اختصاص
الكتاب العدل اكثر مما هو من اختصاص المحامين ومع ذلك فأنا مستعد
لخدمتك فقال لي :

- اعزني انتباهك بومته : لقد حانت ساعة الامسية العظمى فأنا على
يقين بانني سأموت رمية بالرصاص بصفة كوني بورجوازيًا لذلك اود أن
أؤمن مستقبل ابنائي » فأجبهته :

- من العبث يا مولاي اتخاذ هذا الاحتياط فالثورة اذا ما نشبت
لن تبقى عليك ولا على اولادك وانما أرجوك قبل ان تكتب وصيتك
ان تقوم بتحقيق لتري اذا كانت الثورة قريبة النشوب حقاً او لا ؟ فهل
عرفت المحيط العمالي ؟ فاذهب اليه اولاً وبعدها عد الي وحدثنني عنه . . .

واذ رأيته في اليوم التالي قال لي :

- حقاً انه لوضع باعث على الهول !

- أي هول هذا ؟ أهى الثورة ؟

- كلا ، انه مسكن العامل في مدننا الكبرى ، وتصور ان عيني رأت
بيوتاً حقيرة لا يدخلها الهواء ولا النور وقد فقد الذين يسكنونها كل
الشروط الضرورية للصحة والاخلاق حتى قلت في نفسي كيف لا يصير

هؤلاء البؤساء من البلاشفة؟ ولم أدرك لماذا أغفل مجتمعنا هذا المسكن الشعبي كل الاهتمام .

وصادفته في اليوم الثالث أيضاً فأردف قائلاً :

— لقد واصلت يا سيدي القيام ببحثي : أجل انه لباعث على الهول ما شهدته : فقد رأيت رجالاً طاعنين في السن أصبحوا كلاً على عاتق ابنائهم العاجزين عن اعالتهم لأن الغلاء فاحش وهم بعد ان اشتغلوا طوال حياتهم وربوا عيالا كثيرة لا يقوون على ايجاد فسحة بين آجالهم وایامهم التي قضوها في العمل .

نعم نعم لقد بدأت الحماسة الثورية تتأجج نارها بين اخالعي .

وما هي الا بضعة ايام اخرى وتمرّ حتى صادفته ايضاً فقال لي :

— لقد رأيت بام عيني عمالا يعيشون عيشة الرقيق الحقيقية وأيتهم يعرضون عليهم مقاولات للاتفاق على العمل وهم لا يجراؤن ان يناقشوا ارباب العمل في الشروط التي يفرضونها عليهم ، فأجبتة :

— ها أنت تكتشف الان امراً جديداً في باب الشؤون الاجتماعية فكم اكتشافاتك .

واننا لنغبط النفس الاغتباط كله لو كانت بضع صفحات من هذا النوع تمكن ذووي النيات الحسنة من اكتشاف ما اكتشفه ذلك الثري ،

ولئن شئت الجهر بانوقائع كما هي فلن اری لي مندوحة من القول بان التسعين في المئة من بين مقاولات العمال في بلادنا الشرقية تنعقد على مثل هذه الصورة من دون مراعاة ضرورات العامل الحيوية التي ينبغي ان تسدها اجوره كما حددتها البراءات الرسولية : « ان تقوم باوده واود ذويه لتمكنه

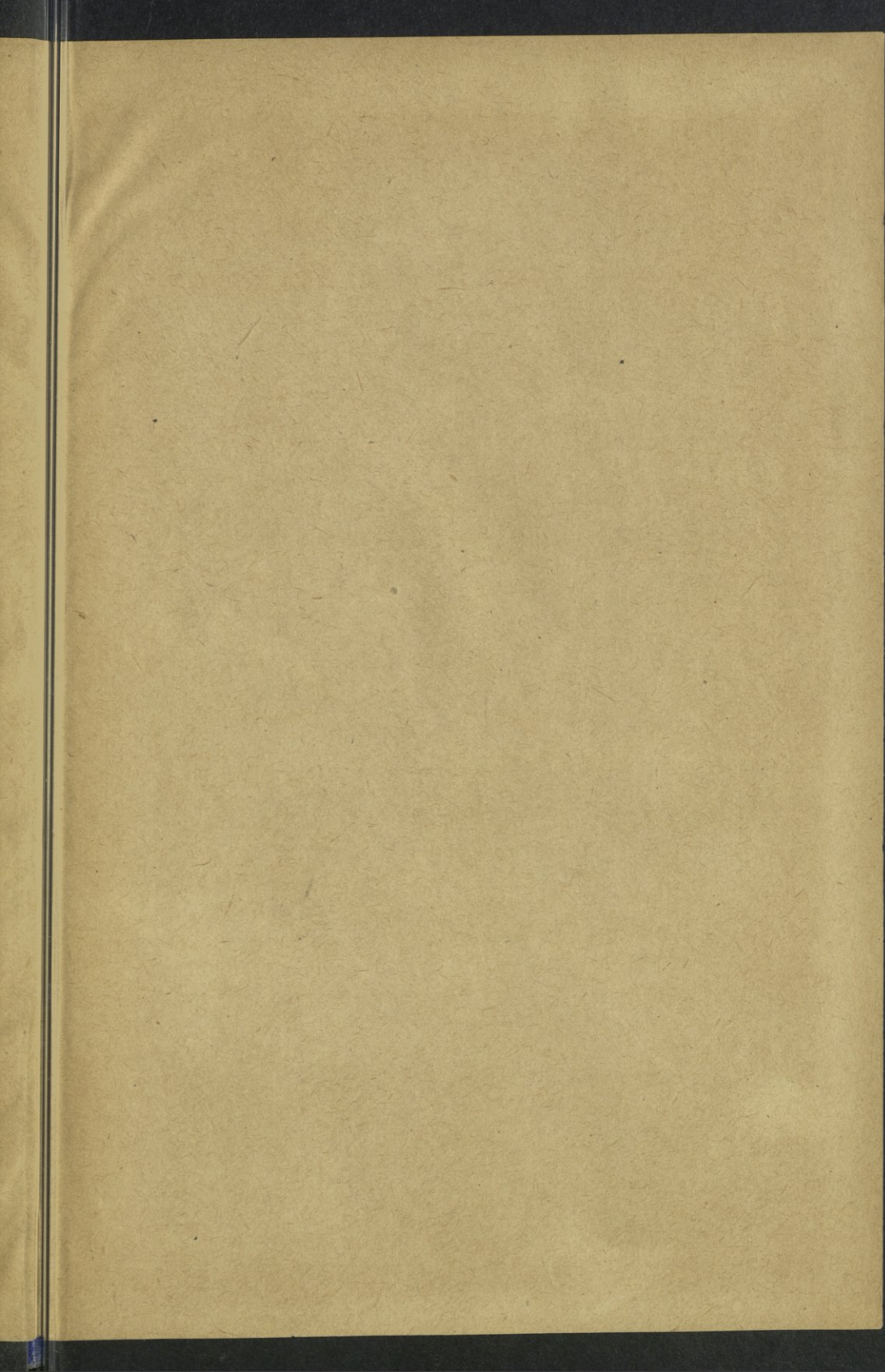
من ان يعيش عيشة لائقة » .

اما اذا نظرنا الى اعمال الاحسان التي يتولى القيام بها الخاصة فانها لن تؤدي الى تعميم الفائدة : فالتطبيب المجاني الذي عينت المستشفيات الخصوصية بعض ساعات له والتعليم المجاني الذي لا يشتمل على كل درجاته ودور الحضانة الخاصة التي تبذل بعض المساعدات والمأوي الخاصة ايضاً التي تلجئ اليها فئة من العجزة والشيخوخ الطاعنين بالسن لن تحول دون قيام الضائقات الاقتصادية وانتشار البأساء ، ولا سيما في اصقاعنا الشرقية التي تركز فيها رأس المال في ايدي افراد قلائل تركزاً لم ينجم معظمه الا عن اساليب ملتوية وطرق غير مشروعة حتى باتت شعوبنا في هذه البقعة المنشطرة الى فئتين فئة الاقلية الضئيلة التي تستولي على كل الموارد والمرافق وفئة الاكثوية العظمى التي باتت فريسة الاملاق والبؤس .

بله انه الواجب والواجب الملح الذي يدعونا ولا سيما في هذه البلاد التي لم تستشعر بعد معنى الانصاف الاجتماعي والعدل الصحيح الى تبني القواعد السامية التي تؤمن للانسان حقوقه الطبيعية والتي لا يستطيع احد مهما علت منزلته - ان يحرمه اياها - فالأكل والشرب واللباس والمسكن هي اولى حقوق الفرد الطبيعية فلماذا يتغاضى المنعمون كما - يزعمون - عنها وهم لم يحققوا ما حققوه من اثراء الا من وراء المجموع .

فوغ من طبعه في العشرين من ايار سنة ١٩٥٣





فهرست الكتاب

صفحة

١	المقدمة
٥	ملحوظات لا بد منها
٧	ما هي القضية الاجتماعية
١٠	ماهية المعضلة الاجتماعية
١٢	خطورة تأزم الأوضاع الاجتماعية
١٥	الاكتشافات والاختراعات
١٧	الاسباب الاخرى
٢٠	مميزات الضائقة الاقتصادية
٢٣	حلول القضية الاجتماعية الثلاثة

الفصل الاول

٢٥	خطل النظام الاقتصادي الحر
٢٨	مبادئ المنهج الاقتصادي الحر الرئيسية
٣٢	الاعمال الصناعية والتجارية ومناقضتها للمبادئ الادبية
٣٥	المساوي التي افضى اليها المذهب الاقتصادي الحر
٣٦	اوضاع العمل وشروطه
٤٣	فقد المنهج الحر
٤٨	ان النظام الاقتصادي الرأسمالي ليس فيه من الحرية الا ان يقول عن نفسه انه المنهج الحر

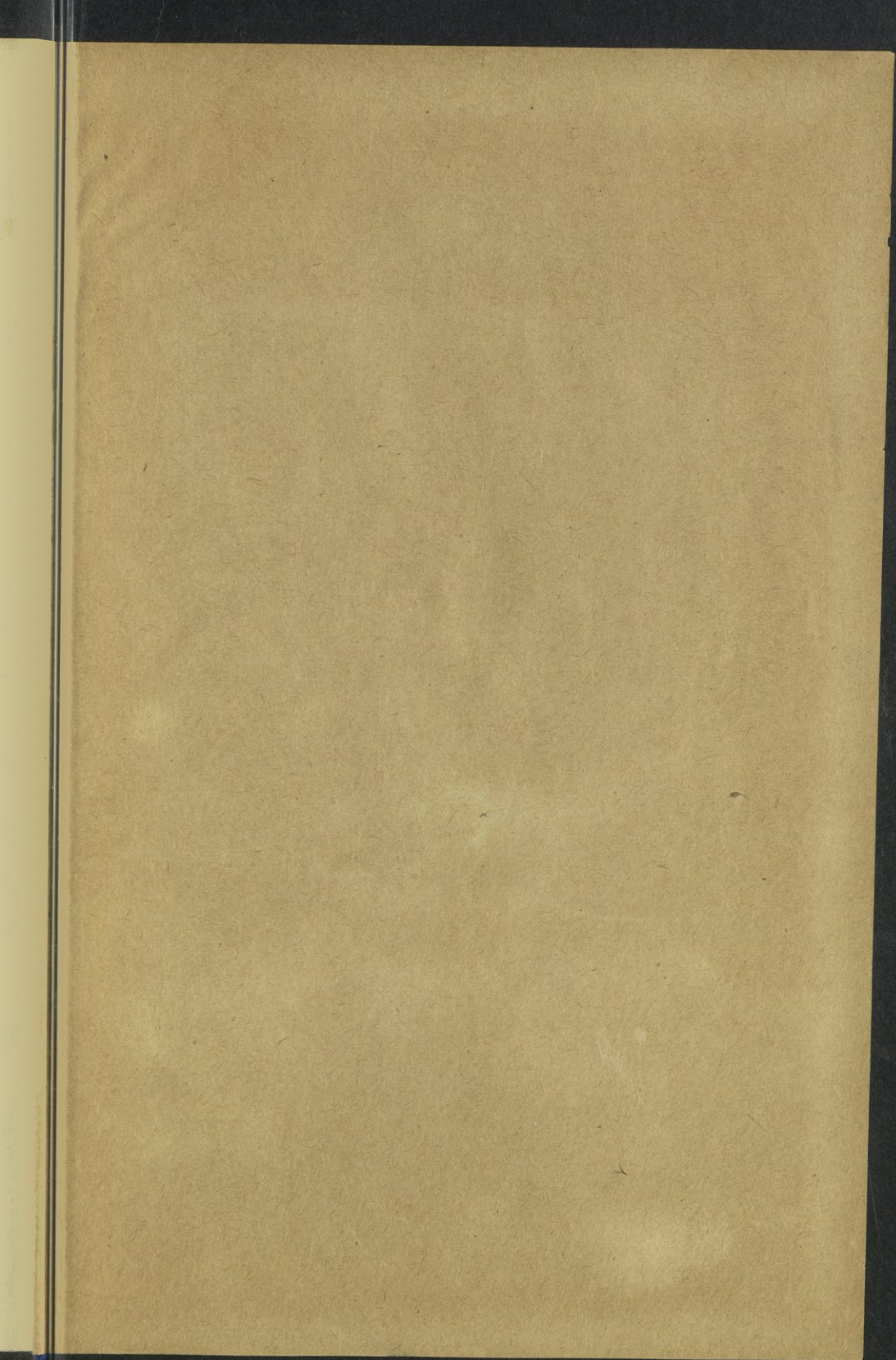
الفصل الثاني

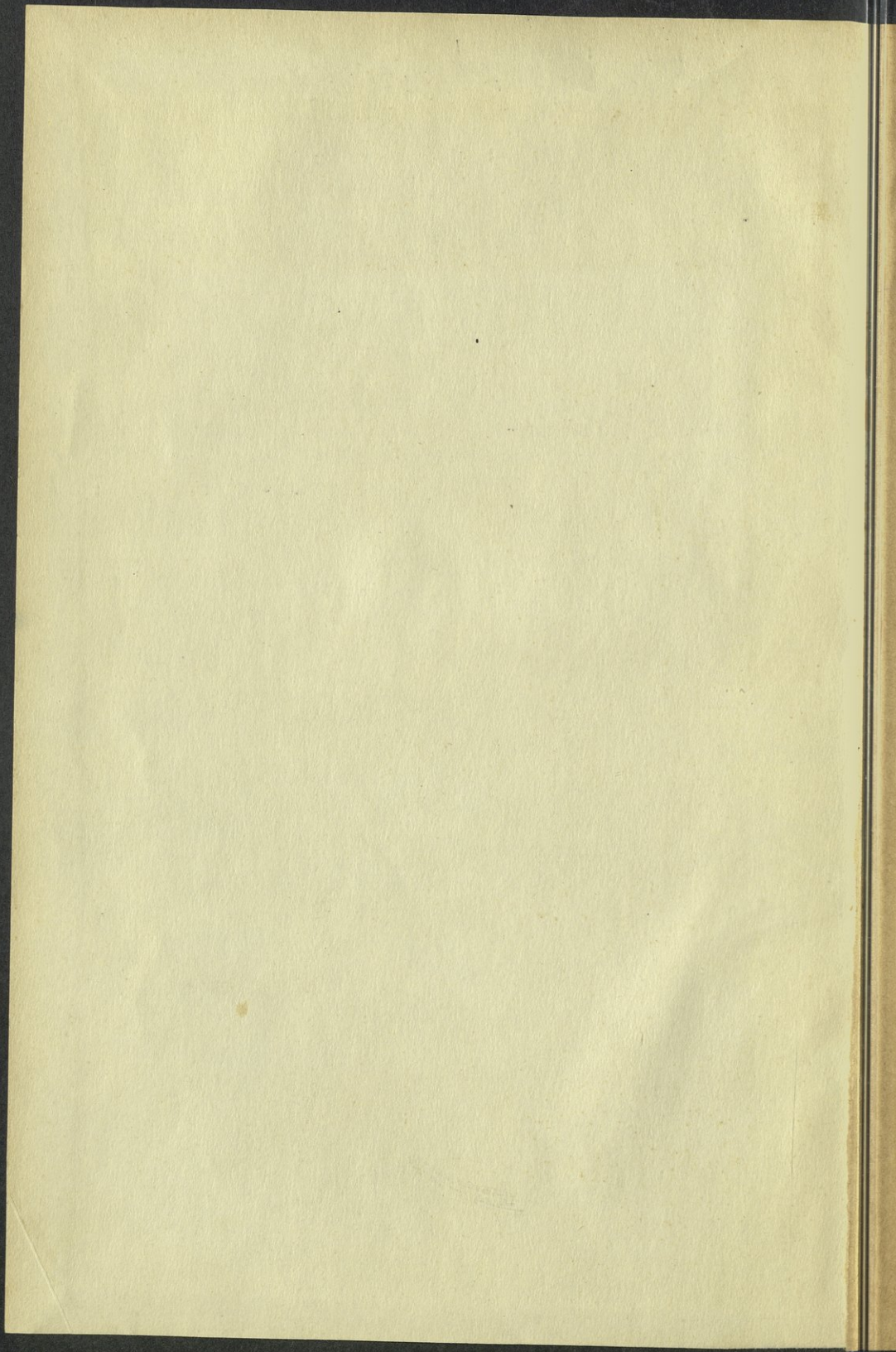
٦٣	تابع فقد المنهج الحر وبيان مساوي النظام الاشتراكي الشيوعي
----	---

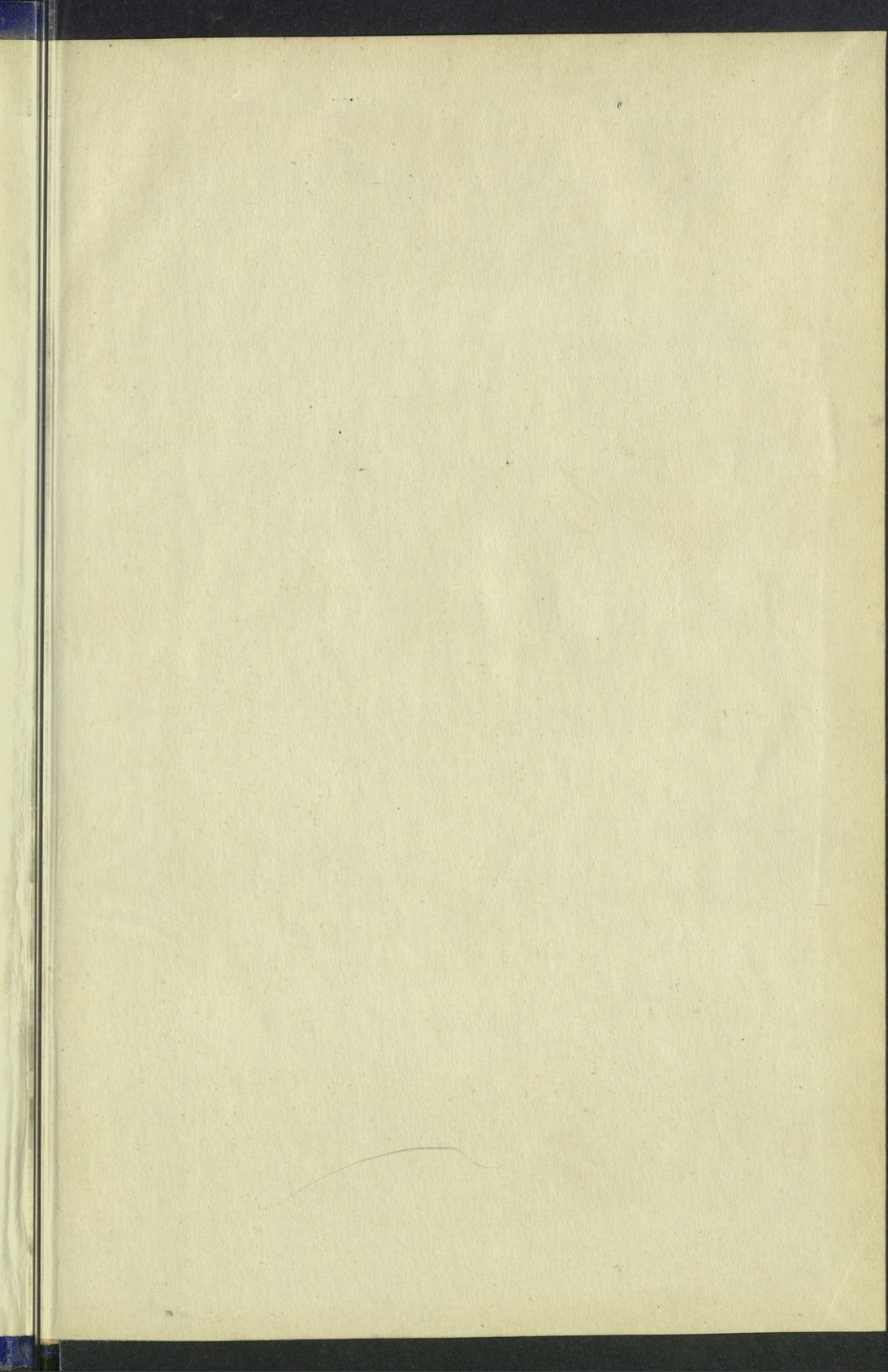
الفصل الثالث

١٢٨	الاشتراكية الكاثوليكية
١٥٧	الخلاصة

انتظروا قريباً الملحق لهذا الكتاب







331:Sa15mA:c.1

صقر، الياس يوسف

مم يشكو الناس؟ مصير العالم رهن مصر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01016457

American University of Beirut



331

Sa15mA

General Library

331

Sal 5mA

C.1